"يقترب كيركيجارد بعمقٍ من النفس، حتى ليشعرُ المرء بأنه قريب تماماً منه، هذا ما حصل لي أنا شخصياً، وبدون أن أشعر وجدتُ نفسي منسحباً إلى جدل كبير عن الهدف والمعنى الحقيقي من حياتي".

نينوى

أنصت إلى ذاتك

تـــد هـاريس

آن لاغرستروم

ترجمة: أثمار عباس



أنصــت إلــى ذاتــك

اسم الكتاب : انصت إلى ذاتك

فلسفة وجودية للإنسان المعاصر!

المؤلف: تَد هاريس و آنّ لاغرستروم

ترجمة: أثمار عباس

عدد الصفحات: 244

القياس: 14.5 ❖ 21.5

1000/ 2012م - 1433هـ





سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963 +

هاتــف: 2326985 11 963 +

E-mail: ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني ـ دار نينوى

تّـد هـاريـس و آنّ لاغـرسـتـروم

أنصت إلى ذاتك

فلسفة وجودية للإنسان المعاصر!

حديث فلسفي للنفس
عن حقيقة كينونة الإنسان
وقلقه إزاء حقيقة الوجود

ترجمة

أثمار عبـاس

المترجمة: أثمار عباس

- خريجة معهد الفنون الجميلة قسم الفنون المسرحية/ بغداد 1983.
- خريجة أكاديمية الفنون الجميلة قسم الفنون المسرحية/ بغداد 1987.
- كورس في كتابة السيناريو/ مالمو/ السويد.
- عملت كممثلة مسرحية وسينمائية.
- عملت كمحررة في بعض من الصحف والمجلات العربية.
- قامت بإعداد الكثير من البرامج الإذاعية.
- عملت وأخرجت أفلاماً وثائقية وسينمائية.
- حائزة على الكثير من الجوائز في مجال التمثيل والإخراج والسيناريو.

Athmar80@hotmail.com

مقدمة المترجمة

علينا أن نواجه أزمات الحياة بأسلوبٍ فلسفي وأن نجرؤ على النّظر إلى أعماقنا!

نسمع دائماً بأنّنا أفراد نعيش عالمنا بشكل فردي، ولكنّنا في الوقت نفسه، لا يمكننا اتّخاذ قرار خاص بنا، في الوقت الذي ينبغي علينا أن نعمل ونختار أشياءنا وحياتنا بأنفسنا إلا أننا نجد أن الآخرين هم الذين يختارون ويقررون عنا.

هل واجهت نفسك يوماً وعرفت حقيقتها؟ من أنت؟ هل أنت شخص حقيقي أم مزيف؟ أصلي أم نسخة عن الآخرين أم أنك شخص حر؟ هل أنت عميق ممتلئ أم سطحي فارغ؟ ما مدى صدقك مع الحياة؟ هل تشعر بأن اختياراتك في الحياة نابعة من رغبة خاصة في داخلك، أم أنها رغبة الآخرين وأنت تعمل فقط على تنفيذها؟ كم هي النسبة المئوية التي تطبق فيها أراءك الخاصة ووجهات نظرك في الحياة؟ كل هذه الأسئلة وغيرها كان قد طرحها الفيلسوف الدنماركي سورين كيركيجارد قبل قرن ونصف من الزمن لكنها لم تكن واضحة بما

يكفي، والآن يُعيد الكاتب الدكتور تَد هاريس المتخصص بفلسفة سورين كيركيجارد والكاتبة آنّ لاجرستروم ليكتبا عملاً عن كيركيجارد في وقفة تأمل لمدة عام، هكذا قام الدكتور هاريس بتفسير أفكار كيركيجارد والعمل على تأويلها لتلمس حياة إنسان اليوم والاقتراب من روحه، كما قامت الكاتبة آن لاجرستروم بتدوين تلك التفسيرات وتقديمها إلينا في هذا الكتاب. «أنصت إلى داخلك»، كتاب جديد بترجمات جديدة لتلك الفلسفة - القديمة - الحديثة - التي تحدث عنها كيركيجارد، إنها فلسفة تحفز الروح وتحثها على الإنصات إلى داخل النفس لمعرفة أسرارها وكينونتها.

حسب فلسفة كيركيجارد يستطيع المرء أن يمر بثلاث مراحل للتطور في حياته، **المرحلة الأولى وهي المرحلة الحسية**: في هذه المرحلة تقف المادة لتصبح مركزاً كبيراً لاهتمام الإنسان، فهو يعيش حياة حسيّة، مادية منذ لحظة ولادته، لحظة تذوقه حليب الأم حتى بلوغه سن الأربعين أو ما بعدها، عندها يكون قد وصل إلى تحقيق الكثير من أهدافه في الحياة، عاش، جرّب، قام بتحقيق أحلامه وأمنياته لكنه رغم كل ما توصل إليه، إلا أنه يشعر بعدم الراحة وأن إحساساً مفاجئاً بفراغ هائل يعتصر روحه، وتراوده أفكار غير واضحة تنخر داخله، فيشعر بهدوء داخل نفسه ويخفت اندفاعه نحو الأشياء ويبدأ يتساءل: ما هذا الفراغ الهائل الذي يجتاح روحي رغم كل هذا الذي أملكه الآن؟ لماذا أشعر بالوحدة رغم وجود كل هؤلاء القريبين من حولي؟ ماذا أصنع كي تمتلئ روحي؟ إن كل الأشياء التي جمعتها وكل هذه الحياة التي أحياها ليس لها أي معنى، إنها لم تسدّ حاجة في نفسي؟ هنا ستكون بداية الطريق لدخول المرء إلى **المرحلة الثانية** التي أطلق عليها سورين «**الجوّانية**» من هنا يبدأ بالتفكير ويحاول أن يفهم ذاته فيتساءل: من

أنا؟ ما المعنى من حياتي؟ وتبدأ رحلته في البحث عن حقيقة كينونته فيسعى للمعرفة والحكمة ويحاول بذل كل جهد ليفهم ذاته ويكون أكثر وضوحاً مع نفسه ليصل إلى تحقيق ما يمكن تسميتها بالجوّانية.

يقول كيركيجارد إذا رغبت في أن تكون جوّانياً عليك أن تجرؤ وتري نفسك الحقيقية: هل أنت خائف؟ يسأل كيركيجارد في الجزء الأول من كتابه «إما أو»: ممّ تخاف؟ لن تتحول إلى شخص آخر، لا، وإنما ذلك الشخص الذي تتعرف إليه هو أنت نفسك! انتظر قليلاً ربما ستشعر بالفرح والدهشة الرائعة عندما ترى نفسك وكأنك إنسان آخر يُولد من جديد!.

لطالما أحببت ذلك الإنسان الحقيقي الذي لا تخدعه المظاهر ولا ينقاد وراء اختيارات الآخرين وآراءهم، هذا الشخص الذي يعيش حياته بصدق كامل سواء أمام نفسه أو أمام الآخرين فمهما كانت طريقته الحياتية وكيفما كانت اختياراته طالما كانت صادقة ونابعة من أعماق روحه فأنا احترمها، لقد أحببت دائماً ذلك الشخص الذي يمحص ويستغور داخله ويستطيع أن يقرر ويعرف؛ وبالتالي يفهم ما تحتاج إليه روحه وما لا تحتاجه. إن الأمر لجميل لكنه صعب في الوقت نفسه، ففي فلسفة كيركيجارد كل شيء يكون صحيحاً لمجرد أنك تستمع إلى داخلك وتختار بعناية فائقة ما الذي تريده.

بعد المرحلة الجوّانية وبعد أن يتعمق المرء في ذاته وفي الحياة تأتي المرحلة الثالثة والأخيرة وهي المرحلة الروحية، المرحلة الصعبة التي لم يستطع أي إنسان الوصول إليها بسهولة حتى أن سورين كيركيجارد كتب يقول أنه لم يستطع التعمق فيها لكنه تمكن من إدخال جزء بسيط من أنفه فقط وخرج منها، واكتفى بأن يعيش الحسيّة

والجوّانية، أن يقرأ ويكتب الفلسفة وأن يحب كل شيء وكان هذا كافياً بالنسبة إليه.

ربما كان صحيحاً كما قال البروفيسور لارستونستام: أنه عندما يكبر الإنسان ينتظم كل شيء من تلقاء نفسه فتتراجع الأنا تلقائياً ويبدأ المرء بفهم نفسه فهماً عميقاً حتى ليشعر وكأنه جزءٌ من طاقة الينبوع الجاري أو أنه كشجرة وارفة الظلال تطرح الأوكسجين لتمنحه الحياة، إذا وصل الإنسان إلى هذه الحال يكون قد ذهب في طريقه نحو المرحلة الروحية.

لكي تصبح مثل كيركيجارد عليك أن تفكر ملياً في تفاصيل حياتك اليومية وتعكس أفكارك وما تؤمن به في تصرفاتك وتعاملك مع نفسك أولاً قبل الآخرين، يقول كيركيجارد:

- على المرء أن يعبّر بصدق عما يريد وذلك عبر اختياراته اليومية البسيطة، أن يختار بصدق تام من تلقاء ذاته ما الذي يرغب في أن يقوم به لا أن يفعل ذلك لمجرد أنه متأثر بشخص أو آخر أو يكون منقاداً لرغبة الآخرين..

أن تتصرف بأسلوب كيركيجارد في حياتك عليك أن تتعامل وتأخذ نفسك والآخرين إلى أقصى حد من الجدية والاحترام، أي أن تتعامل مع أهلك وأصدقائك، جيرانك ومن أصغر بائع في السوق إلى جميع البشر بالاحترام ذاته الذي ترغب أن يعاملونك به، كي تطبق فلسفة كيركيجارد عليك أن تبقي على آرائك وعلى القيم التي تؤمن بها من أعماقك وأن تستند إليها ولا تبدلها ولا تفتخر بها أمام الأصدقاء والآخرين، يقول كيركيجارد: من السهل جداً الانقياد وراء الآخرين لكن الأصعب هو أن تستمع إلى صوت قلبك، قف على قدميك واكتشف وجودك الفريد الخاص بك.

سورين كيركيجارد 1855ـ 1813

فيلسوف ومؤلف ومفكر لاهوتي دنماركي، وهو ابن لأحد الرجال الأثرياء في كوبنهايكن، بدأ دراسته في علم الأديان ليصبح كاهناً لكنه في عمر مبكر اجتاحه القلق وعذبته الشكوك فقضى حياته يبحث عن معنى الحياة، لقد فهم الحياة والوجود وأصبح بعد ذلك عراباً لمذهب الوجودية في الثقافة الغربية كلها . لم تحظ أفكار كيركيجارد بشعبية آنذاك لكن تم اكتشاف كتاباته الفلسفية عام 1900 من قبل المفكرين مارتن هايدغر وجان بول سارتر. من أهم أعماله: مفهوم القلق، إما أو، مراحل في طريق الحياة، والخاتمة غير العلمية.

أثمار عباس

مسقط/ عُمان

«كل إنسان ... لديه احتياج ما، ومن الطبيعي أن يحصل عليه، أن تكون له فلسفة، مفهوم ما عن الهدف والمعنى الحقيقي من حياته»

من كتاب «إما أو» سورين كيركيجارد

مدخل

اليوم هو الخميس وكان القس تَد هاريس قد انتهى لتوه من إعداد الشاي حين وصلت لألقي عليه التحية في «بيت المدرسة» الواقع في مقبرة «أدولف فريدريك» وسط الطريق المؤدي إلى المحطة العالمية في العاصمة السويدية استوكهولم، التقيت تّد وتحدثنا عن الحياة والبشر وكم نحن بشكل لا يصدق أن معظمنا يعيش حياته مشوشاً كالتائه لا يعرف ماذا يريد وعلى الرغم من أننا نعيش حياة آمنة في بيئة مستقرة منظمة بصورة كبيرة إلا أننا رغم ذلك لا نشعر بالأمان ونحس بأننا ضالين لا نعرف من نحن، ولا ماذا نريد؟

شرع تَد هاريس يتحدث عن سورين كيركيجارد، الفيلسوف الدنماركي الذي عاش في الفترة (1800) كانسورين كيركيجارد يرى (من الضروري للمرء أن يكون له معنى خاص لحياته.)

كل فرد منا يحتاج أن يكون له مفهوم ما للحياة، وجهة نظر خاصة به حول ذاته والحياة التي يعيشها، هذا ما كان يعنيه كيركيجارد. وهكذا فتح تّد هاريس النقاش حول هذا المفهوم وبدأ يقول:

- هناك شيء ما في داخلنا، نظرية ما، مفهوم ما حول الحياة والمعنى من وجودنا، هو الذي يعطينا الطاقة والدافع كي ننهض صباح كل يوم من الفراش ونواصل حياتنا، هو الذي يزودنا بالقوة لنحيا وجودنا، بدون ذلك

المعنى يفقد الإنسان موطئ قدمه في الحياة ويصبح فارغاً ويشعر بالخواء.

- هل كتب سورين كيركيجارد هذا؟

سألته وأنا حتى الآن لا أعرف الكثير عن هذا الفيلسوف ولم أمنح نفسي الوقت الكافي لأفهم فلسفته.

- نعم، بالإضافة إلى ذلك كان كيركيجارد يعتقد أن المعنى من الحياة هي مسألة فردية بحتة، لا أحد يستطيع أن يبحث أو يُعَبّر أو يفصح عنها غير الشخص نفسه.

- هل تقصد أن على المرء أن يبحث عن معنى لحياته بمفرده تماماً؟

- نعم، يرى كيركيجارد أن لكل منا هدف ما للحياة، نصنعه بأنفسنا فقط.

- لوحدنا تماماً؟!؟ ولكن ماذا عن الأشياء التي نشأنا عليها؟ ماذا عن المعتقدات، العقائد الثابتة والراسخة فينا؟ ماذا عن الأديان؟ الفلسفات؟

أقول لهاريس الذي ذهب إلى المطبخ ليجلب أقداح الشاي وبعضاً من شطائر الجبنة والطماطم وكثير من الفلفل الأسود:

- كيف لي أن أفعل من دون كل ما سبق؟ ألا يمكن أن أنظر إلى كل تلك المفاهيم وأبحث عن المعنى لحياتي؟

- كلا،لا يمكن حسب ما تعنيه نظرية سورين كيركيجارد! قال هاريس وهو يعد المائدة ثم أضاف:

- أنت لا تستطيعين أن تمضي وراء أفكار الآخرين لتجدي معنى لحياتك، ينبغي أن تبحثي أنت وحدك، إنها حياتك أنت، والمعنى منها هو معنى خاص بك أنت فيها، ولهذا السبب أنت الوحيدة فقط من تمتلك الجواب عنها، كيف، أو ماذا يفعل الإنسان كي يصل إلى فهم هذا المعنى؟ هذا ما وصل إليه كيركيجارد في سنوات مبكرة من عمره، ثم حاول بعدئذ أن يتخيل طريقة ما توصل الإنسان إلى هذا المعنى، لقد كرَّسَ سورين نفسه

ووقته وهو يعد ويحسب ويُقيم لكي يفهم كيف تسير الأمور، هل هذا الطريق أو على هذا الشكل أم ذاك؟ ماذا وكيف يفعل المرء كي يستطيع أن يفهم نفسه؟ كيف يمكن له أن يعبر أو يفصح عن المعنى الخاص لحياته؟ وهكذا بمرور الوقت وبعد تأمل عميق وجد سورين لتفكيره منفذاً وصل به إلى ثلاث مراحل وتسع خطوات يمكن للمرء أن يستوعب ذاته فيها ويفهم المعنى الحقيقي من حياته ووجوده.

- هل فعل ذلك؟ هل وجد سورين طريقاً روحانياً خاصاً بنا نحن بلدان الشمال «الاسكندنافيون» كما في الروحانية الشرقية؟ تساءلت بذهول.

- كلا، إنه ليس بطريق روحاني! قال القس هاريس وأكمل: وإنما هو مجرد أسلوب، منهج يقدمه للإنسان كي يستطيع البحث عن معنى لحياته ويتعرف إلى ذاته بنفسه. بالتأكيد لم يكن سورين يرغب أن تطلق عليه صفة نبي على الإطلاق، ولم يرضَ أن يطلق على نفسه صفة عالم دين لاهوتي أو فيلسوف أو حتى معلم، ولم يرغب أن يعطي الآخرين أجوبة ما، ولا يملك وصفاً دقيقاً لماهية الحقيقة، وليس لديه تحليل معين لأي شيء، أما تلك الخطوات التسع فقد نمت وكبرت وتطورت معه خلال حياته وتجربته الخاصة وتوصل إليها عبر أسئلته الوجودية وصراعاته الخاصة حول كينونته والأشياء الأخرى الثابتة الموجودة في الحياة.

- إذاً: ما الذي توصل إليه؟

- ما توصل إليه هو: ينبغي للإنسان أن يتعلم كيف يعيش جوّانياً؟

قال هاريس هذا وهنا ضربت الكلمات في رأسي:

- جوّانياً!؟ منذ زمن بعيد لم أسمع شخصاً يتحدث عن هذا!؟ ماذا كان يقصد سورين بذلك؟

- أن تكون جوّانياً .- قال هاريس- معنى ذلك أن على المرء أن ينظر

إلى الحياة وداخله، ويأخذهما إلى أقصى حد من الجدية، أن تراقب الواقع بحنو، أن تتأمل حقيقتك الجوانية والخارجية بعمق، وفي كل لحظة تمر على المرء يحاول أن يفهم كيف ترتبط الأشياء ببعضها؟ ما هي تلك العلاقة التي تربط البشر ببعضهم، ولابد أن ينسى كل الالتزامات وأن ينسى ما آمن به الآخرون من حقائق وأفكار ومعتقدات، وبدلاً من ذلك ينبغي أن يفكر بمشاعره على نحو تأملي، ماذا يُحب وما هي حقيقته، ووراء كل تلك التصرفات التي يقوم بها وما خلف كل تلك الادعاءات التي يؤمن بها في الحياة، منْ هي شخصيته بالضبط؟ كيف سيستخدم نفسه في ذلك الوجود؟ بمعنى ماذا سيعمل في حياته؟ ماذا يعرف عن أصل الحياة ومصدرها؟ نشأتها؟ ماذا يعرف عن ذاته؟ عن الوجود؟ عن ذلك الذي يطلق عليه (سورين) أحياناً اللا شيء.. العدم؟

لقد تأخر الوقت وأخذنا الحديث وبدأ الظلام يتسلل خلسة حولنا عبر شبابيك «بيت المدرسة» البيضاء الكبيرة، حمل هاريس الأكواب والأطباق ووضعها في ماكينة غسيل الصحون في المطبخ الصغير الضيق وعندما عاد من المطبخ سألته فيما إذا هناك إمكانية كتابة كتاب خاص عن منهج وأسلوب (كيركيجارد)، رغم أن هناك ما يكفي من الكتب التي نُشرت عن كيركيجارد وفلسفته بالإضافة إلى أن المكتبات العامة مليئة بعشرات الكتب التي تحاول ترجمة أفكاره، إلا أني كنت أفضل أن أقرأ كتاباً خاصاً عن طريقته التي توصل بها إلى فهم الذات، كتاب يتطرق إلى البحث عن معنى الحياة، وعن قدرتك لتكون جوّانياً، باطنياً، كتاب يُكتب لأمثالي الذين لا يعرفون شيئاً عن الفلسفة، أنا شخصياً أرغب في قراءة كتاب كهذا، كتاب موجه لهؤلاء الذين لا يَلمُونَ بالفلسفة وليسوا ذوي معرفة بأسرارها وغموضها، إذ لا يوجد كتاب كهذا، فلماذا لا نكتبه نحن؟ ما رأيك يا تًد هاريس؟

- إذاً تكتبينه أنت؟ قال تَد هاريس:
- سأتحدث أنا، وأنت تكتبين؟ اتفقنا؟
- نعم، اتفقنا! وهكذا بدأنا بكتابة هذا الكتاب.

إن هذا الكتاب عن سورين كيركيجارد يتضمن ثلاث مراحل وتسع خطوات جاءت بعد عدة محادثات ونقاشات طويلة هناك في «بيت المدرسة» الواقع في المقبرة، كان تَد هاريس يروي وأحياناً يرسم في دفتر الملاحظات ليوضح لي أكثر، وهكذا وبتحد تام قام تَد هاريس بإعادة تفسير وترجمة فلسفة وأفكار كيركيجارد القديمة التي لم تكن واضحة للقارئ وشرحها ووضّحها بشكل جلي وجديد ليفهمها إنسان اليوم.

لقد كتبت هذا الكتاب بعون من تجربة حياتي الخاصة وحياة الآخرين وحاولت أن أوصل أفكار الدكتور تَد هاريس والفيلسوف كيركيجارد ونقلها إلى صورة واقعية ملموسة ولتكون قابلة لاستخدامنا نحن أناس هذا العصر، وهكذا ولد هذا الكتاب، إذاً دعونا نتناول هذه الفلسفة القديمة التي مر عليها نحو مائتا عام تقريباً ولنمسك يدنا بيد سورين كيركيجارد ونسير معه في طريقه الجوّاني الذي سار عليه.

- والآن يضع سورين قبعته الغريبة على رأسه ويرتدي معطفه القديم وحذاءه القديم وسرواله الضيق الطويل ويمضي في طريقه ونحن وراءه.

- لا تنس أن تأخذ واحدة من عصيك المفضلة يا سورين!.

أنا لاغلاستروم

«.... الأمر يتعلق بأن أجد حقيقة ما،
معنى يعني لي الكثير، أن أجد تلك الفكرة
التي سأكون على استعداد للعيش والموت
من أجلها.»

من دفتر يوميات سورين كيركيجارد

هكذا يبدأ بسؤال ! ؟ ؟ ؟

قد يبدأ الأمر هكذا بسؤال، في لحظة ما، في يوم ما من أيام حياتك العادية وأنت جالس في مكان ما تشعر بأن هناك إحساس خفي مغلوط في داخلك، ينتابك هاجس غير مُريح وتشعر بأن هناك شيء غير مضبوط في داخلك، إحساس يواصل الحفر داخلك ولا يدعك وشأنك.

إن الحوافز الخارجية «المادية» في الحياة عديدة لا تعد ولا تحصى ولا تدع المرء يعيش بهدوء مع نفسه فهي واقفة هناك تلوح وتنادي دائماً وأبداً ولا يستطيع المرء أن يتركها أو يتخلى عنها بسهولة خصوصاً في وقتنا الحالي والأشياء الهائلة التي يمكن لها أن تُلهي المرء وتشغله عن ذاته حتى وإن حاول تغيير اهتماماته والقيام بأشياء أخرى جديدة ومهما عمل وكيفما فعل سيواصل الشعور بعدم الراحة ورغم كل التصرفات التي يقوم بها إلا أنه لا يشعر بالراحة أبداً ولا يتحسن داخله إطلاقاً، ثم بعد فترة تعود إلى نفسه الهواجس مجدداً ويشعر بقلق غامض لا يعرف مصدره أو ما هي أسبابه فينتابه شعور مشوش يَقضقض داخله، إحساس ضبابي لا يعرف كنهه شعور بعدم الارتياح، شيء ما يظل يَقرُض ويقرض لا يعرف ما هو إلى أن يتوقف ذات يوم فجأة وربما في وقت متأخر من الليل فينتابه شعور بالجرأة فيبدأ بالإنصات إلى داخله، وبمزاج هادئ رائق يستمع إلى صوت داخلي يسأله بهدوء بعبارة ذات خمس كلمات:

- ما هو المعنى من حياتك؟ هنا يبدأ الشخص بالتفكير:

- نعم، هذا صحيح، ما هو حقاً المعنى الحقيقي لحياتي؟ إنه ليس بسؤال غريب من نوعه، ولا هو بسؤال مربك أو محير، لقد طُرح منذ قرون بعيدة لكن لا أحد يذكر ذلك، لقد بدأ الإنسان يسأل هذا السؤال منذ أزمان بعيدة، منذ زمن الكائن الذي يسمى إنساناً، منذ أصبحت لديه القدرة على التخيل والتأمل كل بصباح بأن هناك غداً سيشرق صباح جديد، لكن لا أحد يذكر ذلك أبداً.

- هل هذا كل شيء؟ يسأل المرء نفسه، ألا يوجد هناك شيء آخر؟

من ناحية سورين كيركيجارد الفيلسوف الكبير جاء سؤاله عن معنى الحياة في وقت مبكر جداً، أول مرة أحس بهذا السؤال عندما كان في سن الثانية والعشرين.

بوسعك الآن رؤية سورين، إنه أمامكم هناك في غرفة الأولاد في الشقة الكبيرة الواقعة في شارع نيتورف 2 في كوبنهايكن، إنه العام 1835 وسورين يمسك بأمتعته ويَحزم حقيبته ليرحل.

لقد كان سورين يمتلك كل ما يطلبه ويتمناه الشاب الصغير في ذلك الوقت، كان والده ميشيل بدرسن قد عمل طويلاً إلى أن جمع ثروة كبيرة وأصبح من أغنى أغنياء كوبنهايكن وكان لديه طموح كبير أن يكمل جميع أولاده تعليمهم العالي، وهاهو سورين يذهب إلى الجامعة ليدرس اللاهوت وهكذا بدأ بدراسة علم الأديان لعله يصبح قساً لقد قرأ ودرس لكنه لم يبالغ بدراسته وكان يأخذ قسطاً كبيراً من الراحة ويحتفل كثيراً وأحياناً يذهب إلى المحاضرات بدون رغبة فقد كانت لديه صعوبة في أن يفهم لماذا يجمع كل تلك المعلومات وماذا سيفعل بها؟ ماذا ستضيف له تلك المواضيع والدراسات العلمية؟:

- بماذا ستفيدني تلك المعلومات التي أدرسها في الجامعة؟ ماذا

ستضيف لي إن استطعت أن أشرحها أو أفسر تلك التعاليم المسيحية التي أعرفها في الأساس؟ إلى ماذا سيفضي بي الحال إن عرفت الكثير عن تلك المعاني وعن الظواهر الطبيعية في الكون؟ وعندما لا يمكن لتلك المواضيع أن تعني لذاتي ولنفسي شيئاً، ولا تعطي لحياتي أي معنى عميق، لماذا أقروها؟! يكتب هذا كيركيجارد في كتابه «يوميات الأخضر».

لم يعد هناك شيء يلامس قلب كيركيجارد، ولا شيء يؤثر عليه أو يشعره بالحماس كالحماس الذي يشعر به الكثير من شباب اليوم، كانت آراؤه سابقة لعمره، فمنذ عامه العشرين كان يشعر بأن أغلب الأشياء ليس لها معنى وأنها عديمة الفائدة:

- لماذا أعيش؟ بدأ يسأل نفسه!

- ما هو المغزى من حياتي؟ أنا شخص يقف هكذا على علامة استفهام كبيرة؟!

وهكذا قرر سورين أن يترك المدينة ويسافر بعيداً إلى الريف، سافر إلى «غيلاليه» قرية الصيادين، فبعد أن اكتشف أن كل شيء بلا معنى وما هو إلا خُدع زائلة هرب إلى الطبيعة ووجد أن العزاء الوحيد هو أن يكون هناك بين أحضان الطبيعة المتجددة دائماً وأبداً وأن يتعلم منها ويبحث عن ذاته فيها، وكما كتب في رسالة إلى نسيبه بيتر وليام لوند الذي تزوج بإحدى قريباته يقول: إن سبب رحلته إلى الريف هو العودة إلى الطبيعة، وهناك سيركز انتباهه إلى داخله ويلقي نظرة إلى أعماق روحه، إنها نظرة تفحص عميقة ربما يصل بها إلى تفهم ما لأصول الدواخل الإنسانية، هذا ما حصل مع العالم إسحاق نيوتن عند جلوسه مع الطبيعة، إنه يوم عادي من أيام العطلة الصيفية، بدا وكأنه حدث عادي لكنه أصبح واحداً من أهم الأحداث التاريخية التي أثرت على مجرى الحياة الإنسانية كلها، لقد استلهم إسحاق نيوتن مصدر طاقته ونظريته حول الجاذبية الأرضية من جلوسه تحت

شجرة التفاح، كان نيوتن جالساً تحت الشجرة يتأمل عندما سقطت تفاحة من أعلى الشجرة إلى الأرض، فخطرت له الفكرة وجاء بنظريته تلك، كذلك سورين كيركيجارد ترك المدينة ورحل إلى قرية «غيلاليه» حيث الريف الساحر والطبيعة الخلابة، جلس سورين هناك أياماً حيث استطاع أن يعبّر عن نفسه وشكّل الأساس الأول لفلسفته الوجودية.

- إذ لم أجد معنى للحياة في حياة المرح والاستمتاع التي أعيشها في كوبنهايكن ولم أجد ذلك المغزى في دراساتي للعلوم والمعارف التي قرأتها في الجامعة قد أجدها مع الطبيعة!.. الأشجار!

فكّر سورين بهذا وهو يتمشى مُتَمهلاً بين الطبيعة مرتدياً صندله وهكذا بعد عدة أسابيع من التَجَوُّل في الريف والغابات، بين البحيرات والسير إلى شاطئ البحر وزيارة كل الأمكنة التاريخية والأثرية استَسْلم كيركيجارد وعاد إلى المدينة وشعر أن تلك الأمكنة إلى الآن لم تُلامس قلبه من الداخل ولم تُؤثر عليه بشيء ولم تُحرك أي إحساس في داخله، وهكذا في الأول من أوغست سنة 1835 صدر كتابه الأخضر، كتب تلك العبارة التي ستدخل تاريخ الفلسفة:

«.... ينبغي أن أجد شيئاً ما، فكرة تعني لي الحقيقة، ينبغي أن أجد تلك الفكرة التي أنا على استعداد في أن أعيش أو أموت من أجلها!»

إنها مجرد كلمات بريئة جاءت خربشات من أفكار شاب صغير لكن هذه الجملة بما تحمله من معاني أحدثت طفرة عقلانيّة فكرية كبيرة وأثرت في الفكر الغربي والعالم كله.

«أنا سورين كيركيجارد، لقد اكتشفت حقيقة وهي أنني لا أحتاج أن أبحث عن معنى لحياتي خارج نفسي، وليس بالضرورة أن أخضع لاعتبارات الآخرين وآرائهم

المعتدين بها وأسير وراءهم أو أؤمن كما آمنوا هم بها، لقد تعلموا بأنفسهم وصدّقوا ووجدوا المعنى الحقيقي من حياتهم بأنفسهم، لكن، أنا لن أتبعهم...لا.. لا.. أنا منْ سيبحث عن حقيقة معنى حياتي وأنا من سيجد الطريق، أنا وحدي من يمكن له أن يقرر ما هو الصحيح وما هو الخطأ، أنا وحدي من سيجد المعنى الحقيقي،أنه موجود هنا في داخل نفسي ولا يمكن لأي شخص آخر أن يجده لي،ولا يمكن أن أجده في أي مكان آخر غير داخلي أنا!».

وهكذا حَزَمَ سورين أمتعته وعاد إلى بيته في المدينة مرة أخرى، لقد عرف الآن ماذا يفعل، إن الأسابيع التي قضاها في الريف في «غيلاليه» قرية الصيادين جعلته يعرف ماذا يريد وقد منحته تلك المسافة الفكرة التي ساعدته أن يفكر، يتخيل نفسه أنه «سيعيش ويموت من أجلها» لقد أكتشف المغزى من حياته وينبغي عليه أن يحاول إيجاد طريقة ما ليعرف الإنسان عليها ويحاول أن يعينه كيف يجد لنفسه طريقة يكتشف بها معنى لحياته.

لقد رأى سورين حسب المعلومات التي جَمَعها أنه من واجب حياته أن يفحَصَ ويدقق كيف تعمل ذاته وذوات الآخرين؟ ما الذي يكوّن إنساناً؟ ما الذي يجعل معنى لحياته، وما هي الطريقة لتحقيقها؟ كيف يمكنه أن يحقق معنى لحياته؟ ماذا نفعل حتى نجد ذلك المعنى؟ ماذا وكيف سنتصرف وأي سلوك سنسلك لكي نتوصل إلى ذلك المعنى؟

بعد أن عاد سورين من الريف إلى مدينة كوبنهايكن أصبح يعرف عن أعماقه أكثر، وازداد إصراره لمعرفة المزيد عن الذات أكثر مما كان عليه في أي وقت مضى، جلس هناك وباشر العمل على بحثه العلمي الكبير حول مفهومه الشخصيّ للذات الجوّانية، وهكذا لبث عشرين عاماً يعمل في هذا

المجال، أصبح شديد الهوس في التعمق بالذات الإنسانية، أخذ يتقرب إلى الناس أكثر وأكثر، وكان يبذل كل يوم وكل لحظة من أوقاته، الجهد الكبير ليتفهم الذات الإنسانية وكيف تعمل، تماماً كالباحثين في عصرنا الحالي بدأ يبحث في كل شيء، نقّب في جميع الكتب، دَرَسَ.. تأمل.. تخيل وحلم.. جرب أساليب جديدة لم يعرفها من قبل، حاول واختبر وسأل نفسه إزاء تلك الاختبارات، وأخذ يتلمس بخيال عارم طريقه ويتحسسه ليشعر ما تشعر به النفس، دخل سورين إلى مكتبة جامعة كوبنهايكن وبحث عن المعلومات كالباحثين عندما يبحثون عن المعلومات في الأنترنت بحث في مختلف المواضيع واطلع على جميع الكتب والدراسات، قرأ جميع الفلسفات، علم الأحياء - البيولوجيا- الثقافات، الأديان السماوية، علم الطب، الأدوية، كان يقرأ كل كتاب تلمسه يده أو يحرك مشاعره بعمق، قرأ كل ما هو إبداعي مميز وأصبح على علم شامل بجميع المعارف والعلوم، قرأ نوعاً ما عن الرأسمالية وقليلاً هنا وقليلاً هناك، وكان يضع خطاً تحت أي موضوع يجده مُثيراً فيقوم بتدوين التعليقات حول المواضيع المؤثرة ويشرع في مناقشتها مع كل من يتواجد قربه، سواء أكان أحد أصدقائه أو معارفه، معلمين، قساوسة، وكان يتناقش حتى مع الغرباء الذين يلتقيهم في الشارع، كان يقتحم الجميع ويتحدث إليهم باجتياح جامح دون أي عوائق أو كوابح، يناقشهم بطريقة شرسة، وهكذا جَرّب وأخذ يختبر كل ذلك على حياته مع ذاته شخصياً وعلاقتها بالآخرين.

كان سورين كيركيجارد في مناقشاته مع الناس يحثهم دوماً على حرية الرأي والتعبير عما يرغبون به بحرية خالصة دون التأثر بأحد ما، لم يتحقق حثه في وقته آنذاك ولكن بعد مرور 130عاماً على تلك الأفكار تمرد الشباب وقامت الثورة الطلابية الكبيرة في أوربا خلال ستينات القرن الماضي، وبعد مرور 140 عاماً على أفكار سورين جاءت فترة السبعينات

وحرية التعايش بين الرجل والمرأة دون زواج وزواج المسيار والمساكنة وبعد مرور 150 عاماً على كانت ثمانينيات القرن التاسع عشر وحرية الأديان وممارسات الدين بشكل شخصي، 160 عاماً ظهرت الثورة الرقمية والديجيتال والأنترنت.

- أي رجل حضاري كنت يا سورين؟ كم كنت ستعجب بالأنترنت وكم كنت ستكتب مدوناتك بأفكارك الحرة تلك وطريقتك الشرسة مع الكلمة والمعنى.

لقد وصل كتاب يوميات سورين إلى 7000 صفحة وكتب عدداً كبيراً من المقالات و40 كتاباً كتبها جميعاً بطرق مختلفة ذات مواضيع ومواد رائعة وتحت أسماء مستعارة مثل: فيكتور أرميتا، فيجيميوسهاوفينسيس، كونستانتينكونستانتييوس، يوهانس دي سيلنشو، يوهانس كليماكيوسوانتي-كليماكاس.

وتستند جميع تلك الكتب إلى القاعدة نفسها والأساس ذاته وموضوعها الإنسان وكيف عليه حقيقة أن يكون هو نفسه، وأن هناك ضرورة ملحة لبحثه عن معنى لحياته ويكتشف حقيقة لمعنى وجوده.

الوجود «الحقيقة»

«تقدم وأظهر نفسك من خلف الشجرة!»

يعتقد الكثير من البشر أنهم يستطيعون العيش دون الحاجة لمعرفتهم إلى أين يمضون في حياتهم، ويتصورون أنهم ليسوا بحاجة إلى التفكير ملياً في حقيقة وجودهم، ولا يحاول أي منهم أن يفهم ما المعنى الحقيقي من حياته فهم يعتقدون أن ما هم عليه يكفيهم للعيش في هذه الحياة دون الحاجة إلى أن يؤثروا أو يتأثروا، إنهم يحيون حياتهم هكذا: يستيقظ الواحد منهم صباح كل يوم يتناول فطوره ويذهب إلى العمل، يتسوق وفترة الظهيرة يتناول غذاءه وفي المساء يشاهد التلفزيون ثم يذهب ليلاً إلى فراشه وينام، وهكذا ينهض صباح اليوم التالي مرة أخرى ويتناول فطوره ويذهب إلى العمل، يتسوق، يتناول الغداء وفي المساء يشاهد التلفزيون ثم ليلاً يذهب إلى الفراش وينام، وهكذا هو على هذه الحال كل يوم وربما في إجازاته يسافر يقضي عطلته الصيفية في أي مكان آخر أو ربما يقوم بعمل بعض التصليحات في منزله أو يذهب إلى السينما لمشاهدة الأفلام أو يلتقي بأحد أصدقائه وهكذا إلى آخره ثم يذهب إلى الفراش ليلاً ينام وفي صباح اليوم التالي ينهض وهكذا تعود دورة حياته تسير على هذا المنوال كل يوم وكل شيء يسير على ما يرام دون التفكير بشيء آخر.. إذا كانت حياة الإنسان

تجري على هذا النحو فلن يتوصل إلى طريق سليم لفهم نفسه أو معرفة ذاته وسيشعر في الوقت نفسه بأن هناك شيء ينقصه وأن ثمة حيرة في نفسه وروحه ولا يدرك لماذا.

لقد جاء سورين كيركيجارد بفلسفته الوجودية هذه وأكد على أن حياة الإنسان لم تكن تسير بهذه الصورة أبداً، لا، لا يعتقد بذلك، في الوقت نفسه لم يكن لديه أية فكرة أو رأي معين حول اختيارات البشر لحياتهم اليومية لأن حياة البشر اليومية هي تخص الشخص نفسه وهي ليست مشوقة أو مُثيرة للاهتمام بشكل خاص، إذا قمت بتغيير عملك على سبيل المثال تترك العمل، وبدلاً عنه، تذهب لإكمال دراساتك الجامعية أو الدراسات العليا أو على سبيل المثال تشاهد الأفلام السينمائية في البيت مقابل أن لا تذهب إلى السينما العامة أو المسرح، تقوم بترميم منزلك بدلاً من هدمه وبنائه من جديد، تُنضد أثاث منزلك وتجددها بدلاً عن رميها وتأثيث البيت من جديد، عدم السفر في الإجازة السنوية إلى خارج البلد وتستعيض عنها بالتنزه داخل البلد، وهكذا يمكن أن نجد أمثلة كثيرة ووصفاً جيداً عن حياة سورين الخاصة، لكن سورين كان على قناعة تامة من أن هذه الأشياء السطحية سواء استبدلها المرء أو أعاد ترتيبها من جديد فهي غير كافية لفهم الذات وأنها مجرد مظاهر خارجية لا تكفي لتدبير وتنظيم أمور النفس من الداخل، ويرى أنه سيأتي يوم يصرف النظر عن أي شيء لدى المرء ومهما كانت الحياة التي يعيشها سواء كان يعيش حياة هادئة مُسالمة أم مغامرة صاخبة، راضية مريحة أم شاقة متعبة سيأتي اليوم ويسأل نفسه:

- لماذا أعيش؟ ما المغزى من حياتي؟!

يرى سورين أن البحث عن معنى الحياة أمر طبيعي لدى الإنسان فهو لا يستطيع أن يتجنبه أو يتجاهله إنه تطور طبيعي حَتميّ لا مفر منه في

حياة البشر فهو ينمو ويكبر فيه تماماً كنمو الجسم وتدّرج عمر الإنسان وكبره، وكيفما كان جسد الإنسان وكيف يكون، كيف كان صغيراً وكيف يكبر تدريجياً بمرور الزمن من تلقاء نفسه فهو ينمو من طاقته الخاصة من قوته الجوّانية الخاصة به، كذلك ذوات البشر ترغب أيضاً في أن تنمو وتتطور لتُعانق المزيد من الحقائق في الحياة وتَحْضُن الواقع كي تحصل على معنى لحياتها ونفسها، لقد أكد سورين أن الإنسان لا يمكنه أن يجد معنى لوجوده خارج حدود ذاته، إن البحث عن معنى الحياة موجود في طبيعته الإنسانية.

يرى سورين أن الشخص كما قال الفيلسوف اليوناني أفلاطون هو إنسان وليس قطعة أثاث، إنه عبارة عن روح وليس كرسياً، إن الكرسي لا يحتاج إلى شيء ليشعر بالراحة إنه ليس بحاجة إلى أي شيء ليكون راضياً أو غير راضٍ، مقتنعاً أو غير مقتنع ولا يحتاج ليفكر بمن صنعه ومن وضعه، فلقد اقترح بعض الأشخاص بالاتفاق معاً ولا خلاف على ذلك بأن يُنجِّروا ذلك الشيء ومن ثم تم الوقوف على هذا الشكل فصُنِعَ على هذه الطريقة وأُطلقَ عليه اسم «كرسي» إنه مجرد كرسي سواء قمت بتحريكه يميناً أو يساراً أو قلبته فوق أو إلى تحت، ترميه من أعلى أو تطرحه أرضاً لا يهم في ذلك فمهما فعلت به فهو يبقى كرسياً ليس لديه أي رد فعل لشيء، ولا يرغب في شيء، ولا ينمو ولا يتطور ويظل فقط قطعة أثاث صنعها نجار لا أكثر ولا أقل وكذلك الحال مع الشجرة، البيت، الحائط، السيارة، الكرة، وغيرها من الأشياء الجامدة وإلى حد ما بعض الحيوانات، كل هذه الأشياء وغيرها تختلف عن الإنسان، إنه يختلف عنها فهو لم يكن ككرسي أو كشجرة أو كرة أو بيت وإنما هو عملية، إنه عملية تسجيل، تدوين، يتصرف، يتعامل مع الحياة، يتفاعل معها يؤثر ويتأثر بها، له فعل ورد فعل، إنه في تغيير متواصل ومستمر بشكل دائم على مدى الحياة التي يعيشها، يكون يوماً على وضع معين ثم بعد فترة هناك إمكانية تغيره ليكون على وضع آخر، ولا يسعه إلا أن يتساءل

باستمرار، إن الإنسان لا يتوقف عن التساؤل من أنه كيف يكون على ذلك القدر الكبير من التغيير؟ لو تغيرت غداً كيف سيكون شكلي؟ وكيف سأكون أنا؟ أن تلك التغيرات التي تطرأ عليه هي التي تُثير اهتمامه، إن تغيير صورته بين الحاضر وبعد سنوات، بين أنا اليوم وأنا الغد، تلك التساؤلات وذلك الاندماج المتغير العجيب المبني بداخلنا بين أنفسنا والعالم هو الذي يجعلنا نبدأ بالبحث عن معنى الحياة، هذا ما يعتقده سورين، لقد دَرَسَ سورين وتعلم بنفسه وبدأ ينظر من حوله، فتش في علاقاته بين الأصدقاء والمعارف، راقب الكثير من البشر ودوّن ملاحظات كثيرة، كتب في دفاتر يومياته مجموعة كبيرة من الأفكار والأحاسيس، آراء، نظريات، اعتقادات، قصصٍ، حكايات، وأخذ يقارن في كل مرة بين أي رأي أو أي حديث ذي مغزى معين ويطابقه برأيه أو بحديث آخر وبمرور الوقت ومع كل تلك المحاولات والمناقشات رأى سورين أنه يمكن أن يتفهم كيف تعمل ذاته وذات الآخرين، في أي الافتراضات؟ وما هي الاشتراطات التي ينبغي أن يعمل عليها الإنسان ليكون هو ذاته؟ أي الاختيارات ينبغي أن يعمل عليها؟ وأي تعامل أي تصرف وأي سلوك ينبغي على المرء أن يسلكه كي يزيد من تطوير فهمه لداخله؟ وأي الطرق التي ينبغي أن يمضي بها قدماً من أجل التقدم لفهم داخله أكثر؟ بعد فترة توصل سورين إلى فهم معين، وبدأ يعرف أي الخيارات التي ينبغي العمل عليها، ماذا يحتاج المرء ليسير أعمق في طريقه ليتطور داخله، وجد سورين أن هناك ثلاث مراحل حسيّة يمكن للمرء أن يعرف عبرها كيف تعمل ذاته وكل مرحلة من هذه المراحل توصل إحداها إلى الأخرى، المراحل هي:

المرحلة الأولى هي (المرحلة الحسية)، والمرحلة الثانية (المرحلة الجوّانية)، والمرحلة الثالثة هي (المرحلة الروحية)، يرى سورين أن لكل مرحلة من هذه المراحل الثلاث لها خطوات، وكل خطوة منها تؤدي إلى الوصول إلى الخطوة الأخرى.

«الحسيّة، الجوّانية، الروحانية!»

بالنظر إلى أن العملية هي عبارة عن «التأثير، التغيير، التفاعل» فهي حسب رأي سورين جزء من الإنسان وقد تأتي أو تحصل من تلقاء نفسها أي قد يشعر بها الإنسان وحده تماماً على سبيل المثال إن لقاء الطفل مع العالم يُثير لديه الدهشة والعجب مما يُوقظ تساؤلات كثيرة داخل نفسه تلفت انتباهه إلى أمور أعمق حول الذات الإنسانية وهذا ما يجعله يتحرك ليدرس ويتحقق أكثر ويكشف حقائق أعمق عن الذات مما يدفعه إلى أن يتصرف ويتعامل بناء على أساسها مما يؤدي إلى منحه تجربة أكبر ويدفعه إلى ابتكار تساؤلات أخرى جديدة تساهم في تقدم خطواته إلى الأمام وتدفعه لابتكار أسئلة أخرى تُزيد في فهمه لذاته وتدفع به نحو الداخل أكثر وأكثر، لإدراك المعنى الحقيقي للذات والحياة.

كذلك اكتشف سورين، بأن هناك ثلاثة أمور قد تُسبب بعض الصدمات للمرء فيقع فيها في عمر مبكر من حياته مما تسبب في توقف وعرقلة سير «العملية» لديه، إن أول تلك العقبات هي التربية، لقد رأى سورين أن التربية القاسية وحياة الطفولة الصعبة قد تُشكل جزءاً من تلك العقبات فتعيق طريق تطور المرء وتمنع وصوله إلى الجوّانية وقد لاحظ سورين ذلك لدى الآباء الصارمين والقساة عندما يفرضون عادات معينة ومفاهيم متشددة على أبنائهم تتسبب في تشويه نفسياتهم الغضة وتقف

حائلاً في طريق فهمهم وتقدمهم فلا يعود الابن يرى الأشياء بوضوح أو على حقيقتها مما يسبب عدم فهمه لداخله، أما الأمر الثاني فهو الأعراف والتقاليد، لقد وجد سورين أن الأعراف والتقاليد المتعصبة هي واحدة من تلك العقبات التي تُقيد المرء وتفرض عليه تعاليم صارمة مما تُحجر عقله وتحشوه بمفاهيم العار والتحريم وتحول كل شيء عنده إلى قيود للعقاب وتدمير الذات الإنسانية تحت طائلة التخويف والتهديد وغيره، لقد رأى سورين أن الأشخاص ذوي المعتقدات البائدة والتقاليد المتزمتة يعيقون تطوير المرء ووصوله إلى فهم ذاته وذات الآخرين، ولقد أدرك ذلك في وقت مبكر وأعدّ قواعد وأساسيات ضد تلك الأخلاقيات ووقف ضد جميع تلك التنشئات الاجتماعية الخاطئة السائدة آنذاك، أما الأمر الثالث الذي اكتشفه سورين هو التكيّف، لقد كتب سورين يقول أن صعوبات التكيّف وعدم قدرة الشخص على التكيّف هي أيضاً أحد تلك العراقيل التي تؤدي إلى إيقاف العملية لديه، وكذلك حذر سورين من احتياجنا المدمن والمزمن أو الوقوع في أحد تلك العقبات بشكل أبدي.

إن تلك العقبات الثلاثة ومضاعفاتها هي التي تُتلفُ عُدَّة وأدوات البحث عن الذات، وهي التي تقوم بتبلد الذات وتدمير حساسيتها الجوّانية وتُخرب المسار الذي يؤدي إلى التناغم المتآلف في داخلنا مما تجعلنا نفقد الإحساس بالوضوح وعدم قدرتنا على الانفتاح أو حب الاستطلاع الذي سيفضي إلى فهم الذات، وبالتالي إذا خسرنا هذا كله سنصبح ضعفاء ونكون في وضع حرج.

في النهاية يرى سورين أن السقوط في أحد تلك العقبات تجعل المرء في حالة انفصال تام عن داخله، تفقده قدرة الانصات إلى ذاته وتضيع فرصة الارتقاء والتطور للوصول إلى الذات، وهكذا يبقى عالقاً يراوح في مكانه لا يمكنه الانتقال إلى مرحلة أخرى مما يشعره ذلك بالاغتراب،

ويشعر بالاغتراب مع نفسه ومع الآخرين، وهكذا يصبح غريباً عن نفسه، ومع كل شيء حوله وكل يوم يزداد شعوره بالاغتراب عن ذاته وحياته أكثر وأكثر.

لقد لاحظ سورين شيئاً هاماً ووجد طريقاً يمكن أن يحرر الإنسان من نفسه ليجد ذاته وأطلق عليه أسم «جوهر الداخل» وهو أن على المرء أن يطلق العنان لنفسه ويخرج من تلك الدائرة الضيقة التي وضع نفسه فيها ويتعرف إلى ذاته وأن يترك جميع التعاليم القديمة التي تلقاها من الآخرين ويتحرر من دائرة المعتقدات والنظريات الثابتة والأفكار المتزمتة التي حصل عليها وأن يبعد عن رأسه كل تلك الأعراف والتقاليد التي تربى عليها وأن يتحرر من كل تلك المفاهيم القديمة التي عبؤوا رأسه بها ويتعرف على ذاته هو وأن يطالب ويحث رفاقه في الإنسانية أن يتحرروا هم أيضاً منها وليستوعبوا ويدركوا جيداً بأنهم أناس أحرار.

«- اكتشف ذاتك! واخرج معها في مغامرة طويلة، فتش عنها بجدية وابحث عن حقيقة وجودك!».

لم يستمع إلى سورين وفلسفته إلا القليل من الناس، ومعظم الذين استمعوا إليه لم يفهموا أو يستوعبوا ما كانت تعني أفكاره تلك، وبدلاً عن ذلك بدأ الناس باستجوابه والافتراء عليه وترويعه وإرهابه بكل الوسائل ومنع أفكاره من الانتشار واستمر الآخرون في اضطهاده حتى لحظة مماته عام 1855، لقد توفى سورين كيركيجارد عن عمر يناهز الثانية والأربعين.

- هل يستطيع المرء أن يعثر على حقيقة وجوده بمفرده بشكل شخصي؟ هل يتمكن الإنسان من الوصول بصورة فردية بحتة إلى معنى حياته دون الاستعانة بأحد، أو دون طلب المساعدة من أحد والديه أو هل له أن يسأل مُعلميه أو أحد علماء الدين، الكهنة، أحد القساوسة؟ هل يمكن للمرء أن يطلب المساعدة من أحد هؤلاء الأشخاص الذي ذكرتهم؟

- كلا! مستحيل أن يحصل هذا! لكن سورين لم يستسلم أبداً، وكان مقتنعاً تماماً بأنه على حق وأنه ببساطة تامة مؤمن بأن هناك وسيلة ما لكل فرد بشكل شخصي يمكن له أن يكون هو نفسه، هو ذاته. لقد مضى ما يزيد عن 200 عام على كتابات سورين وكتبه العديدة ومنذ ذلك الزمن إلى يومنا هذا حدثت تغيرات كثيرة في الحياة ولكن هل تعتقد يا سورين أننا مستعدون الآن لنستمع إلى أفكارك؟ هل ترى أننا في سنة 2000 إنسان القرن الحادي والعشرين قد توصلنا إلى ما يكفي لنكون فضوليين ونتعرف إلى منهجك ذاك الذي أتيت به؟ هل نحن مستقلون الآن بما فيه الكفاية، ومستعدون، ولدينا من الاكتفاء الذاتي لنفهم ما جئت به؟ أم أننا سنكون ثائرين أيضاً ونشعر بالاستفزاز من كوننا غير قادرين على تقبل أفكارك وعقليتك تلك؟ ما رأيك؟ هل نحاول؟ هل نجرب؟ هل سنبدأ من البداية تماماً من تلك اللحظة التي كنت قد رأيتها أنت، من المرحلة الأولى وأحاسيس الإنسان ومواجهته ولقائه الأول مع العالم؟

«فكرتي الأساسية هي في وقتنا...
هي أن المرء قد نسي ما معنى
وجوده!.»

من كتاب سورين كيركيجارد- «لم تنته».

المرحلة الأولى

الحسيّة!

تلك هي المرحلة الأولى

«هنا لديك فلسفة حياة، تعلمك
مفهوم: استمتع بالحياة...»

من كتاب «إما أو» سورين كيركيجارد.

الخطوة الأولى!

في مواجهة العالم

مستشفى داندريد تاريخ 10 مايو 1985 الساعة الواحدة وخمس وعشرون دقيقة، ولدت طفلة صغيرة خرجت لتوها من رحم أمها ووضعت بحرص وعناية فائقة على بطن أمها، لحظات ثم بدأت الطفلة تتحرك وتتذمر بعض الشيء فتحت عيناً واحدة لتنظر، ثم بعد ذلك فتحت العين الأخرى، وفي حركة نصف دائرية حاولت الطفلة أن تدور برأسها وتحوله من جهة إلى أخرى لترى ما حولها، ثم بدأت تتململ على نحو أخرق وتقوم بمحاولات حمقاء بالبحث عن شيء ما وقليلاً قليلاً عثرت عليه، إنه صدر أمها، ثم بدأت تمص الحليب وترغرغ.

إن بحث الإنسان وسعيه وراء معنى الحياة بالتأكيد أول شيء يبدأ به، هو«الإحساس» والإحساس آتٍ من حسيّة الجسد، ليس بوسع الإنسان أن يكون موجوداً بدون جسده، والجسد له احتياجاته وبدون تلك الأشياء الواقعية، الملموسة لا يمكن للجسد أن يكون، لا يستطيع أن يكون أو يتدبر أمره هكذا من الفراغ، لا يمكن للجسد أن يحيا ويعيش بدون تلك المادة الملموسة أبداً.

عندما يولد طفل ما في الدنيا فإنه لا يبحث عن حقيقة الحياة فقط، بل هو يبحث أيضاً عن أي شيء ملموس محسوس يحسه وأقرب

شيء يلمسه هو صدر الأم، إن صدر الأم يعني الحليب وبالتالي معناه الحياة، الأم والأب معناه الأمان، لعب الأطفال والمكعبات معناه العلم، المعلومات والتعلم.

نظرة إلى الطفل في محاولاته للنهوض من أحضان والديه لمواجهة العالم، إنه يحاول الخروج تدريجياً وببطء شديد يبدأ يلاحظ الأشياء من حوله، تماماً كالرحال المستكشف في رحلته الاستكشافية يبدأ بمراقبة الأشياء محاولاً التعرف عليها وفي كل محاولة يجرب التمييز بينها ليقوم بفهمها واستيعابها:

- إن تلك الأشياء التي يتكرر مرورها من أمامي كل يوم، ماذا يمكن لها أن تكون؟ يتساءل الطفل دون كلمات وعندما ينظر إلى يديه أي اكتشاف مدهش يتوصل إليه وأي شعور رائع بالارتياح والرضا عندما يدرك أن هذه اليد هي يده هو، ثم تأتي بعد ذلك الخطوة التالية ويتساءل:

- لدي يد، كيف يستخدم المرء هذه اليد؟ وذات يوم تتعرض يده عن طريق الصدفة للإمساك بشيء ما دون أن يعرف، أو ربما يضع أحد والديه شيء ما في يده فيدخل هنا في مواجهة شخصية خاصة، فيأتي الفهم:

- آه.. يمكن لليد أن تمسك بالأشياء!. ثم بعد فترة يأتي الاكتشاف المذهل الآخر فيدرك الطفل من نفسه:

- هكذا إذن، أنا أستطيع أن أمسك الأشياء بيدي وأن أتركها أيضاً! ثم يجرب مرة بعد أخرى ويمسك بالأشياء ويتركها لتسقط من يده مراراً وتكراراً، إن هذا هو مجرد معنى الحياة بالنسبة إليه في تلك الفترة.

ما معنى أن يسافر شخص لأول مرة في حياته لزيارة بلد ما على سبيل المثال إلى لاوس أو كازاخستان مقارنة بلحظة خروج الطفل من رحم أمه ويواجه العالم الخارجي لأول مرة، إن لحظة اكتشاف المسافر للبلد أو الأمكنة التي يزورها لأول مرة أو يزور جبالاً بعيدة أو يمر على أنهار جديدة

أو وديان نائية، إن اكتشافه ذلك لا يُشكل أي معنى أمام لحظة اكتشاف المولود الخارج حديثاً من رحم أمه ولحظة اكتشافه للعالم، إن لحاف القطن الذي يلف به جسد الطفل يبدأ يتحسس جلده، ملمسه أو عندما يشم رائحة لم يعرفها من قبل أو حين ينصت إلى الأصوات فهو يستمع إلى جميع الأصوات في بداية الأمر وكأنها مختلطة، متداخلة ببعضها لا يمكنه التمييز بينها ولا يعرف كيف يميز بين صوت أبيه وصوت أمه، لكنه بعد فترة يستطيع التمييز بين الأصوات ويبدأ بتمييز صوت أمه عن صوت أبيه، أصوات أشقائه عن أصوات العصافير، صوت المذياع عن صوت محرك المركبة، وهكذا يستمر طوال الوقت في حالة اكتشاف دائم للعالم، إن تلك الأحاسيس الفريدة والإثارة الحسيّة التي تواجه الطفل بدءاً من ملمس القطن إلى الروائح التي يشمها إلى استماعه للأصوات، كل تلك الاكتشافات والأشياء الجديدة التي تسترعي ان تباهه وتسحبه انتباهه وتسحبه من عالمه المرتبط بأمه إلى داخل نفسه وتجره إلى عالم «الأنا» الخاصة به، وعندما يصبح الطفل مع نفسه أمام هذه الأشياء الموجودة خارج نفسه يشعر بالافتتان ويبتهج لها وبهذا يتحول بعد أن كان طفلاً وماما- فقط والعالم الخارجي ممثلاً بالاكتشافات الخارجية إلى أم وطفل و - أنا والعالم- .

إذا بدأ شخص ما بالبحث عن معنى حياته، حسبما يرى سورين فينبغي عليه أن يبدأ من هناك من المرحلة التي بلغها، أي ليبدأ من احتياجاته، ما الذي يحتاج إليه في هذه اللحظة، وحتى في أعمق لحظات بحثه، لم ينكر سورين الأساليب الأخرى الهامة التي تشكل أساس بحثه وهي الاحتياجات، وقد أكد سورين أن اكتفاء الإنسان وسد احتياجاته هي التي تجعله يشعر بالرضا والطمأنينة، إن إشباع احتياج الإنسان يجعله سعيداً في حياته، فالإنسان يأخذ متعته من الأشياء التي يحتاجها، ويؤكد

كيركيجارد- ليس البحث عن المعنى من الحياة هو ضروري وهام فحسب- أن ما يحتاجه.. المرء ضروري وهام أيضاً، أينما وُجدت احتياجاته يكون موجوداً هناك، والذي يستمتع به، أينما تكون هذه الحاجة يكون موجوداً هناك، أي بمعنى أن ما أستمتع به أنا قد لا يجد غيري متعة فيه، الشيء الذي أحتاجه أنا قد لا يحتاج إليه غيري، كل شخص يوجد حيث احتياجاته، فالذي يعيش في قصر ولديه كل شيء يختلف عن ذلك الشخص الذي لا يملك شيئاً وبالتالي فاحتياجات صاحب القصر لا تشبه احتياجات ذلك الشخص الفقير، كل شخص واحتياجاته ومكانها، أينما تكون يكون هو، أين ما يكون هو تكون هي.

المادة، الجسد

«الجسد مادة لا حدود لها»

إن المادة هي أساس وجود الإنسان! لقد رأى سورين كيركيجارد أن أهمية المادة- الجسد- لا تقل أهمية عن الأشياء الأخرى في الحياة بل إنها على نفس القدر من أهمية أشياء العالم الأخرى كالسياسة، العلم، الدين والثقافة وغيرها، إن المادة هي أساس وجودنا لقد بُني الإنسان في الأساس من المادة وكنا نسمي أمهاتنا التربة التي خلقنا منها، لا نستطيع أن ننكر أو نتجاهل أننا قد تشكلنا في أجسادهن من الخلية والسائل وكل جزيء بُني في جسدنا هو مادة، بدون تلك المادة لا وجود للجسد أصلاً، بدون الجسد ليس هناك دماغ نفكر به ولا مشاعر وأحاسيس نفرح أو نحزن بها، بدون ذلك الجسد بدون تلك المادة الملموسة لا وجود لنا من الأساس! يقول سورين.

- أنا أعلم أنك فعلت هذا، يا سورين! أعرف أنك لم تكن من ذلك النوع، الفيلسوف الروحاني الذي يعتقد أن الزهد من شأنه أن يجعل منك موجوداً أو أنك تحرم نفسك وتمتنع عن احتياجات كثيرة كي تجعل من نفسك أكثر مصداقية لتفهم معنى وجودك، لا لست من هؤلاء.

-اسمعوا! أنا لم أتناول وجبات طعام رئيسية منذ ست سنوات ولم أذق طعم النوم لعدة شهور!.

لا! هذا ما لا يعتقد به سورين. عندما كان سورين يقضي صباحاته يفكر في جوهر الإله كان يطمح بسعادة أن يقدم له وجبات طعام لذيذة:

- لماذا لا أفكر بالغداء وأشبع بطني أتمنى أن آكل الآن شريحة لحم من الإوز البري، أو صدر دجاج مشوي مع السبانخ، وقطع خبز وفاصوليا! ويجلس يتخيل ويحلم:

- ماذا لو يقدم لي حمام مُحمر مع سمك السلمون مع جعة كبيرة وكأس نبيذ وفنجان من القهوة وكل هذه الخدمات توصلها لي السيدة أندرسن عند الباب!.

بعد أن يتناول سورين غداءه يتمشى قليلاً، ويتمتع بالنظر إلى الناس والطبيعة والأشياء وربما في طريق عودته إلى البيت يمر على أحد المحلات وقد يشتري ستارة جميلة ليضعها في صالته ثم بعد ذلك يتضح بأنه اشترى شيئاً لم يكن بحاجة إليه.

في عالم سورين، لا تختلف المادة العقلية الفكرية عن الروحية أي أن المادة الملموسة لا تختلف عن الروحي المحسوس إنهما يسيران معاً في تناغم متحد لا انفصال بينهما أبداً فالمادي والروحي يتقاسمان الجزء من الكل وهما جزء في سلسلة من دائرة داخل دائرة لا ينفصلان عن بعضهما وكل دائرة تحتضن الدائرة الأخرى، في داخل الدائرة الأولى هناك المادة وهي ذلك الجزء الواقعي الملموس للإحساس وخارج تلك الدائرة قليلاً هناك الدائرة الأكبر وهي الجوّانية وهي التي تغلق على الدائرة الأولى وتمسك بها وتحضنها هنا نجد عقلية البشر ونوعياتهم وقدراتهم الفكرية والذهنية، وما مدى اختلاف الوعي وقدراته من شخص لآخر، ونجد مدى قوة الفعل وإرادة الفعل لدى البشر ونعرف الأشخاص مسلوبي الإرادة من الأشخاص ذوي العزيمة والإصرار القوي، نرى مقدرة أشخاص على فهم الآخرين وأشخاصاً عاجزين لعدم قدرتهم على تحليل أي شيء، نجد هنا قوة الطاقة

لدى الإنسان وقدرته على الفعل، النفاذ، أو التأثير، أو التخيل والقدرة على الإبداع، ذلك الإبداع العميق الصادق الذي لخصه سورين كيركيجارد بكلمة واحدة وأطلق عليها «الجوّانية» وهكذا وخارج حدود الدائرتين، الدائرة المادية والدائرة الجوّانية هناك الدائرة الثالثة وهي الدائرة الكبيرة التي لا حدود لها تلك هي الدائرة الأخيرة التي تجاوزت كل حدود المظاهر الخارجية والجوّانية والتي لا يستطيع أحد منا أن يدرك أو يمكنه أن يستوعب مدى أبعادها الأبدية، الروحانية والتي رأى سورين أنها الدائرة اللانهائية التي ليس لها بداية ولا نهاية وقد فهم أبعادها وأطلق عليها بالدائرة الروحية الأبدية أو الكاملة.

المادي/ الحسي، الجوّاني، الروحاني، ثلاث مراحل في تطور الإنسان، ثلاثة أبعاد من الواقع نفسه، وجهات نظر ذات أبعاد مختلفة من الحياة إلا أنها في النهاية هي نفسها.

❖ ولكن ما هو الأفضل؟ إلى أين نحن ماضون يا سورين؟ إلى أين ينبغي علينا أن نتوجه؟ أين يجب أن نكون لنحقق ذلك؟

❖ لا أعرف! يجيب سورين، ويُدير رأسه ليكمل طريقه وهو يسير في إحدى ساعات تنزهه اليومي حول مدينة كوبنهايكن.

❖ لكن لحظة، من فضلك انتظر قليلاً! ألا تعتقد أن هذه المراحل الثلاث تشكل تسلسلاً هرمياً؟ في بداية الأمر يبدأ الإنسان بالإحساس المادي ثم بعد ذلك يأخذ خطوة إلى الأمام ويصل إلى الجوّانية ثم من المحتمل أن يستمر بالسير إلى أبعد من ذلك ليصل إلى الروحانية، هل هذا كاف؟ أقصد هل هذا أقصى ما يستطيع أن يصل إليه المرء؟ سورين يهز رأسه بنعم.

❖ هل كتبت إلينا يا سورين؟ هل كتبت إلى إنسان اليوم، نحن في سنة 2000، ألم تكتب بأننا نحن البشر لا نزال إلى الآن لم نتعد حدود تلك التربية التعسفية؟

❖ هل تطلب مني أن أجلس وأقرر وأضع نفسي حاكماً على حياتك؟ هل ترغب في أن أكون دكتاتورياً سلطوياً وأكون قاضياً على حياتك؟ هل تريد أن أكون أكثر تسلطاً وأبيعك مختلف تقنيات السعادة وأصبح من هؤلاء الذين يبيعون تقنيات وأساليب السعادة لتصبح أنت سعيد في حياتك؟ ومجرد أن أقول لك أعمل كذا وكذا فقط وأنت تفعل، وهكذا تسير حياتك ويسير كل شيء لديك على ما يرام؟لا! هل تريد أن تجد معنى الحياة؟ إذن ينبغي أن تفعل ذلك بنفسك، ينبغي أن يأتي ذلك بناء على تقييمك الخاص، ينبع من شرطك الخاص الذي تفرضه مشاعرك واحتياجاتك أنت، أن تجد معنى الحياة يأتي ذلك بناء على تقييمك أنت للحياة ينبغي أن ينبع من مشاعرك أنت،من احتياجاتك أنت، أن تجد معنى الحياة هو عليك أن تسأل نفسك:

ما الذي أراه مهماً أو غير مهم لحياتي أنا؟ ما هو الوجود الصحيح الذي يخص علاقتي أنا مع نفسي؟ ما هي هذه المرحلة التي تكون مرتاحاً وراضياً معها، وتشعر بأن هناك إحساس ما بالعدالة داخل نفسك، إحساس بالإنصاف وتشعر بأنك صحيح من الداخل وعلى صواب دائماً.

بطريقة أو بأخرى، سورين يعني ويقول مراراً وتكراراً ويُشير في مؤلفاته إلى أنه لا يريد أن يكون معلماً لأحد وأنه لا يريد أن يكون له تلاميذ أو أن يصبح أي شخص تابعاً من أتباعه، إن هدفه الوحيد هو حمل الناس على التفكير لوحدهم بأنفسهم لإيجاد طريقهم الصحيح الخاص بهم، فيقول كيركيجارد: إن طريقي ليس هو الطريق الوحيد، إنه طريق صحيح بالنسبة لي أنا وهناك طرق خاصة بك أنت وحدك وعليك أن تجدها بنفسك!.

من ناحية أخرى أخذ سورين يُحبك شركاً، مصيدة فلسفية ليوقع بها البشر كي يجعلهم يفكرون لوحدهم بأنفسهم وهكذا وبعيداً عن كل

معتقدات ومفاهيم الآخرين الجاهزة حول الحق والباطل وحول الخير والشر، الصح والخطأ، يأخذ سورين الشخص حتى يوصله إلى منطقة يحصل بها على ما يريده هو نفسه، وهكذا يبدأ المرء باتخاذ خطواته الأولى تلقائياً من تلك الواقعية الحسية الملموسة التي كان قد عكس بها رد فعله الداخلي فينتقل من مرحلة كان فيها إلى ما سيصبح عليه، وهناك يكون قد اتخذ خطوة واقترب في تفكيره من معنى الحياة، هذا ما يعتقده سورين. لكن سورين لا يرغب في أن تفعل ذلك بناءاً على أوامر منه أو أن تنفذ ذلك لمجرد إعجابك بما قاله ذلك المفكر القديم، لا، بل إنه يرغب في أن يتطور المرء ويصل لهذا الفهم بمفرده، من نفسه هو، أن يختار ذلك وفقاً لخياره الحر الخاص والنابع من إرادته الحرة وحده. ولكن حتى لو أن سورين ادعى بأن تلك المراحل الثلاث هي طرق موضوعية إلا أنه لا يرى أن هناك مرحلة هي أفضل من الأخرى، لذا ينبغي على المرء أن يكتشفها بالترتيب الصحيح، وينبغي عليه على أية حال أن يُسيطر على ذلك العالم الحسي ذي القيم الحسية كي يمضي قدماً ليصل إلى الجوّانية، ثم بعد ذلك ينبغي عليه أن يُنمي الجوّانية كي تصبح لديه المقدرة ليبحث عن الروحانية.

«بيت الأنا» لها ثلاث طوابق! يكتب سورين كيركيجارد، الطابق السفلي هو «القبو» والطابق الثاني هو المنزل وصالة المعيشة وغيره والطابق الأخير هو السطح، إن هدف أي إنسان قبل السكن في المنزل،هو استعراض ذلك المنزل ثم يختار السكن في ذلك الطابق الواسع المريح الذي سيقدم له الخدمات الجيدة والذي سيحصل فيه على الراحة الكافية ولكن تبقى لديه طوابق أخرى في متناول يده، لكنه لا يشغلها، إلا أنه يتفحصها جميعها جيداً ذلك لأنه على المدى البعيد ربما يستغلها ذات يوم، بالطبع إنه بيته والطوابق التي لا يشغلها هي تابعة له لكنها تقف هناك فارغة لا يستعملها لكنه

يفحصها جيداً ويبدأ بتفحص القبو بدقة وعناية فائقة لدرجة أنه لن يمضي حياته وهو يتساءل ماذا يختبئ في ذلك الطابق التحتاني؟

ويعتقد سورين أن كل مرحلة جديدة تمر بها وتتوغل في داخلها وتتعمق في أعماقها أكثر سوف تتقدم وتتركها وراءك، إنسان داخلي، هو حسّي بطريقة داخلية، إنسان روحاني لديه المُتع الحسّية والجوّانية ذات الأبعاد الروحانية، أين ما تكن كن إن ذلك أمر جيد، لكن واصل البحث عن ذاتك ولن تخسر.

دعونا الآن نستريح من الفلسفة ونعود إلى الأمور الواقعية الملموسة لنعد إلى تلك الطفلة الصغيرة، الآن بدأت تتحرك لقد مرت سنة واحدة على حياتها وقضت مدة مناسبة في اللمس والسمع والتذوق وتناولت أنواع الطعام، قضمت، شَربت لمست تحسست الأشياء، بدأت تداعب العالم من حولها،،عانقت حضنت،شدت الشعر، ألقت نظرها على الأشياء، والآن بدأت تتكلم، لفت نظرها الضوء المعلق في السقف وأول كلمة نطقت بها هي:

❖ دو!

اي ضوء، ثم بعد ذلك تقول:

❖ أنـــاك!

أي هناك- نعم،هناك ضوء معلق.

ثم بعد عدة شهور تبدأ تُشير إلى الضوء وهي الآن أصبحت على دراية منه فتقول:

❖ إنه لي!

هكذا قالت الطفلة، إنه لي! إنها تعتبر الضوء أحد ممتلكاتها.

إن الكبار لا يُقيمون اعتباراً لعلاقة الأطفال بالأشياء، إنهم يعتبرونها أموراً بسيطة ويقللون من أهميتها، هذا ما قاله المعلم البولندي جانوز كورزاك.

كما أكد كورزاك أن الكبار يسمون ملكيات الأطفال ألعاب أي أن كل الأشياء التي يسهل على الطفل امتلاكها هي للعب معها وذلك مقارنة بالأشياء المهمة في الحياة، أي على العكس من الأشياء الأساسية التي قد تُشكل خطورة على حياة الطفل، كأدوات المطبخ، الكومبيوتر، الأثاث، الكهربائيات وجميع الأشياء الخطرة، لكن بالنسبة للأطفال ليس الأمر هكذا، أن كل شيء حوله بصرف النظر سواء أكان لعبة أم لا، سواء أكان دباً أم سكيناً أو شوكة طعام، طباخاً أم ضوءاً، كل تلك الأشياء والأدوات يستعملها الطفل كي يفهم نفسه فبمساعدة تلك الأشياء تتشكل ويتكون ذاته، أنه يتفحص بيته من الأساس، يبدأ تحققه من داخله، يتعلم الاختلاف ويقارن، بينما يوجد داخل نفسه وذلك الموجود خارجها.

عندما ينظر الطفل إلى الماء في حوض الاستحمام، يجد الطفل نفسه هناك بين قطرات الماء العديدة يأتيه الطفل إحساس قليل بالواقع، ينتابه هاجس آخر غير الحقيقة الكبيرة المتجسدة في مفهوم الأنا، فيشعر بذاته، أن ذلك الذي من حولي هو جزء مني أنا. هذا ما قصده كورزاك.

ولكن هل الأطفال الصغار هم فقط من يتواجدون هناك ويجدون حقيقتهم؟ وهل هذه هي الخطوة الأولى في طريق سورين؟

❖ أوه، كلا! نحن جميعاً متواجدون هناك،وبعض منا تقريباً متواجد دائماً، وأغلب البشر يجدون أنفسهم للحظات قليلاً وأحياناً لا يجدونها، ربما تجد نفسك في محل للأثاث عندما تضع يدك على قطعة قماش كنبة ما، تشعر بأنها قطعة أثاث غير عادي لا تستطيع أن تمسك نفسك عن لمسها ولا تقدر أن تكف عن تمسيد ذلك القماش ذي الملمس الناعم الجميل، أنت هناك عندما تقوم بتصليح سيارتك،عندما تستمتع في حفظ الأكواب النادرة الجميلة، أنت هناك عندما تشعر بالواقع، عندما تستيقظ ذات صباح مشرق، تخرج من خيمة على الجبل وتشم رائحة الأشجار

والزهور، عندما تكون على البحر وتشم رائحة الطحلب وأعشاب البحر ومن بعيد هناك في الخلف ترى بقايا الثلج على قمم الجبال، كان سورين في ذلك الإحساس عندما كان جالساً في حديقة الجادة في شارع فريدريك سبيرغ وهو يشرب القهوة ويدخن السيكار وينظر بحذر إلى الناس، ويراقب هؤلاء البشر الريانين، ممتلئي الأجساد، ينظر إلى هؤلاء ذوي البشرة الجميلة. يتحرى عن هؤلاء الناس المبتهجين، المرحين، وأولئك السعيدين، النشيطين، وهؤلاء الثرثارين الذين يتكلمون لغات عديدة، كان ينظر سورين إلى حليقي الرأس وذوي الأشكال الغريبة لقد وجد سورين نفسه هناك عند مراقبته للبشر وهو ينظر ويراقب النساء العاملات اللاتي يعملن هناك.

إن الكثير من المهن تتطلب حسية وجدية عالية، هناك مهن تحتاج إلى وجود علاقة واضحة لها مع الطبيعة والأشياء، هناك الباحث الذي يبحث ويتفحص في الوثائق والحقائق، المهندس المعماري يحتاج إلى تحقيق دقيق بتفاصيل عمله، البستاني يتطلب عمله الإحساس بالأرض والتربة وما تحتاج إليه وما ينفعها وما يضرها، وكذلك صاحب المتجر وموظف البنك الذي يتطلب عمله أقصى الجدية كي يدير الأوراق المالية هكذا كل الذين يعملون تتطلب علاقتهم بأعمالهم علاقة حسية عالية كي يستطيعوا أن يُديروا عمالهم.

لكن هذه العلاقة الحسية هي ليست للأشياء فقط، بل هي مطلوبة لكل أشكال العلاقات الموجودة خارج إطار نفسك كالعلاقة مع الآخرين، العلاقة مع الحيوانات، الأمكنة، النظريات، كل تلك العلاقات هي جزء من الترابط الحسي الذي يربطك معها، أن تقدم خدمات، أن تعتني بشيء ما، بشخص ما، أن تُحب، أن تتفحص وتضع المسافة التي بيني وبينك، هذا أيضاً شكل من أشكال الحسية، عندما أكبر وأتغير، كيف سأصبح شخصاً آخر؟ في أي سن ينبغي على المرء أن يتوقف ولا يضطر إلى القفز في حضن

والديه، أو يكف عن سحب شعر والدته؟ كم المسافة التي أقترب بها من إنسان آخر؟ متى أقترب ومتى أبتعد؟ أين أجد الحدود التي أتحرك بها؟

عندما كنت جالساً على مصطبة في الهند لأستريح للحظات بالقرب من بئر فيشيناي جلست إمرأة مسنة مجهولة كبيرة السن بالقرب مني كانت أسنانها متساقطة، وكانت ترتدي سارياً من القطن لونه أخضر ومن دون أن تسأل ولا حتى محاولة إلقاء نظرة تفحص، أمسكت بيدي وأخذت يدي وبثبات وضعتها عند خدها لحظات ثم وضعتها في حضنها لتستريح وهكذا جلسنا صامتين وأنا وأنا لا أعرف ماذا تنتظر مني أن أفعله الآن أحسست بأن هناك خلط في ذهني وأصبحتُ مشوشاً لا أعرف ماذا أفعل؟

إن أي عمل جديد تقوم به أو أي غرفة تدخلها مليئة بأشخاص مجهولين لا تعرفهم تلقي أولاً نظرة تفحص، تكون أنت مثل ذلك المستكشف البريطاني دافيد ليفينجستونا الذي سار وراء نهر الكونغو متتبعاً طريقه حتى وصل إلى منبعه الأول إلى شلالات فيكتوريا، تبدأ بملاحظة الأشياء الجديدة كالمستكشف تسجل، تكتشف تلك القارات البعيدة غير المكتشفة من قبل أفراد آخرين، تراقب، تختبر نفسك، تجرب ذلك الجزء الجديد الذي لم تجربه من قبل، تتعرف إلى أشخاص جدد، تبحث أو تسعى لمعرفة معلومة جديدة بطريقة طفل عمره خمس سنوات، تكون حسية أيضاً، ما هذا؟ ما اسمه؟ لماذا يفعلون هكذا؟ كيف يعمل ذلك؟ حتى أولئك الذين يعتبرون أنفسهم روحانيون، كانوا في الأساس حسيّون، يقول سورين، أو هذا ما كان يعنيه سورين.

أن يكون المرء مهتماً بالشكل، العادات، التقاليد، الطقوس، القوانين، الملابس وغيرها من المظاهر الخارجية- أكثر مما يكون مهتماً بالداخل، أكثر من أن يتفحص رؤيته الخاصة لتلك الأبدية، إنها طريقة حسيّة للتدين، أن يبحث المرء عن ذاته، أن يدقق في نفسه أن يكون على اتصال مباشر مع

العالم، إنه لقاء مباشر مفعم بالفضول والاستمتاع باللحظة الحاضرة، ذلك ما خرج به سورين في البحث عن ذاته، إنه لا يُقيّم ولا يضيف أي قيمة كبيرة إلى مفاهيم ما، ولا ينتقص من قيمة الحسيّة ولا يُدينها ولا ينتقدها ولا يعطي أحكاماً على أي شيء منها، أن تكون قادراً على أن تُدهش أو تفرح، أن تبتهج إلى ما هو خارج نفسك فإن هذه هي واحدة من مكافآت الحياة، في اللحظة التي يلتقي فيها المرء وتجتمع الحسية مع البيئة المحيطة به، يكون هو والعالم فقط، ليس ما قبلاً قبل ولا بعد، ليس هناك سبب لذلك ولا تفكير ولا وساوس أو تأملات مثقلة عن الذات ومطالبها، ماذا حدث وماذا سيحدث، هكذا تعيش كما كتب سورين في تلك الحالة المباشرة والفورية فقط.

«إن أغلب البشر يركضون وراء
المتعة بشكل أعمى لدرجة أنهم يمرون
من قربها ولا يلحقون الإحساس والتمتع بها!.

إما أو»

الخطوة الثانية!

أن تجمع الأشياء

كنا على متن السفينة بعد أن عبرنا الحدود، رسونا على رصيف الميناء على منفذ نستطيع الخروج منه بسهولة إلى الحديقة العامة، عند منطقة الأرخبيلات الساخنة والصخور العارية، كان في السفينة ثلاث أسرة وملحقاتها ستكون لنا منزلاً، وفي الوقت نفسه هي طريقة لتنقلاتنا بين البلدان في الأسابيع الصيفية المقبلة، تلك هي المرة الأولى التي نسافر بها على متن السفينة، سنوات ونحن نفكر بالسفر لكننا لم نفعل، سنة، سنتان وثلاث وأربع سنوات والسفينة واقفة هناك عند الشاطئ دون حراك، ببساطة شديدة كنا لا نطيق العمل والسفر على متنها.

عندما يتقدم الإنسان ويتطور إحساسه من «انظر إلى هناك» إلى «هذا لي أنا» كما في مثال الطفلة الصغيرة، معنى ذلك أنه في الخطوة الثانية من طريقه إلى المرحلة الحسية، يبدأ بجمع الأشياء وبدلاً من أن يقول: «انظر إلى ذلك الذي هناك» يتطور الإحساس إلى «هذا خاصتي، إنه لي أنا»، إن العالم الخارجي، الطبيعة، الأشياء والبشر، كل هؤلاء لم يعودوا موجودين للاكتشاف فقط، وإنما هم أشياء موجودة يستطيع أن يستعملها بنفسه، أولاً وقبل كل شيء يمتلك تلك الأشياء من أجل البقاء حياً، ثم بعد ذلك تتحول إلى شيء موجود من أجله، ليمتلكها هو لنفسه، إن الأطفال

الصغار يتعلمون سريعاً كيف ينظرون ويُقيّمون الأشياء التي لديهم ليحصلوا على أشياء أخرى أيضاً، يعطيهم الامتلاك قوة واهتماماً كبيرين وأحياناً أشياء أخرى، على سبيل المثال طفل يحصل على أصدقاء أكثر وذلك لأنه الوحيد الذي يملك رفشاً، مسحاة عند حفرة الرمل، أو أنه الوحيد الذي يملك لعبة جديدة حاسوب أو غيره يتجمع حوله مجموعة كبيرة من الصغار لينظروا ما هذه اللعبة، أو ربما اشترى علبة حلوى كبيرة في وقت الاستراحة وفجأة يتحسن سلوك أصدقائه المنافقين معه ويصبحوا أكثر قرباً وتمسكاً به، وذلك ليحصلوا على بعض الحلوى منه، تملك منزلاً جميلاً، لديك سيارات فاخرة، ملابس، قوارب، حصة في شركة ما، شيكات وغيرها من الأشياء المادية وبمساعدة تلك الأمور والأشياء المحيطة بك يقوى شخصك، إن الأشياء مرتبطة مع الأشخاص، الفاعل والمفعول به، المستند والمسند إليه، أنت تكبر وتأخذ مكاناً أكبر في الحياة، تصبح أغنى والحياة تعطيك فرصة أخرى لإمكانيات ومعانٍ جديدة لها، لقد كان سورين نفسه، يحب الأشياء وكان ولعه المادي الكبير هو الكتب، وقد كان التلميذ سورين يذهب إلى سوق الكتب في شارع ريتزلس رقم 280 في كوبنهايكن ثلاث مرات بالأسبوع هناك حيث محل لبيع الكتب «مكتبة» كان يتأمل ويقتني الكتب وأحياناً يشتري كتاباً واحداً وعندما تكون محفظته مليئة بالنقود يشتري ما يريد وأحياناً عندما تكون محفظته فارغة كما حدث في 10 فبراير 1836 وقع في حب أعمال غوته الأدبية الكاملة واشترى 55 كتاباً وليس لديه أية نقود بعث بجرأة تامة الفاتورة إلى أبيه ليدفعها له، لقد كان سورين يشتري الكتب في انتظام كامل كان يذهب إلى محل بيع الكتب ثلاث مرات في الأسبوع أي 52 أسبوعاً في السنة وفي كل زيارة كان يشتري كتابين معنى ذلك أنه يشتري ما يعادل 300 كتاباً سنوياً وقد كانت قيمة الكتاب الواحد 200 كرون دنماركي، وإذا حسبنا قيمة الكتاب في حساب اليوم يصبح ما يعادل

60000 كرون في السنة الواحدة وحتى لو كان سعر الكتاب أرخص من هذا في ذاك الوقت لكأن تتخيل رد فعل الأب ميشيل بدرسن عندما كان يتلقى الفواتير وتتدفق عليه ديون مكتوب عليها اسم ولده سورين، أوراق مسطر عليها سطر وراء سطر ملاحظات مكتوب فيها كم تبلغ مشتريات ولده، وحتى لو كان ذلك الشاب يعشق الكتب ومولع بالقراءة والكتابة يعترف في دفتر يومياته بأنه قد اشترى بعض الكتب لا لشيء وإنما لمجرد اقتنائها:

« .... لا عجب في أن أقول لكم بأن هناك العديد من الكتب التي اشتريتها لم أقرأها ووضعتها في البيت فقط والبعض الآخر اشتريته بسبب تأثري بعنوانه الرائع الممتاز» ولقد كتب سورين في 7 فبراير 1839:

«لقد أغرمت إلى حد بعيد بهذا الكتاب ولقد شغل فكري عنوانه الرائع ولكنني لم أقرأه، لقد أحببت عنوانه فقط إنه للكاتب أنتون غونتر اسمه «فلسفة موت جوست!»

عندما ينشغل المرء بكتاب ما ولا يقرأه من بين الأشياء التي يعملها يقوم بتجليده مرة أخرى فيغلفه بقطعة جلد أو قطعة قماش لماع وغيره.

عندما توفى والد سورين ورث سورين وأخيه ثروة كبيرة وبيت من الحجر في محطة كوبنهايكن لقد باع الأخوين البناية وبدأ سورين بالإنفاق الكثير وبدد أموالاً كثيرة، اشترى سورين شقة كبيرة وسكنها لفترة محددة ثم عاش في شقة ذات خمس غرف وبدأ بتأثيثها وتجهيزها بأثاث منزل جميل، اشترى ستائر للشبابيك من نسيج الحرير، جمع الكثير من أكواب القهوة ذات النقوش النادرة وأصبحت لديه خزانة كاملة مليئة بالأكواب المُميزة، طلب من النجار أن يصنع له خزانة جديدة للملابس وطلب من الخياط أن يخيط له ملابس جديدة فخاط له الكثير من الملابس، صنع لنفسه أحذية جديدة لدى صانع الأحذية، وظف بعض المستخدمين لخدمته أخذ يتناول ألذ الأطعمة والمأكولات، اشترى صناديق كاملة من السيكار من محلات

الأم- سيدخن أجود أنواع السيكار، استأجر العربات عند ذهابه إلى المقاهي والمسارح:

- كنت أنفق كثيراً، أعترف بذلك الذنب لقد بددتُ أموالي كلها!. يكتب سورين في دفتر يومياته، وعندما مات عام 1855 عن عمر يناهز 42 عاماً لم يملك ولا كروناً واحداً في جيبه وقد ترك مجموعة أثاث فقط، كتب، 30 قنينة نبيذ و599 ريكسدالر وهي «عملة سويدية قديمة».

نحن البشر لا نجمع الأشياء فقط وإنما قد يكون لدينا التوق أيضاً للدراسة، للعلم والمعرفة أو قد نتحرق شوقاً للسفر والترحال أو لكسب خبرات جيدة، إن كل ما يوجد هناك خارج أنفسنا، والذي نختاره نحن نرغب أن نغني أنفسنا به فنحن نريد كل شيء يجعلنا نشعر بحال أفضل، بوضع أهم، أكثر أماناً، أي كل شيء يمكن أن يتلخص بكلمة «أفضل وأكثر».

لقد كتب سورين عن (دون جوان وعشيقاته الألف وثلاثة عشيقة) وعن القيصر الروماني (نيرون) الذي كانت لديه قوة كبيرة وسلطة عالية لكنه يرغب في الحصول على المزيد أكثر وأكثر، وعن ذلك الشاب (فاوست) الذي يبيع روحه للشيطان كي يحصل على المعرفة أكثر وأكثر، ماذا لو كان سورين يعيش يومنا هذا ماذا ستكون تعليقاته عن عمليات التجميل (لمايكل جاكسون) الغير معقولة أو ماذا سيكتب عن اندفاعات المجتمع الهائجة حول البضائع الاستهلاكية وشرائهم للمواد بكميات هائلة؟ كون المرء يريد أشياء أو أنه يرغب في امتلاكها ليست مشكلة، يقول سورين، إنها مجرد أشياء، ممارسات، أفعال يومية مميزة بالنسبة له يستطيع أن يفعلها لكن المشكلة أن المرء مهما امتلك ومهما فعل لا يكتفي، إن أول كتاب اشتريته كان شيئاً رائعاً وكذلك الكتاب الثاني والثالث، لكن عندما يكون المرء مثل سورين ويملك 2748 كتاباً ولا يزال يرغب بالمزيد تبدأ هنا الأنا تفقد السيطرة على نفسها وبدل من أن تبني ذاتها تفتح هوة كبيرة لها يصعب غلقها أو ردمها،

كتاب بعد آخر تتسع الهوة أكثر وأكثر، كتاب واحد لم تعد تكتفي به ولا يعطيك شعوراً بالرضا أو الشبع، يبدأ المرء يراهن فيوظف كل طاقته ليركز على عمله يضع كل قوته وطاقته على عمل ما وبشكل دائم وأبدي يعمل وكأن عصا واقفة فوق رأسه تحثه على ذلك، لا يرغب في التوقف أبداً، إن ذلك الذي يحصل عليه المرء أو يحققه ويصل إليه لا يقتنع به ويرغب بالمزيد أكثر، كل ما حصل على شيء صعد إلى خطوة بعدها ويرغب بالمزيد، أنت تركز اهتمامك وتغامر بكل طاقتك لترى جميع الأفلام السينمائية الجديدة ثم تلتقي بشخص ما يكون قد رأى أفلاماً أكثر منك بكثير.

إذا ركزت على الجمال يقول سورين يمكن أن تكون متأكداً بأنك ستخسره وذلك لأن الجمال هكذا واسع وهَش وحساس وسريع الانكسار.

مذهب المتعة!

الإحساس بالرغبة والاستمتاع

يناقش سورين ويجادل أفكار الفيلسوف اليوناني أبيقور الذي يرأس المدرسة الأبيقورية، والتي عُرفت باسمه، لقد عاش أبيقور في الفترة بين العام 341 والعام 270 قبل الميلاد وكانت فلسفته الأبيقورية تنص على أن الإنسان عليه أن يعيش حياة اللذة والمتعة وجعل الإحساس بمعرفة تلك اللذة هو الأساس في رغبة العيش، لذا ينبغي على المرء أن يوفر لنفسه الوقت الكافي للاسترخاء وتحقيق أكبر قدر من المتعة، وإشباع رغباته والابتعاد قدر الإمكان عن الألم والقلق.

لقد عارض سورين مبادئ أبيقور بخصوص معنى الحياة المقترن باللذة لقد كان أبيقور يعتقد وأتباعه من الأسماء الكبار أمثال مترودوروس من لامبساكوسوهيرماركوس من ميتيلينوفيلودموس إلى جداراً، بأنه على المرء أن يحاول تلبية رغباته والعيش بمتعة ولذة وذلك للهروب وتجنب تجربة الألم، إن كل لذة طيبة يستمتع بها المرء هي شيء إيجابي وبالتالي هي خير، وكل شيء يؤلم وغير مريح، فهو سلبي وبالتالي هو شر.

- يا ليت لو كان الأمر بهذه البساطة يا أبيقور!. تنهد سورين وقال ذلك.

الآن ونحن نعيش في سنة 2000 وقد مر زمن طويل على كلام سورين ونحن لا نزال نقول:

- أوه، نتمنى لو كان الأمر بهذه البساطة!.

لقد كانت لدى سورين نظرية خاصة به،كان يقول لماذا إشباع الرغبات وسد احتياجات المرء وإقباله الدائم على شراء السلع الاستهلاكية والأشياء المادية لا تكفي لخلق معنى لحياته؟

إن المتعة الحقيقية لا تكمن في المتعة نفسها وإنما المتعة بحد ذاتها تكمن في التخيل. هذا ما كتبه سورين في كتابه «إما أو».

وكذلك الباحثين المعاصرين لقد أكد الباحثين في علم الدماغ الحديثين عام 2000 الذين يقومون بدراسة دماغ الإنسان يرسمون خططاً وخرائط للتوقعات ولتحديد النظم البشرية إنهم يؤيدون سورين ويتفقون معه بأن المتعة هي في التخيل، إن حنين وشوق الإنسان إلى الامتلاك مستمر ورغبات النفس في التملك وتلبية احتياجاتها لا تنتهي ولا يكتفي بشيء أبداً بل إن رغبة المرء في الامتلاك تزداد كلما امتلك شيئاً تصاعدت رغبته في امتلاك المزيد ....

نحن بشر مخلوقون للمتعة يقول (ستيفان كلين) الأستاذ المختص في علم الصحافة في كتابه «مقادير السعادة»: «أن المتعة ليست عملاً تافهاً بل إنها تعود على البشر بفائدة كبيرة» وأكد في كتابه أن المتعة هي أحد أسباب بقاء البشر أحياء في هذا الوجود، ولولا المتعة لبقي الإنسان ببساطة شديدة في مكانه جامداً لا يعيش حياته إلى أن ينتهي ويموت، لو لا المتعة لما ناضل البشر ولا تحرقوا شوقاً وجاهدوا من أجل البقاء أحياء على قيد الحياة ولعاشوا أيامهم قابعين في فراشهم لتضيع أيامهم ولياليهم إلى أن يصابوا بالذبول والوهن ويموتوا وسرعان ما يختفون، لذلك نرى الإنسان يناضل للوصول إلى المُتعة الحسّية ويصبح في غاية السعادة عند حصوله على تلك

الأشياء التي يحتاجها لتبقيه حياً مثل الطعام، الشراب، الملابس، البيوت، الجنس، انجاب الأطفال، إن أكثر متعة تؤثر على نفس الإنسان هي تلك الأشياء التي لا يستطيع امتلاكها فهو عندما لا يستطيع الحصول على تلك الأشياء التي يريدها يبدأ يتخيلها ويتحرق شوقاً لنيلها لتصبح ملكه تماماً كما كتب سورين في بحثه العلمي، لقد استطاع سورين أن يلاحظ بأن المتعة الكبيرة هي طريقة كيميائية خالصة واكتشف أن السعادة ليست تلك اللحظة التي نحصل بها على ما نرغب به، وإنما المتعة والسعادة هي عندما نتخيل الشيء الذي نرغب في الحصول عليه.

لماذا لا نكون باحثين ونختبر أنفسنا بأنفسنا:

فكر في شيء ما كنت ترغب في أن تشتريه منذ زمن طويل، فكر وتذكر كيف كنت تشعر حينها وكيف تسحب الرغبة وتوق الجسد إليها؟ فكر كيف تشعر حقاً بالاستمتاع وأنت تتخيل تلك الرغبة البعيدة المنال؟ فكر كيف يمكن أن يكون شعورك عندما تكون تلك الرغبة غير قابلة للتحقيق؟ ثم بعد ذلك جرب وحاول أن تحصل على ذلك الشيء سواء أكان تحفة تتوق روحك لاقتنائها أم شيئاً آخر، الآن وبعد أن تحصل عليها راقب مشاعرك جيداً، كيف تشعر بالفرح لحظة امتلاكك تلك التحفة وفكر في إحساسك الرائع أنك نلت السعادة التي كنت تتمنى وهكذا يظل ذلك الإحساس معك وأنت تحمل التحفة في طريقك إلى البيت وفي اللحظة التي تفتح فيها العلبة لاحظ مشاعرك وانظر إلى ذلك الهدوء الذي يعتريك الآن وأن ت وأنت تُمسك بالتحفة بين يديك تلك التي كنت تتحرق شوقاً إليها انتبه إلى اللحظات التي تغرق إحساسك بالسعادة، ثم بعد ذلك كيف ينتهي كل شيء ويتلاشى وتتحول تلك التحفة البهيجة اللطيفة لتكون شيئاً عادياً بين تلك الأشياء الأخرى، انظر إلى حولك في البيت انظر إلى خزانة الملابس أو التحف راقب داخل الأدراج في كل الطوابق السفلية والعلوية وتأمل جيداً

كمية التحف والأشياء وماذا حل بها انظر إلى ذلك الحذاء البشع ستجده جواباً لكل تلك الأماني والرحلات الكيميائية التي مررت بها وكم من الأحلام التي بهتت وتلاشت وأصبحت لا تشكل لديك أي شيء.

إن ذلك الذي مررت به هو عبارة عن رحلة كيميائية حدثت داخل جسدك، فإحساس المرء بالرغبة والشوق للأشياء التي يريدها تبدأ بسفرة داخل الدماغ الذي يقوم بإفراز مادة الدوبامين فتجعل الجسد مخدراً ويشعر بالهدوء والرضا ويمتلئ بالرغبة إن كيمياء السعادة التي يمر بها الدماغ عملية بسيطة جداً ومن السهولة الحصول عليها، وذلك لأن المرء يستطيع أن يحصل على كل ما يرغب به عبر التخيل، وهكذا يحصل على أي شيء يريده وكما يرغب به وكيفما يريد ويستطيع أن يجد كل شيء حسب ما يشاء إذا كان يرغب في أن يراه كبيراً يراه كبيراً وإذا كان يرغب في رؤيته صغيراً، يراه صغيراً سواءً أكان ذلك الشيء مهماً أم غير مهم يستعد الجسد فوراً ويقوم بإفراز مادة الدوبامين وتساعد الشخص للحصول على هدفه حالاً، وكل ذلك يحدث عن طريق تحرير مادة الدوبامين التي تُثير الدماغ وتعطيه الدافع وتصعد من حب استطلاعه وتقوي ثقته بنفسه ويشعر بأنه شخص مهم بصورة لا تصدق عبر تخيله وعند حصوله على تلك الأشياء.

إن إفراز مادة الدوبامين في الدماغ لا تؤثر على مزاج الإنسان ورغبته فقط، وإنما تؤثر على العضلات أيضاً فهي تجعل العضلات تتحفز وتتهيأ لتكون جاهزة لتنفيذ أفعالها وهكذا يشعر المرء بأنه شخصمهم وسعيد بصورة لا تُصدق ويشعر أنه قد حصل على كل تلك الأشياء البعيدة مهما كانت بعيدة المنال.

في الماضي وعندما لم يكن هناك أطعمة كثيرة ومتنوعة أو عندما لم تكن هناك أشياء كثيرة كانت الرغبة تكتفي بالشيء المهم فقط وتقنع بما

يكفي لبقائها على قيد الحياة وإذا لم يتوفر الطعام يبقى المرء يقظاً ويراقب وإذا ما سمع بأن هناك بعض التخفيض على أسعار تلك المواد سارع مباشرة لشرائها والحصول عليها وهكذا ينطبق الحال على الأشياء الأخرى إذا ما توفرت في مكان ما يذهب ليحصل عليها ليسد ما ينقصه من الحاجات، وهكذا يشبع المرء حاجاته، إن غريزة البقاء على قيد الحياة من الأهمية بمكان فهي تعمل عملها وتحشد الجسد وكل طاقاته من أجل الحصول على ما يحتاج إليه.

أما اليوم وعند توفر الأشياء بشكل هائل فمادة الدوبامين تفرز طوال الوقت ويصرخ الجسد مطالباً بالمزيد وعلى مسار الأيام كلها يسجل الكائن البشري بأن هناك أشياء أخرى جديدة يشتريها وقد يحتاج إليها ذات يوم، على سبيل المثال وجد كبد البط في أحد الأسواق وهو لا يحتاجه قطعاً لكنه يسرع لشرائه وإذا ما نظر المرء على حاله سيجد أن وضعه قد تحسن ورغم أنه يعيش بشكل رائع في أشهر الشتاء الباردة وحضنه ممتلئ بالورود وبيته يغمره الدفء والحنان، إلا أن الجسد يصرخ وينادي يريد المزيد ويرغب في أن يجمع أكثر وأكثر للأيام السوداء والدوبامين يفرز ويشجعه على جلب المزيد أكثر وذلك لأن الجسد لا يستوعب أن النواقص التي كانت لديه انقلبت إلى زيادة وأغلبية البشر شبعوا منذ وقت طويل ولا ينقصهم مأكل وملبس إلا أنهم يرغبون بالمزيد.

نحن نحب السير مع الدوبامين ونريد أشياء بجشع دائم ولا نكتفي وذلك لنعزز ونقوي نظام مكافأة الجسد عندما يلبي المرء الأوامر ويطلب المزيد، على سبيل المثال إذا أخذت محفظة نقودك وذهبت لشراء كتاب واحد أو كتابين أو ربما ثلاثة أو قررت أن تشتري أحدث جهاز هاتف نقال يعتقد الجسد بأنك قد أمنت له عيشه وحياته لذا فهو يشكرك ويبدأ بفرز أندورفين السعادة أكثر ويسبح الجسد بها وهنا يشعر المرء حسب ما يشاء

وبعدد المرات التي يرغبها كم هذا رائع، يمكن أن يكون سعيداً تماماً كمتسوق جديد مستمتع بالحاجات التي اشتراها لبعض الوقت ثم بعد فترة يخف مفعول تلك الكيمياء الزائدة ويفقد ذلك الفستان أو الكومبيوتر بريقه ولمعانه، لست أنت الشخص الوحيد المتقلب محب التغيير وإنما البشر جميعاً مبرمجين للتغير، فنحن نشعر بالملل مما لدينا ونبحث دائماً عن أشياء جديدة لتعيد لنا المتعة، إن ذلك التقلب من وجهة نظر بيولوجية ليس غريباً، تخيل إذا كنت تعيش كتلك القبائل من البدو الرحل إنهم يتنقلون دائماً من م كان مكان إلى آخر بحثاً عن الماء والطعام إلى جانب بحثهم عن الماء والطعام هناك أيضاً نزعات راسخة داخل الإنسان تجعله يرحل بإرادته وذلك لحبه ورغبته بالتغيير التي تدفعه إلى الانتقال، وبدون تلك النزعات يبقى الإنسان خاملاً كسولاً، ولما تحرك وبحث عن الطعام ولظل واقفاً في مكان واحد فقط إلى أن يتخمر، يأكل حتى الإشباع وربما حتى الاختناق وهل هناك ما يهدد الإنسانية بالجوع لو لم يكن هناك مادة الأندورفين التي يفرزها الدماغ فتعطيه هذا الشعور بالارتياح والرضا، وتمهد الطريق لمادة الدوبامين لتفرز وتخلق لديه رغبة وتوقاً جديداً، آمالاً جديدة، وكل ما ينتهي بريق شيء ما تبدأ بالاستطلاع والبحث عن رغبات جديدة، أمنيات جديدة، قنص جديد - كشراء فستان جديد أو حذاء أحمر بكعب عال وغيره من الأشياء التي يحبها.

إن كيمياء الجسد هي نوع من معنى الحياة وعلى مستوى شعبي هي الغريزة الفطرية لتبقي الإنسان على قيد الحياة، أن تجمع الأشياء هو شيء جيد، يقول سورين، وذلك لأنه من الضروري تعزيز الحياة وأن تتمتع بكل ما يمكن أن تتمتع به ومهما خدعت نفسك في التفكير بأن ذلك سيكون كافياً لن تكتفي أبداً.

سبع نظارات، غليون، أطباق فضية وملحقاتها، علاقات معاطف،

كرة أرضية مع مسند وقوف، شوكات وإبريق قهوة، قدر خضار مع غطائه، حزم من السيجار، شمعدان عدد اثنين، مائدة مستديرة توضع أمام الكنبة برجل واحدة، سرير من خشب الصنوبر، فرشة سرير، كراسي، سترة من الجلد، مقالي، قدور، ستائر، ستارة ذات قماش أسود، وستارة أخرى ذات بكرة لفافة مع أدواتها، عطر، مسطرة، كابسة أوراق، ساعة منضدة، مشط، فرشاة ملابس، تماثيل جبسية مذهبة ونسر برونزي، ملقط للنار، وسادة، عدة عصي، مظلة خضراء فضية، مظلة سوداء، شمعدان صغير، مصباح، قمع، محرار لقياس الحرارة، علبة حافظة لحفظ القهوة، سلم، غطاء سرير، وسادة كبيرة، غطاء، لحاف سرير مُقلم، ومخدات للزينة، جوارب، مناديل للأنف، شالات سوداء، بلوزات، قمصان نوم، سروال يرتدى تحت البنطال، معطف ليلي، روب، قبعة للنوم، خف منزلي، قبعة، سطل من الصفيح، كوب للبصاق من النحاس الأصفر، فأس، كنبة من الخشب البني و2748 كتاب وخاتم خطوبة. معظم هذه الأشياء بيعت في المزاد بعد موتسورين سنة 1855.

إن ذلك التعيس، البائس، هو ذلك الشخص الذي لم يخصص وقتا قليلاً أو كثيراً لداخله، يكون مثله الأعلى هي ممتلكاته الخارجية، فيكون إدراكه، صوته الجوّاني وجميع ذلك خارج نفسه، إنه التعيس في علاقته مع نفسه إنه غائب دائماً عنها ولم يكن حاضراً مع نفسه أبداً.

(إما أو)

الخطوة الثالثة!

أن يثمل المرء مع الأشياء

إن أحد أصدقاء ولدي المقربين (جيم) يريد أن يضع خارطة على الأنترنت ويضع إشارة على جميع البلدان التي زارها في العالم لقد أشار (جيم) إلى أجزاء غير معقولة في العالم كان قد زارها، إن (جيم) وعائلته مولعين بالسفر وقد سافروا كثيراً ولم يبق مكان في العالم إلا وزاروه- ذات يوم قال لي (جيم) بلغة الواثق من نفسه تماماً:

- سأزور العالم كله، ذات يوم سأكون في كل مكان! عبارته هذه جعلتني أفكر بزميلي في العمل (سو)، لقد كان (سو) وزوجته يتسابقان مع زوجين آخرين أصدقائهما على أن يمروا بقدر ما يمكنهم على أماكن كثيرة في العالم، مناطق، مدن، قرى، أرياف،بما فيها محطات القطار التي يتوقف القطار فيها للحظات قصيرة يعتبرون أنفسهم قد مروا عليها، لديهم خرائط كثيرة في المطبخ، تذاكر سفر، دفتر ملاحظات مكتوب عليه الوقت ووجهة السفر التي سيتوجهون إليها، إن قانون لعبتهم هو مجرد أن يتوقف أحد هؤلاء الأزواج في أحد الأمكنة أو حتى في أحد مواقف السيارات للحظات أو مد رأسه من نافذة القطار أو الحافلة أو عربة المترو أو حتى لمس بطرف أصبعه أرض تلك البلدة تحسب له ويعتبر أنه مر عليها حتى لو لم ينزل على الإطلاق إلى تلك المدينة يعتبر أنه زارها، وهدفهم أن يكونوا متواجدين في أماكن عدة أكثر من أي شخص آخر.

إن لبعض الناس علاقة متعة مع الأشياء والعالم يندمجون بها إلى درجة عالية مما تشكل لهم جزءاً مهماً في حياتهم ويصل بهم الأمر إلى شكل من أشكال الثمالة، الإدمان، فهو يكون مشغولاً تماماً بمشروعه ذاك إلى حد أنه يملك كيانه ويعطي جميع الأولويات له وتصبح جميع الأشياء الأخرى في حياته ثانوية فهو يحتل تفكيره لدرجة كبيرة حتى ليشكل عنده حالة كالهوس، إن مقدرة الإنسان على أن يكون مشبوباً عاطفياً هي شرط من الشروط التي تمكنه من إيجاد المعنى الخاص لحياته، يقصد سورين أن الولع والعاطفة هي التي تجعل الطفل أو البالغ والباحثين والعلماء يبذلون جهدهم للسعي إلى أقصى درجة ممكنة ليفهموا العالم، إن العاطفة القوية هي التي تجعلنا نجمع الأشياء ونحب السفر ونبني ونُعمّر وهي التي تسعى أيضاً مع مرور الوقت لمساعدتنا أيضاً لنبحث عن الإله / الكمال/ العدم.

لكن حذار، على المرء أن ينتبه من أن تخدعه العاطفة في مراحل مبكرة من عمره وتجعله يعتقد أن الحسية هي معنى الحياة وهي معنى الحقيقة وهي كل شيء وهذا خطأ كبير فمن السهل أن يفكر المرء ويعتبر حصوله على كميات كاملة من الكيمياء،أشكال ليزا لارسون غوستاف بيرغ سوف يجعله سعيداً وراضياً تماماً عن نفسه وحياته، إن إلقاء نظرة إلى هؤلاء الرياضيين الذين يبنون عضلات أجسادهم ويعرضونها للتباهي على غرار عارضي الأزياء، لا شك بأنه ينتابهم إحساس يمكن أن يكون مذهلاً فاستخدامهم للرياضة وبمساعدة عمل العضلات تقوي البطن ويبني المرء من جسده إنسان جديد، وحين ينهض صباح كل يوم وينظر إلى عضلاته في المرآة، وفي الليل عندما يقوم بتفريش أسنانه، أو حين يخلع ملابسه ليرتدي بيجامته ينظر إلى شكله في المرآة ويتأمل عمله، ينظر إلى عضلات جسمه بإعجاب كبير ولا عجب في أن يصبح ثملاً، مخدراً، وأنه على استعداد كبير ليخاطر حياته ويستعمل المنشطات كي يزيد وينميّ عضلات جسمه وتصبح

أكبر وأكبر، وكذلك إلقاء نظرة إلى بعض نساء أو رجال الأعمال، كما جاء في كلمات سورين «إنهم هناك يجمعون كل البورصات في بورصتهم» ويرغبون في أن يجمعوا كل نقود العالم في محفظتهم الخاصة إنهم لا يكتفون بالمبالغ التي جمعوها أبداً وعلى الرغم من أنهم ينفقون مبالغ هائلة إلا أنها لم تحرك جزءاً بسيطاً من ثروتهم الطائلة ولو أنفقوا هم وعائلاتهم لعشرات السنين لا تنتهي ثروتهم ولا تنفذ. لكنهم وعند تسجيل دخولهم إلى موقع البورصة وعند استخدام لكلمة المرور الخاصة بهم للاطلاع على أسهمهم وعندما ينظرون كيف يرتفع رصيد أموالهم بشكل ملحوظ في الثواني الأخيرة يشعرون بفرح شديد مما يزيد متابعتهم لحظة بلحظة دقيقة بدقيقة ليرفعوا من رصيدهم أكثر، وعند تزايد ثروتهم تقوى قيمة الأنا الخاصة بهم ويكبر ويشعر بأن تقديره لنفسه أصبح ذا قيمة أعلى وأن قيمته الآن أكبر أو كالمعجبين وعشاق الرياضة الذين يشكل لهم فريق معين كل شيء في حياتهم فهم يقفون معاً على المدرجات، ونستمع إلى صراخهم وتشجيعهم للفريق الذي يحبون وفي حال انتصار ذلك الفريق يشعرون بنشوة كبيرة: «هامممممممممممارررررر- بيييييييييييييبا» إن ذلك ليس بشيء وهمي بل هو المادة الكيميائية المخدرة التي يفرزها الجسم إنها كالألعاب النارية والمفرقعات التي تطلق في الفضاء في الاحتفالات تشعرك بالفرح الحقيقي النقي للحياة.

أنا شخصياً عاطفتي المتأججة ليست على السفر والرحلات، وليست لدي رغبة لتكبير العضلات، ولا أحب أن أجمع النقود والأموال، ولا غيرها إن نشوتي الكبيرة تأتيني من العمل، أنا أقوم بالكتابة والتدريس والإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه وأعمل لساعات طويلة كل يوم، أعمل لأيام وأشهر وسنين طويلة فأنا أسكرُ بما يدور في الكتب وأشعر بالثمالة لما بين السطور من كلمات ومعان، أشعر بمتعة ذات معنى وأجدني منتشياً مخدراً

بها ولكن في الوقت نفسه أشعر بأن هناك أمراً غير صحيح وأن هناك خطأ ما وذلك لأني لم أستطع الحصول على ما يكفي ولن أتوقف أبداً، أنا مشغول جداً في الوقت الحالي أقول لأصدقائي دائماً ما هي إلا فترة معينة بضعة أسابيع فقط وسأنتهي من عملي وأكون على وضع أفضل ونلتقي، وهكذا تمر الأيام والشهور وأسمع نفسي أقول مرة أخرى نفس الكلام:

- أنا مشغول لدي الكثير لأعمله الآن ما هي إلا فترة قصيرة وسيتحسن وضعي وسأتفرغ للقائكم! ولن يحدث هذا أبداً، الآن أفكر بأن هناك خطأ ما في تلك الجملة أو في ذلك الرد.

إن أحد أبطال سورين ومعلمه الأول في الحياة هو الفيلسوف اليوناني سقراط، ولد سقراط في أثينا عام 470 أو ربما في عام 469 قبل الميلاد، ومات بعد 70 عاماً، لقد شكك سقراط بالآلهة بعد أن كان معظم الناس يحبونها ويحتفلون بها من قبله، إن سقراط أول المفكرين في أوربا الذي سلط الضوء إلى دواخل البشر وهو أول من قال للناس ونادى بهم للجوء إلى داخلهم، لقد كان علماء الطبيعة من زملائه الذي كان يدرس معهم لم يؤمنوا بأفكاره وكرسوا دراستهم حول العلوم الطبيعية فقط لكن سقراط سرعان ما فقد الاهتمام بجميع العلوم وركز تفكيره حول الإنسان واهتماماته فقط:

- لا! إن كل تلك الأمور لا تستهويني إن ما يفتنني هو الإنسان فقط، سواء على صعيد أعماله أو تصرفاته، أفعاله أو ما يفكر به، إن حياة البشر التي يعيشونها التي تسحرني!.

بالإضافة إلى ذلك كان سقراط لا يهتم إلى وجهات نظر الآخرين ولم يكن يهتم بمشكلات البشر الحياتية أو الاجتماعية وليس له علاقة في كيفية إمكانيات التصرف معها أو إيجاد حلول لها، لا، لقد كانت مهمته في المقام الأول هي دواخل الناس وكيف الوصول إلى معرفة الذات؟

لقد كان سقراط مولّداً يولّد الأفكار للبشر، كان يطرح أسئلته على الناس الذين يلتقيهم وبمساعدة أفكاره وتصرفات الآخرين وأفعالهم وبذكائه الحاد وحب استطلاعه وفضوله استطاع أن يقود الشخص إلى معرفة نفسه، لقد كان سقراط يعمل (معلماً) منذ ذلك الوقت أي قبل ما يقارب 2500 سنة، أي في الوقت الذي كان الناس لا يعرفون مهنة كهذه امتهن سقراط مهنة المعلم، القائد، الموجه الذي يقود الناس إلى الطريق الصحيح وهكذا أطلق على تلك الطريقة بالأسلوب السقراطي، لقد استخدم سقراط ذلك الأسلوب مستوحياً إياه من والدته التي كانت تعمل مُولّدة وتقوم بتوليد النساء، لقد جاءته فكرة استلهام فن التوليد من والدته فقد كان يقول دائماً:

«- أنا أستطيع أن أولّد الآخرين لكنني لا يمكنني أن أولّد نفسي! أنا لا أستطيع أن أقدم بعضاً من الأفكار لنفسي»، لقد تعلم سقراط أن يقول هذا عن نفسه:

«- لكنني أستطيع أن أولّد أفكار الآخرين» كالمايوتيك أي فن التوليد، إن التوليد هو كالمسحاة التي تُغرز في الأرض تظل تحفر وتحفر في ذاكرة الإنسان تسأل وتسأل مما تجعل الأفكار تغوص في ذاكرة المرء ثم يجد المرء جوابه الخاص بنفسه.

المايوتيك!

فن التوليد!

الفن أن تُوّلد، هكذا وصف القائد (نيكياس) تقنيات الأسلوب لصديقه (لاكس) وذلك عبر واحدة من حوارات أفلاطون:

«بالطبع أنتم لا تعلمون إذا اقترب أي شخص من سقراط للانخراط معه في حوار ما تكون النتيجة، دائماً مهما كان الحديث الذي جاء به المرء يقوده سقراط في نهاية الأمر إلى دائرة الحديث حول نفسه، وهكذا يدخل سقراط في مناقشات طويلة حول المرء والحياة التي يعيشها وكيف يعيشها؟ وما هي تلك الحياة التي كان يحياها، والتي ما كانت وما ستكون عليه الآن؟ وهكذا إلى أن يجعل المرء يقف أمام نفسه ليجد ذاته ويفهم بأنه هو المسؤول الأول والأخير عن نفسه وعن حياته وتصرفاته وأفعاله وهو المسؤول عن الأسلوب الذي يعيش به حياته ولا يترك سقراط الفرد إلا ودعاه لأن يجرب ويختبر ويدرس بدقة جميع الطرق كي يستوعب بأنه مسؤول حقاً عن نفسه وكيفما عاش وأن كل ما يمارسه في حياته هو مسؤول عنه.

كان سقراط مقتنعاً بأن الإنسان هو الوحيد منْ يمتلك حقيقة نفسه وأن حقيقة ذاته بين يديه لكن شرط أن يحصل على الإمكانية ليبحث عنها وهكذا خرج سقراط إلى الساحات العامة في أثينا وبدلاً من أن يجلس مع

هؤلاء العلماء الكبار يتأمل ويفكر خرج إلى الشارع وذهب إلى الناس مباشرة وبدأ يساعدهم للتفكير بأنفسهم.

لقد رأى سورين كيركيجارد أن سقراط كان على صواب:

لو نتوقف قليلاً ونكون مع أنفسنا سنجد جميع الأجوبة التي نبحث عنها داخل دواخلنا!. وهكذا خرج سورين إلى الشارع تماماً كما فعل سقراط، ففي ساعات التنزه اليومية في شوارع كوبنهايكن التي أطلق عليها «نزهة السباحة اليومية مع البشر» بدأ سورين يوقف الناس الغرباء ويتحدث إليهم ويدخل في حوارات ومناقشات معهم ويسألهم عن كل شيء.

الآن يسافر سورين من كوبنهايكن ذاهباً إلى مدينة نيتورف، أخذ يُعدل قبعته وينظر إلي وأنا أسارع الخطى لألحق إلى محطة الراديو وذلك لإجراء الحلقة النقاشية التي سأقوم بها حول الحديث عن جريدة اليوم السياسية، الآن يوقفني سورين ويسألني:

لماذا أنت على عجلة من أمرك؟

عندما لا أرغب في الجواب أهز رأسي فقط ثم أحاول أن استمر في السير إلى طريقي يتعدل سورين ويصبح أكثر جدية ويقول لي:

- هل أنت مشغول هكذا دائماً؟ هل لديك أشياء كثيرة مزدحمة على الدوام لتقوم بها؟ على أي طريق يعطيك هذا معنى لوجودك؟ ماذا تجني أو تربح وماذا تخسر، من ذلك كله؟ وعندما ستموت، كيف ترغب في أن توصف حياتك من بعدك؟

ثم يثبّت سورين عينيه في وجهي ويواصل كلامه:

- هل أنت جاد في أنك ترغب حقاً في أن تخفف من عملك وتعمل بصورة أقل أم أنك تكذب فقط على نفسك وعلى الآخرين؟

أن يكون المرء مدمناً على العمل هو شكل من أشكال الحسية المتقدمة المعقدة، يقصد سورين، بالإضافة إلى أنه يصعب عليه أن يرى

داخله ويصعب على الآخرين أن يكشفوا النقاب عنه بسهولة، أي «من الصعب أن نقرأ هكذا نوع من البشر» أو كما كتب سورين في كتابه الأكثر قراءة في العالم «إما أو»:

– لاحظت خلال حياتي في أغلب الأحيان عندما يُشكل العمل للمرء قيمة عالية عادة ما يعمل كثيراً وكلما عمل أكثر كلما يعطيه الدماغ الإفراز ويفرز أكثر مما يجعله يشعر بالخدر والانتشاء وكلما زادت قيمة العمل وأصبح يُشكل أكثر غلاوة كلما أصبح المرء مدمناً عليه أكثر مما يزيد صعوبة شفائه منه وذلك لأن النشوة هي إحساس لطيف يشعر المرء معها براحة أكثر وجمال وعواقبها تبدو عليه أقل ضرراً، فهو يشعر بحالة الانتشاء أكثر من شعوره بالجوانب الضارة التي تأتي منه، إن ذلك الخدر يغطي على السلبيات ولم يعد يراها تماماً كالشخص المدمن على الكحول، إن الشخص الذي يتناول الخمر ويشعر بالسكر سريعاً يستطيع أن يلاحظ الجوانب السلبية لذلك الخطر الذي يؤدي إلى الإدمان وربما يمكن إصلاحه فهو عندما يتعاطى الكحول ويصبح ثملاً يشعر بالفرح والإنتشاء ولكن عندما يفيق منه في اليوم التالي يصاب بالغثيان ودوران في الرأس وصداع وآلام ويشعر بعدم الراحة وهكذا يكون على بينة من آثار الكحول الجانبية الضارة، ويمكن إنقاذه وهناك أمل لإخراجه من حالة الإدمان، ولكن مع أولئك الذين يتناولون الشمبانيا الخفيفة كل يوم فهم لا يشعرون بضررها القادم لذلك فهم يظلون يتناولونها بشكل يومي ويشعرون بالإنتشاء دون أن يشعروا بمضاعفاتها الضارة الأخرى، أمثال هؤلاء لا يمكن استعادتهم بسهولة وإنقاذهم من الإدمان، إن هؤلاء المدمنين على تلك الإفرازات التي يفرزها الدماغ يشعرون بالخدر دائماً ولا يستطيعون أن يخبئوا إدمانهم ويقبلوا بالحسية، وفي النهاية يُوقعون أنفسهم في شرك لا يستطيعون الحصول على التقديرات الصحيحة داخل أنفسهم ويعتقدون بأنهم على الطريق الصحيح:

- أنا إنسان شاطر!

وهذا الإنسان الشاطر يحصل على المديح والتشجيع من قبل إدمانه الذي يحفزه أكثر وأكثر وببساطة شديدة يستطيع أن يستمر في إدمانه على العمل ورغم أن جسده يحاول تحذيره من العواقب والنتائج السلبية التي سيقع بها، وإذا لم يكتف بالعمل وحده وليحصل على نشوة حسيّة أكثر يمكنه أن يموّن نفسه بإمكانية عمل أعمال إضافية أخرى على سبيل المثال يمكنه أن يعمل وظيفة بدوام كامل لساعات طويلة وإلى جانب هذا يمكنه أن يُربي طفلين أو ثلاثة أطفال وله منزل مليء بالأشياء التي تحتاج إلى رعاية واهتمام، ويذهب إلى النادي الرياضي عدة مرات في الأسبوع ويقوم بأشياء مبتكرة في أيامه كلقاءات ودية مع الأصدقاء والمعارف ويعمل حفلات جميلة ويطبخ مأكولات شهية ويقتني ملابس جميلة ويمارس ممارسات كثيرة في أوقات فراغه ذات معنى - مثلاً لديه حديقة رائعة يعتني بها وبالإضافة إلى هذا كله ووسط كل ذلك يرى أن لديه وقتاً باقياً لنفسه.

إن المغزى من فكرة سورين هو ليس هناك خطأ في ما تفعله شرط أن يكون قادم من داخلك أنت إذا كنت تعيش في تناغم وتوافق مع احتياجاتك الأصلية الخاصة النابعة من نفسك، ليس هناك خطأ، ولكن عندما يسيطر على تصرفاتك وأعمالك شخص آخر ويتحكم بها وتخضع لسيطرة الآخرين يصبح هناك خطأ ما إذا كانت قوة دافع الإرادة لديك قادمة من خارج نفسك أو قادمة من جزء آخر من نفسك ويريد خداعك ويبعدك بعيداً خارج عن نفسك عندها تتوقف روح الحسية لديك ولا تفحص ولا تتحقق عن داخلك مما يجعلها تضع حدود بينك وبين العالم وبدلاً من أن تأخذ السيطرة هي وتضع الحدود لوجودك في هذه الحال تترك نفسك والأنا الحقيقة الخاصة بك إلى ذلك الواقع الخارجي يتحكم بها وتدمن بصورة كاملة على الأوضاع الخارجية وبهذا تصبح روحك

الحسية، الجوّانية سجينة لا تعرف من هي ولا من أنت ولا ماذا تريد وتخسر السيطرة والقوة لمعرفة المعنى من حياتك.

إن فريق كرة القدم الذي كنت تُشجعه خسر المباراة وخرج من لعب الدوري العام لكرة القدم، وأسهم البورصة التي كلفتك مبالغ طائلة انخفضت وخسرت الكثير من أموالك، القرميد أو الخزف الصيني الذي اشتريته بثمن غالٍ أصبح اليوم يباع بسعر رخيص جداً وهبط إلى خانة التخفيضات، تظل ترهق نفسك بالعمل تعمل وتعمل إلى أن تصاب بأزمة قلبية أو تبقى تعمل بإرهاق إلى أن تصل إلى سن التقاعد وهناك تبدأ تتساءل أين ذهبت حياتي؟ أنت لا تملك السيطرة على سعادتك، إنها واقفة هناك أمامك لكنك أضعتها وذهبت مع الأشياء السطحية الخارجية تماماً مثل أنواع الإدمان الأخرى التي تصيب المرء فهو عندما يُسلم نفسه إليها تفقد روحه الحسية العالية أيضاً ويصبح كالمضروب على رأسه يستيقظ بعد حالة من السكر يشعر بإرهاق وتعب كبير، إن تلك الرحلة الأولى التي سافرتها إلى تايلاند تعطيك فرحة حياة وشعور بسعادة رائعة، وفي السفرة الثانية إلى نفس البلد تعطيك رغبة رائعة في المزيد، لكن في السفرة الثالثة تبدأ تصبح مدينة تايلاند عادية، وعديمة النكهة وفي المرة الرابعة تكون في نفس البلد وتقيم في نفس الفندق تبدأ تشعر بالملل، هكذا هو الإنسان مبني على التغيير والتنوع في حياته، إنه يلجأ إلى النوم لينوع يستيقظ يصحو يأكل اللحم والخضار وأحياناً يكون نشيطاً، حيوياً وأحياناً أخرى يعطي لنفسه الراحة والهدوء، إنها ردود فعل الطبيعة البيولوجية التي خلقت لدى البشر، إنه ذلك الإحساس المُميز الذي يشعر به المرء في نهاية الأسبوع عندما ينتهي من عمله وهو في طريق عودته إلى البيت ينتابه شعور بالراحة وذلك لأنه يعرف أن اليومين القادمين هما عطلته الأسبوعية التي ستمكنّه من إيقاف ذلك الروتين الذي يعيشه طوال أيام الأسبوع، هذا إحساس مُثير

وجميل لدى الشخص الذي يعمل، ويختفي هذا الإحساس المُثير عندما يكون الشخص مريضاً ولا يمكنه العمل أو عاطلاً عن العمل، أو هذا الشخص الغير مرتبط بشيء يعمله أو ربما ليس لديه أي شيء يقوم به، إن هذه الكيمياء التي تعمل وتحقق نجاحات الإنسان الخارجية في حياته جميعها ستنتهي ويبهت بريقها وسوف تدهش عندما تكتشف أن لا شيء يبقى منها ولا تشعر به كيفما كان وأن كل شيء بمرور الوقت يخفت ويتوقف إفراز المادة الكيميائية داخل الجسم ويصبح كل شيء عادياً ويبدأ المرء يبحث عن شيء آخر جديد.

هذا ما لاحظه سورين عندما كان منظماً إلى طبقة أثرياء كوبنهايكن لفترة من الزمن، في بداية الأمر كان مستمتعاً بشكل لا يوصف وكان يسير في شوارع كوبنهايكن مرتدياً معطفاً أصفر مثل الليمون، شكله مثير، مذهل، يسير في الشوارع الرئيسية التي تكثر فيها محلات المعجنات والحلوى الجديدة، أبيتز، كابريتز، كابوزي، جيانليز، فريني، لاردلي، بدرين، بليزش، وسشي، كل تلك المحلات كانت ملتقى للأذكياء والجميلين وكان سورين يجلس هناك طوال النهار يشرب النبيذ، ويتحدث إلى الأصدقاء ويتناول الطعام، يدخن السيكار ويبقى جالساً كل يوم محدقاً في كل شيء إلى أن بدأ يشعر بالتعب وأن هناك فراغاً هائلاً يجتاح روحه فتساءل مندهشاً من ذلك الفراغ الذي يجتاح روحه فجأة وسيطر عليه:

«الرغبة» يكتب سورين:

«- أنا فقدت الشعور باللذة».

إن نضال البشر لتحقيق رغباتهم قد يتخذ تعبيرات عديدة، إنها في الأساس رغبة، توق وحنين ليجد الإنسان نفسه، يعتقد سورين:

«- تبدأ هكذا بالحسيّة، المتعة الحسية، لكنها لا تتوقف عند ذلك الحد ينبغي على المرء أن يُكمل طريقه!».

عندما يعرف المرء ويحدّد معنى حدود جسده ورغباته وعندما يكتشف ويتمكن من معرفة الأماكن وعندما يجمع الأشياء التي يحتاجها ليعيش حياة سعيدة، طيبة، سوف يصاب بالسأم من تلك الأشياء الحسيّة المادية ويبدأ يبحث له عن سبل، طرق جديدة ليفهم نفسه، إن ذلك الشخص الذي يستمع جيداً إلى نفسه ويسير وراء رغباته وتقلباتها سوف يشعر مبكراً بأن الوقت قد حان ليتطور وبشكل تلقائي تماماً يتوقف ويضع من أهمية تلك الأشياء السطحية التي لا أهمية لها من تلقاء نفسه، ولم يعد يهتم للأشياء الأخرى وبدلاً من ذلك يبحث ويتبصّر ليتفهم الأشياء ويبدأ في التعمق بها .

إن الشخص الضعيف الإرادة الذي لا يستطيع استقبال إشاراته الجوّانية فإنه يسير خبباً على مسار سكة القطار، لا يستمع إلى داخله، وداخله يعترض ويرفض تبديل اتجاه السكة والسير قدماً في حياته فيظل يسير ببطء متصلباً جامداً في مكانه ويشعر بأن الحياة ليس لها معنى ويجتاحه فراغ رهيب هذا الذي أطلق عليه سورين الإحساس باليأس والقنوط.

«هل أنت خائف؟ مم تخاف؟إنك
لا تُولد شخصاً آخر، إن ذلك الشخص
الجديد الذي تتعرف إليه هو أنت
نفسك!».

إما- أو

بين الحسيّ / المادي والجوّاني . . .

.. ماذا؟.. هل هناك صوت ينادي..

«- إن البشر بطبعهم ملولين» هذا ما اكتشفه شخصية السيد «أ» بطل الجزء الأول من كتاب سورين«إما- أو»:

- إن كل شيء مُمل، الناس مُضْجرين بشكل لا يُطاق، الأشياء كئيبة، الجو سيء وخانق ولم يعد هناك كتب جيدة أقرؤها وحتى نفسي أصبحت مضجرة بل هي أكثر الناس ضجراً أنا الآن لا أبالي لشيء أبداً.

هناك تقف على باب المنزل سيارة جميلة،لديك ملابس رائعة تملئ الخزانة، الفيلا واسعة وتكفي لعشرة عائلات، تشاهد الأفلام المُمتعة، لديك زوج محب رائع، أطفال رائعين، تتناول وجبات طعام لذيذة لديك عمل جيد ذو مكانة رفيعة في المجتمع، تذهب في العطل تتزلج على الجليد، تحمل حقيبة الجيم وتذهب لصالة الألعاب الرياضية وتمارس الرياضة، أنت عضو في أكبر حزب في البرلمان ولكن كل تلك الأشياء فقدت بريقها اللامع تماماً كسندريلا بعد انتهاء حفلة الرقص الكبيرة، وبعد أن كانت رائعة بملابسها وفي كامل حلتها الجميلة وكأنها تبدو أميرة من أميرات الأساطير والأحلام، تتحول لتعود تلك الفتاة الفقيرة المُلوثة بالسّخام جالسة في المطبخ قرب الطباخ.

نحن نُشبِّه شخصية السيد «أ» في ضجره ومله وسرعان ما نتحول

بسهولة إلى يائسين ونصاب بذهول مفاجىء عندما يجتاحنا للمرة الأولى ذلك الإحساس بأن لا شيء له معنى في حياتنا فنشعر بالدهشة.

- كنت أحب دائماً الذهاب إلى ذلك المطعم ولكن لماذا لم يعد يستهويني الآن؟!

- وأنا كنت أنتعش وامتلئ بالحياة والحيوية دائماً عندما أستمع إلى محاضرة ذكية أو نقاش جميل مفتوح لكن الآن لم أعد أستمتع بهذا لماذا؟!..

- أنا كنت أعشق الرقص وأهتم به وأحب وأتابع أحدث الرقصات وأجيدها وأطورها لكن الآن لم أعد أهتم بذلك أبداً!.

أو كما تصف شخصية السيد «أ» سأمه وضجره في كتاب إما- أو.

«- ببساطة شديدة أنا لا أحب القيام بكل هذه الأشياء، لا أحب ركوب الخيل وذلك لأنه يتطلب مني حركات جسدية قوية ولا أحب المشي لأن ذلك يشعرني بالجهد والإرهاق ولا أحب النوم وذلك لأنه يتطلب مني -إما- أن أكون مستلقياً على الفراش وأنام -أو- أن أكون صاحياً وينبغي عليّ النهوض «إما» مستلقياً نائماً «أو» صاحياً ناهضاً، نائم - مستيقظ مرة أخرى وهذا ما لا أحبه أيضاً نتيجة ذلك كله بمعنى -إما- أو- لا يحب شخصية «أ» أن يقوم بهذه الأشياء وذلك ببساطة تامة إنها تشعره بالانزعاج.»

وهكذا للمرة الثانية ينتاب المرء الإحساس بالانزعاج من عدم معنى الأشياء أما في المرة الثالثة فيصبح مُضطرباً مشغول البال ويشعر بالقلق تجاه ما يحصل وهنا يبدأ يتساءل:

- من أين يأتيني هذا المذاق الفارغ العديم الطعم ويملأ روحي؟ لم أعد أعرف نفسي هل حقاً هذا الشخص أنا أم أنا شخص آخر؟!

من السهل على المرء أن يتفهم في بداية الأمر حالته، ويجد هناك افتقاراً أو نقصاً ما لوضعه هذا، فيعتقد أنه ربما بحاجة إلى قليل من الحوافز الإضافية ليصبح في وضع أفضل ويفكر:

- قد أنتقل أو أبدل عملي إلى عمل آخر فيزول هذا الإحساس بالملل؟ أو ربما أذهب رحلة جميلة خلال إجازتي القادمة وذلك للتغير والاستجمام، لربما يعود كل شيء على ما يرام.. أو ربما زوجة جديدة وأصبح على أحسن حال، أو إذا غيرت سكني وانتقلت إلى بيت آخر جديد ربما سيتحسن حالي وهكذا نرى عندما يشعر المرء بالضجر يحاول التغيير من نمط حياته التي يعيشها، فإذا كان محل إقامته في القرية ينتقل إلى المدينة وإذا شعر بالملل من الوطن يسافر إلى خارج البلد، على سبيل المثال الشخص الأوربي يسافر إلى أمريكا والشخص الأمريكي يسافر إلى الشرق.. إلخ.. وهكذا لدينا نحن البشر حالة من الأمل دائماً، رغبة حالمة للقيام برحلة ما ليس لها نهاية أو يتمنى لو أنه يتمكن من القفز بين النجوم ويسافر كل يوم من نجمة إلى نجمة هذا ما يُشير إليه شخصية البطل «أ» في كتاب إما أو.

إن المرء يتمنى أن يعيد البريق إلى الأشياء التي فقدت لمعانها إنه يحاول ويحاول لكن محاولاته هذه لا تساعده في شيء بل أنها على العكس، يقول سورين: من السهل أن يحاول المرء التغيير ليشعر بالتجديد لكنه كلما هرب من الملل دخل فيه أكثر وأكثر وذلك لأنه إذا استخدم تلك الوصفة القديمة سوف لن يبتعد إحساسه عن الضجر وإنما سيحصل العكس من ذلك، إنه سيزداد توغلاً فيه أكثر وأكثر ويشعر بالفراغ أكثر وبالتأكيد كلما ازداد المرء من التجارب الحياتية، كلما تعزز إحساسه بالملل أكثر ومهما سافر أو ربح مبالغ طائلة لا ينفعه ذلك بشيء ولن يُغير من ضجره بل يزداد شعوره إيلاماً ويدرك أن تلك الأشياء حقاً لا تقدم لهولا تعطيه أي شيء بغض النظر عما يفعله وبغض النظر عما يكسب أو يربح، يملك أو ما لا يملك أو كائناً منْ يكون سواءً كان ملكاً أو وزيراً، أم خادماً أم بائعاً أم فلاحاً بسيطاً، يشعر المرء بعدم الوضوح ويبدو وكأن كل شيء أمامه مغطى بطبقة من الغبار لا يستطيع أن يرى داخله وأنَّ كنزه الداخلي مغطّى بالتراب لا

يمكنه أن ينظر إلى داخله بوضوح ويصبح كل شيء لديه مملاً وعدم إحساسه بمعنى الحياة يزداد اكثر.

إذا ذهبت إلى سورين ذلك الفيلسوف الكبير وسألته:

- ما هو الخطأ بي؟ ما هو الشيء الذي ينقصني؟ كيف أجد البهجة أو أُعيد السرور إلى نفسي مرة أخرى؟

سيجيبك سورين وإبتسامة خفيفة على شفتيه:

- هل تشعر الآن بأنك إنسان يائس؟

- نعم!

- هل وصلت إلى نقطة تشعر بأن وضعك أصبح مَيؤوساً؟

- نعم!

- إذن مبروك!

- مبروك! ماذا تقصد؟

- ليس هناك أي نقص أو خلل فيك! (إن سورين ينادي من منتصف عام 1800)

- هذا أنت الذي ينادي أيها الإنسان، إنها روحك الجوّانية تطلب منك أن تدع جميع الأشياء وتركز انتباهك فيها وأن تعير اهتمامك إليها، لقد أصبحت الآن شخصاً واع مدركاً لنفسك في الروح الأبدية.

- ولكن! الروح الأبدية! (توقف لحظة من فضلك يا سورين)، دعني أفهم قليلاً قليلاً، أولاً:قل لي ماذا تقصد بالروح الأبدية؟ ماذا يعني ذلك؟

في عام 1800 كانت هناك طريقتين ينظر بها الناس إلى الفرد، إما أن يكون جسدياً أو أن يكون روحياً، مادياً أو روحياً، إنها مفاهيم لها جذور عميقة في التاريخ البشري، فقد كان المفكرون اليونانيون القدامى ينظرون إلى الأشياء في الحياة والعالم على أنها أكثر سحراً، وكانت الآلهة تتحكم في البشر وهي التي تقود الناس كيفما، تريد على سبيل المثال: الإله زيوس،

الإله أبولون، أرتميس وغيرهم من الآلهة القدامى، وقد كانت هذه الآلهة هي السبب في كل شيء هي التي تسبب انتشار الأمراض والأوبئة أوهي التي تتسبب في الشفاء منها، وهي السبب في انتصار الحروب أو خسارتها وهي التي تتحكم بحصاد المزارعين، في الحب، في الجنس والفن وكان الإنسان إما أن يكون محبوباً ومفضلاً لدى الآلهة، أو يكون ضحية أو قرباناً لها، إنه خاضع لتقلبات الآلهة وخياراتها يستمع إليها ومستعد للتضحية بنفسه من أجلها وإن طلب منه أي شيء يهز رأسه فقط موافقاً.

وفي عام (300- و 400 سنة قبل الميلاد) جاء هؤلاء الفلاسفة الكبار أمثال سقراط، أفلاطون، أرسطو وقدموا اقتراحات جديدة وقالوا أن على الإنسان ألاَّ يكون تابعاً للآلهة فقط، وإنما يستطيع أن يبحث هو بنفسه عن المعرفة وقد رأى سقراط أن الإنسان يمكن أن يفهم نفسه بنفسه دون مساعدة الآلهة أما أفلاطون فقد قال أن الإنسان بمساعدة روحه الأبدية يمكن له أن يفهم ذلك الذي نطلق عليه عالم الفكر وقد اقترح أرسطو عندما قال أن الإنسان يستطيع حقاً أن يبحث عن معرفة العالم خارج نفسه.

إن الطبيعة لم تكن مقتصرة على لعبة الآلهة فقط وإنما كان الإنسان يقدر أن يفهم بدونها، بينما تستمر السنون في التقدم ومفهوم الإنسان يتطور إلى موقفين مميزين واضحين وقد تحارب البشر من أجلهما، ومن لديه النظرية الأصح عند البشر هو الذي ينصتون إليه وهما مجموعة الناس الماديين المحتجين الذين يحاولون أن يثبتوا نظريتهم فيقولون نستطيع أن نعرفكم إلى تلك المادية المتطرفة: انظر إلى يدك التي تمسك بالكتاب - إلى أصابع اليد، مفصل اليد الذي هو على استعداد أن يطيع أوامرك وينفذها عندما تريد أن تقلب الصفحة فهو يتحرك ويقلب الصفحة، إن الجسد معجزة عجيبة إنه مبني من بليونات الخلايا التي تعمل معاً عملاً فردياً شخصياً خالصاً لتكوّن ذلك الجسم، إنها عملية كيميائية مُعقدة متناغمة ونبض

كهربائي سريع له نظام منتظم بشكل ذاتي رهيب بحيث يستطيع أن يكيف الجسد ويُغير درجة حرارته ضد البرد ويُحلّل الغذاء ويصفيّه وينظّفه ويزيل الفضلات ويخرجها من الجسد، يُشفي نفسه بنفسه، يُثير الرغبة ويوقظ شوقه إلى الأشياء المهمة في الحياة مثل الطعام، الجنس، الأطفال.

طبقاً لمفهوم الماديين، هذا وصف كامل للإنسان فالإنسان عبارة عن آلة بيولوجية تعمل إلى الحد الأقصى لتعيش مع مهمتها في أن تُكاثر نفسها، إنّ الجسم كأي آلة أخرى تعمل عملها لتنتج في الواقع أشياءها، إنها تقوم بصنع الإحساس عن ذلك الشيء الذي هو «أنا» إن تلك «الـ أنا» يُثيرها ذلك الإحساس فتبدأ تشعر بالضيق وتتكون لديها رغبة لتفهم ما معنى وجودها، إن الجسد حسب منطق الماديين، لا هو طيب، ولا هو شرير وليس لديه أي غرض يستحق البحث عنه وأن كل ما هو موجود وكل ما يراه ويعيشه يمكن تفسير وجوده من قبل عناصر وجسيمات مادية بحتة، ترتبط بقوانين مربوطة بعضها ببعض، هذا هو معنى الوجود للجسد وليس هناك معنى آخر له.

– الـ «أنا تيار خالص من نفاذ البصيرة، موجة قوية من القدرة على الفهم والحدس التي تختفي وتتلاشى عند آخر نبضة قلب يضربها قلبي!»

هذا ما كتبه الفيلسوف دافيد هومة الذي عاش عام «1776– 1711» وبعد 200 سنة من ذلك يصف فرانسيس كريك واحد من أشهر الباحثين في العالم في علم الجينات يشرح ذلك في نفس الفكرة:

«إن تلك النظريات، الفرضيات المُدهشة التي تجعل المرء يندهش ويبتهج إليها هي أنت نفسك، وإنّ تلك الأشياء التي تسعدك وتفرحك أو تحزنك والذكريات وأحلام المستقبل والأحاسيس التي ترغب في أن تكون إنساناً مُميزاً وإرادتك الحرة، كل تلك هي في الحقيقة لا شيء،بل هي عبارة عن تصرفات تدخل ضمن الشبكة الواسعة الممتدة من خلايا الأعصاب في جسدك».

أما من الناحية الأخرى فهناك مجموعة المدافعين عن الروح،

الثنائيين، ووفقاً لوجهة نظر هذه المجموعة إنهم يقفون على جزأين: الجزء الأول هو المادة والتي تتمثل باليد التي تمسك بالكتاب، والجزء الثاني هو الروح /الوعي- والذي يتمثل في ذلك الجزء الذي قرر أن يقرأ هذا الكتاب والذي يقدر أن ينظر إلى اليد ويطلق عليها:

- إنها يدي أنا- نحن لدينا جسد ولدينا روح وهما مختلفان تماماً عن بعضهما البعض، من بين هؤلاء المتطرفين، عشاق الروح نجد منهم عالم الأديان المسيحي أوجستينوس الذي يرى أن الروح خالدة لا تموت، وأن الأشخاص الطيبون بعد الموت سينالون مكافأتهم في العالم الإلهي، إن تلك المادة أي الجسم مع سوائله وأبخرته هو فانٍ لذا يجب ترويضه والسيطرة عليه وبعد الموت نتغلب عليه ونشعر بالراحة ليدفن تحت التراب، وقد كتب أحدهم يقول:

«- أنت قادم من التراب وإلى التراب ستعود!»

إن البوذيين يمكن أن نعتبرهم أيضاً كهؤلاء الأشخاص، فهم يأخذون بعين الاعتبار الموت ويتمرنون ويتخيلون أنفسهم على أنهم أموات وذلك ليفهموا أن كل شيء غير الأنا البوذية هو زائل، هناك أيضاً الفيلسوف ديكارت الذي عاش الفترة (1596- 1650) الذي أعلن على الملأ «مجموعة الأنا هي مسكن مؤقت» وصاحب المقولة الشهيرة «أنا أفكر إذاً أنا موجود».

عندما ولد سورين كيركيجارد كانت المادة تُسيطر على الحياة في ذلك الحين وكانت العلوم الطبيعية تُهيمن بصورة كبيرة على تفكير العلماء والناس وكانت التقنية الهندسية والاختراعات الجديدة جميعها في طريقها للنجاح والاشتهار، وكان اهتمام الإنسان في تلك الفترة هو في المادة وكيفية تحقيق النجاح والعمل على صناعتها مُسيطراً بصورة كبيرة، ولكن من ناحية أخرى ظلّت الكنيسة متمسكة بقوة بالموقف الديني المثالي وتحاول إنقاذ روح الإنسان من الماديات كي لا تموت.

لقد كان سورين لا يستطيع أن يتخذ موقفاً ولا يرغب في أن ينحاز إلى أحد هؤلاء، وقد كان مدركاً بأنّ تلك التقسيمات هي هدّامة وغير جيدة وأن الصراع بين هؤلاء الاثنين هو صراع سلبي يدينهم أنفسهم، وبغض النظر عن الأفكار أو المطالب التي يدعون إليها فإنها ستعطي نفس نتيجة تأثير الفعل ونفس القوة، يقصد سورين أنّ المرء في تلك الحال سينكر جزءاً من نفسه، أي إذا كان مع الماديين فهو سيتجاهل نفسه ويهملها ولا يرى احتياجاته الجوّانية وسيغض النظر عن الجذور العميقة لمعنى الحياة الراسخة في داخله، وإذا اتخذ موقف المثاليين سيتجاهل الجسد واحتياجاته وبهذا سيغض النظر عن متعته ولذته وألمه وهكذا تصبح النتيجة من وجهة نظر سورين هي نفسها والشخص في كلا الحالتين ينتقص من نفسه.

– لقد لاحظ سورين ذلك وقال:

– كلا، إن الإنسان لا هذا ولا ذاك، لا مادي فقط ولا روحي فقط، وإنما هو روح وجسد واحد، الإنسان هو من كلا الاثنين روح وجسد!

وهكذا فقد ربط سورين نفسه وانضم إلى مجموعة جديدة اسمها: (هولي سترنا) وقد تأمل سورين نفسه طويلاً، وطالب الناس أن ينظروا إلى أنفسهم على أنها كلٌ واحد متكامل من روح وجسد معاً، وأن أحاسيس الإنسان ومشاعره التي يعيشها هي منه وتجاربه، تصرفاته، أوجاعه، معاناته، أفكاره، جسده عضلاته، دماغه، اشتياقه وحنينه كلها منه وعندما تغمره النشوة هي عبارة عن ابتهاجه هو وعندما يحزن فهي أحزانه هو وأساه، هو جميع هذه الأشياء كلها مرتبطة بعضها ببعض، ولا يمكن تقسيمها إلى جسد لوحده أو روح لوحدها إن الإنسان عبارة عن فرد واحد كلٌ لا يتجزأ من روح وجسد واحد.

روح جسد / جسد روح

في مناقشة أخرى سورين يحاول فيها شرح وتفسير ماذا يعني بالروح والجسد، أرجو أن تكوني معي الآن كي نفهم ماذا كان يقصد سورين بكلامه ذاك:

إن الإنسان هو عبارة عن روح ولكن ما معنى روح؟ ما هي الروح؟ الروح هي النفس، ولكن ما هي النفس؟ النفس هي تلك العلاقة المرتبطة مع نفس الشخص ذاته، أي بمعنى آخر هي العلاقة التي تتصل بالنفس بذاتها، وهي في واقع الأمر ليس لها علاقة ولا تتصل إلا مع ذاتها، هي العلاقة المرتبطة مع النفس فقط، إن النفس هي الأنا، الذات - الأنا التي لا تُمسك باليد المجردة، فهي ليست مادة ملموسة ولكن هي العلاقة التي تربط نفسها بنفسها، هي مرتبطة بأن تمسك ذاتها لها فقط، وهكذا فهي ليست مرتبطة لتمسك بشيء آخر سوى مع الأنا، وهي ملتزمة مع نفسها، وليس لها أي التزام آخر سوى مع نفسها فقط.

لنأخذ نفساً عميقاً ونكمل حديثنا:

إن الإنسان مكوّن من تركيب محدود ولا محدود، نهائي ولا نهائي، محكوم بزمنية معينة وأيضاً مفتوح على الأبدية بصورة دائمة، حر وفي الوقت نفسه مقيد باحتياجات ضرورية وهامة، والتي لا يمكن له الاستغناء

عنها، باختصار شديد إن الإنسان هو مركب من عدة أشياء، هو عبارة عن مجموعة أشياء.

إن من الصعب أن يفهم المرء ماذا يريد أن يصل إليه سورين وهذا لا يعود إلى طريقة كتاباته المرهقة فقط وإنما أكثر الأسباب ربما تعود بالمقام الأول إلى أننا نحن مقتنعين بالفكر الديكارتي ومقولته الشهيرة: «أنا أفكر إذاً أنا موجود» كما أننا منذ عشرات بل مئات السنين معتادون إلى تقسيم الأشياء إلى قائمة من مفهوم الأضداد، على سبيل المثال: أشعر بالحر أو البرد أنا جوعان أو أنا شبعان.. إلخ، وإلى الآن نحن لا نزال نعيش بمفهوم أن الجسد يأتيه بالمقابل الروح وعلى سبيل المثال الباحث العلمي يقابله في المقابل الكاهن أو رجل الدين، طبيب جراح يقابله دكتور نفسي، وهكذا لقد أصبح من الصعب علينا إزالة أو مسح تلك الحدود التي وضعت لنا منذ مئات السنين، لكن دعونا نحاول، دعونا نفكر بأننا روح واحدة في جسد واحد، روح واحدة بجهاز ضخم له عدة أعضاء متعددة الوظائف، القلب، الكبد، المعدة، الرئتان وغيرها كل تلك الأعضاء التي تشكل جسداً واحداً كبيراً مهمته الرئيسية هو أن يكون موجوداً.

إن كل الذي لدينا وجميع الأشياء التي ولدت معنا وكل الذي تعلمناه طوال طريق حياتنا وكل تلك القدرات والمهارات التي نستخدمها لنفسنا وروحنا، الروح تتفاعل معها وتعيشها (تماماً كالدواء عندما تتناوله ثم بعد فترة يتفاعل ويظهر مفعوله على الجسم) من السهل أن نكتشف كيف تعمل الروح هناك طريقة عملية فيزيائية على سبيل المثال: اجلس بطريقة غير مريحة فقط وانظر بعد لحظات كيف تقوم تلقائياً بتعديل جسدك لتجلس بطريقة صحيحة كي تشعر براحة أكثر، إنها الأنا بشكل إجمالي، الأنا الخاصة بك هي التي تقوم بتوازن جسدك وتوازن نفسها، إنك أنت بنفسك الذي يقوم بتنظيم وترتيب كل هذه الأشياء، إذا كنت عطشاناً، الروح تناديك

لتفتح الحنفية وتشرب الماء، إذا كنت نعساناً تناديك الروح لتذهب إلى السرير وتنام.

إن فكرة سورين الثورية ليست مقتصرة على توازن أعمال ونشاطات الجسد فقط وإنما تشمل كل ما هو لك وكل ما تتعامل معه، إن الروح لا تجعلك تبني عضلاتك فقط وإنما يمكن في الوقت نفسه أن تُثير رغبتك وتحفزك على الاهتمام بالدراسات والأبحاث والتجارب العلمية، وهي أيضاً توقظ اهتمامك لتسأل نفسك ألم يحين الوقت لتطلق العنان لنفسك؟ وهي التي توحي لك وتلهمك لتطور داخلك وتصعد القيم الروحية الخاصة بك، بالإضافة إلى ذلك إن كلمة روحانية هي لفظة ليست دقيقة تماماً لأن الروح هي أنت وأنت هو جزء لا يتجزأ من تلك الروح، لنشرح ذلك بشكل أبسط، إن الأنا أطلقتُ عليها اسم أنا، إنها مجرد جزء من مجموع الوجود الإنساني، لقد أظهرت ذلك أبحاث اليوم العلمية، الأنا هي جزء من ذاتي أنا، أستطيع أن أفهم من ذلك كله أن ذلك الجزء هو مني أنا والذي هو أنا، في الواقع إن معظم ذلك يدخل ضمن الملكية الشخصية والتي هي ما يخصني أنا كذات والتي تعود إلى وعيي وإدراكي أنا، إن ذلك يكمن وراء إرادتي وعزيمتي أنا، إن معظم ذلك موجود من وجودي نفسه، إنها ليست سوى موجودة، تماماً مثلما يعمل القلب إذا ركض الإنسان تسرع نبضاته ويبدأ يضرب بقوة وعندما يكون مستلقياً، مستريحاً يكون خافتاً ويضرب بهدوء، كل شيء يمكن أن يفعل دون أن تفعل الأنا شيئاً حياله، بمعنى إن الأنا ليس لها سيطرة على نظام الجسم مثل القلب لكنها موجودة، وهناك جزء مني أنا دون أن أفعل له شيئاً، أسرعها أو أبطئها، لا يستطيع الإنسان أن يشغلها أو يسيطر عليها، لكنها موجودة وهي جزء منه.

إنّ الإنسان معظم الوقت لا يفكر ولا حتى يخطر على باله أو يلاحظ كيف يضخّ الدم في شرايينه لكنّه أحياناً وعندما يجهد نفسه يعترف بأنه

يستطيع أن يفهم كيف يضخ الدم في عروقه، وكيف يبدأ نبض القلب ينبض بشدة، إن معظم الأشياء فينا تعمل بنفس الطريقة، تعمل بعيداً عن سيطرتنا بالطبع هذا لا يشمل الأشياء التي نسيطر نحن عليها، إن الأحاسيس تأتي وتذهب وتفعل فعلها وتذهلنا، نحن نكره أو نحب دون أن نعرف لماذا؟ وشكراً ويا لحظ المرء على حدود الأنا، يقصد الباحثون، لولا حدود الأنا كيف سيكون وضعنا؟ كيف سيكون حال الإنسان إذا ظلّ يراقب طوال الوقت كل الذي يحدث داخل جسده؟.. فكر قليلاً أنت بنفسك، إذا استطعنا أن نكون واعيين ونتحكم بحرارة الجسد ويمكن لنا أن نرفع حرارته أو نخفضها؟ ماذا لو نستطيع أن نعرف جميع اللغات ونترجم كل الكلمات إلى كل اللغات من ذاتنا وحدنا؟ ماذا لو نستطيع أن نقود خلايا الدماغ وننظر إلى الأفكار وكيف تجري في رؤوسنا؟ ماذا لو نستطيع أن نتحكم في جهاز المناعة بالجسم؟ وهكذا لو فكرنا بكل هذا كل مرة وخلال 24 ساعة باليوم، وعاماً بعد عام سوف لن يكون لدينا الوقت إطلاقاً لنهتم ببعضنا البعض وببساطة شديدة سوف لن نلحق أن نحيا حياتنا أصلاً.

إن الروح لديها المقدرة على أن تضم وتشمل كل ذلك بنفسها وحدها، تلك هي الروح كما اعتقد سورين، إنها تستوعب وتحدد للأنا حدودها دون أن تجعلها تلاحظ ذلك، إن الروح هي التي تشارك في عمليات نظام الجسم بأكملها لكنها ليست مجرد عضو فعال لخدمة الجسد لتجعل نظامه يسير بشكل جيد فقط أو تقوم بتصليحه أو تلين كل شيء فيه إن الروح حسب وجهة نظر سورين لها أهدافها أيضاً، فهي ترغب في أن تطور مقدرتها وقدراتها كي تصل إلى أقصى حد يمكن أن تصل إليه وتكون ذلك الذي يمكن أن تكونه وحسب إمكانياتها وأوضاعها بحيث لا تخضع لشروط معينة أو خاصة، لذلك فهي لا تدفع باليدين أو بالأرجل فقط لتصل إلى طولها النهائي بل تدفع أيضاً بباقي أجزاء الجسم الأخرى لتصل إلى طولها

النهائي، إذا كانت الأنا مُصغية جيداً تستطيع أن تستوعب إرادة الروح، كرغبة أو فضول غير متوقع أو كشيء جديد يرتفع ويصعد داخلها، أي بمعنى أنَّ الأنا تستطيع أن تُصغي إلى طلباتها وتستمع إلى الروح عندما يرغب فضولها أو حنينها لطلب شيء ما، تماماً كالموج عندما يتصاعد في البحر يصعد الشوق إلى داخل الروح، كالموسيقى على سبيل المثال عندما تأتيك رغبة مفاجئة لسماع الموسيقى فتذهب لسماعها، كذلك لو أضفنا قليلاً من الملح إلى الطعام يصبح طعمه ألذّ، تأتيك رغبة كبيرة للدراسة أو تتوقف لا ترغب في إكمال دراستك، يأتيك حنين وشوق للسفر أو تأتيك رغبة تتوقف فيها عن الترحال، تنجب أطفال، لا ترغب في المزيد من الأطفال، الرياضيات، تصبح لديك رغبة في أن تعرف أكثر عن الرياضيات، عندما يعمل كل شيء كما تريد الروح، أن يعمل تعيش الروح وأدوات الحياة -الأنا- بانسجام كامل، إن الروح تكرّس وقتها بالكامل للجسد بينما الأنا تعمل مع الأشياء الخارجية الأخرى وتتأثر بالواقع الخارجي الذي من حولها، تصرفات الأنا والأفعال التي تقبلها وتقوم بها تعطي الروح الإلهام وتحفزها لإمكانيات فرص جديدة، تضع الروح الأنا تحت المراقبة وتقوم بمُلاحظة طموحاتها لتساعد بالحفاظ على توازنها الأمر الذي يؤدي بها إلى البحث وطلب المزيد من التطور.

لو تفهم الأنا فقط وتُدمج نفسها تحت التسلسل الهرمي يصبح كل شيء معها طيب وجيد، هذا ما يعتقده سورين ولكن للأسف إنَّ الأنا لديها قابلية محببة لنفسها وهي التي تجعلها أحياناً لا تستطيع التحكم بآرائها وتوافق على أن تنقاد وراء آراء ووجهات نظر الآخرين وتتخيل نفسها بأنها مسيطرة بشكل كامل على نفسها وتعتقد بأنها تستطيع أن تُدبر أمورها دون تلك الروح النّاقة التي تُلحّ عليها دائماً وتأتيها باقتراحات وخطط جديدة طوال الوقت، إن الروح تعتقد أنها في حال جيدة وأنها ليست بحاجة

إلى نصائح خاصة بها أو تنبع من داخلها هي، وهكذا تتوقف الروح عن الاستماع إلى داخلها، وفي الوقت نفسه تبعد نفسها عن نفسها وهكذا تفقد الاتصال بالكامل وتجازف، إن تَعلق وتتجمد في هذه المرحلة عندها يقبض اليأس والفراغ عليها، في هذه الحال تعمل الروح كل شيء وتصرخ بأعلى صوتها بكل الأساليب والطرق وتنادي كي تُثير الانتباه وتجذب اهتمامها إلى الداخل، إلى نفسها، بيتها الجوّاني.

حتى هذه اللحظة قضى الإنسان وقته بشكل كامل للحواس ومعرفة الأحاسيس واكتشافها وكرّس نفسه للماديات والمتعة، جرب مذاقات الطعام وعرف حاسة التذوق، أصبحت لديه المقدرة على الإحساس بالنظر أو السمع وكذلك حاسة الشم عملت عملها أيضاً، وهكذا سيطر على الإنسان الجزء الخارجي وأصبح مهيمناً عليه تماماً بينما بقي الجزء الجوّاني يتحرق شوقاً إلى معرفة ما هو ذلك الذي أطلق عليه سورين كيركيجارد احتياجات الروح تلك التي رُكنتْ على جنب وتم تجاهلها، إن الجسد شبعان لكن الروح تم تجويعها وهي في حالة عدم توازن، الآن بدأت الروح تنادي نفسها إنها تصرخ على ذاتها كي تعطيها اهتمام، هنا يجب أن تفهم الذات أن عليها أن تتغير وإلا سيصبح جميع نظام الجسد مُعطل.

حسناً، يستطيع أن يتصور المرء أن شخصية «أ» الحسية في كتاب سورين «إما أو» كان يتمتم عندما واجه نفسه أمام احتياجات الروح، هكذا إذاً، تريد أن أتخلى الآن عن كل شيء، أن أهجر كل ما توصلت إليه حتى الآن وأصبح زاهداً متقشفاً وأغيب عن الحياة والعالم؟ أو كما القديس الإيطالي فرانسيكوس الذي قال للرب:

– ما المطلوب مني؟ هل أترك كل شيء أملكه وأخلع ملابسي كلها وأركض عارياً تماماً في الحديقة وأعبد عملية الخلق هذه؟ أي عمل يتطلب تحقيقه؟

- كلا! تحتج الروح:

- كلا، كلا، كلا، قلت لك أنا لا أنسجم ولا يطيب لي أن أكون مُلزمة لطرف واحد، أنا لا أرتاح أن تجري الأمور من جانب واحد، على شكل واحد!. إن الذي يعطي الطاقة للروح يخلق أيضاً عدم توازن، بل يمكن القول أيضاً إنه شكل من أشكال الحسّية الروحية، إن المادي الروحي يعيش حرمان إنسانيته فهو ينكر جسَده ويحرمه من احتياجاته المادية الدنيوية ويحرم نفسه من أكبر مُثل عليا لديه، إنه يختار الروحية ويقدمها على المادية، وحتى هؤلاء الماديين الروحيين سوف يعانون من الإشباع واليأس لأن الروح تطلب مشاركة الجسد لها ومزيداً من الاهتمام.

هل ترون الهنود الزاهدين أمامكم؟ إنهم رقيقي القوام، خفيفين، مجردين من الملابس، يجلسون عراة لساعات وأيام طويلة في أوضاع غير مريحة وذلك للوصول إلى السكينة «النيرفانا» إنهم أحادي الجانب متخذين جانباً واحداً في حياتهم، كان سورين سيقول وهو يهز برأسه:

- لا! إن الشخص الذي يرغب في أن يبحث عن معنى حياته ينبغي عليه أن يُصبح صديقاً لروحه وجسده، أن يصبح جزءاً واحداً لا يتجزّأ من الاثنين، أن يتوّحد جسده وروحه معاً، إذا لم يكن هناك توازنٌ بينهما، لا يوجد هناك معنى للحياة، كان يعتقد سورين.

إن موضوع الموت بالنسبة لسورين يُشكّل هاجساً كبيراً وهو الذي يدفع به للدخول في حالة اليأس والقنوط وأن أول صدمة له في الموت عندما توّفي خمسة من إخوته بما فيهم أخته المُحببة والقريبة إلى قلبه بترا سفرين وبعدها مباشرة موت أمه آنّا ثم بعد مرور سنة مات والده العجوز ميشيل بيدرسن، الآن يسكن سورين مع أخيه الكبير بيتر كرستيان لوحدهما في نفس الشقة نيتورف 2 التي كانت ذات يوم مليئة بأفراد عائلتهما لذا

ليس غريباً أن يبدأ سورين يتساءل مبكراً ويبحث عن معنى الحياة، وليس غريباً أن يتأمل ويفكر في حياته المادية:

- إننا نعمل ونموت! هل هذا كل شيء؟!

كان يسأل نفسه لقد كان سورين على عجلة من أمره يتساءل ليعرف، إذا كان كل أولئك الأطفال ماتوا قبل أن يصل عمرهم إلى سن 33عاماً، لماذا لا يموت هو أيضاً؟ لذلك كان ينبغي عليه أن يلحق ليفهم قبل أن يضيع الوقت، بالإضافة إلى ذلك كانت دراسته العميقة المركزة لفلسفة سقراط جعلته يتأمل الواقع ليس كجواب بل كخطٍّ طويل من الأسئلة:

- ما هو الإنسان؟ ما معنى أن تكون حقيقياً، إنساناً أصلياً غير مُزيف؟ ما معنى أن تعيش حياةً سعيدة؟ وعندما بدأ يبحث عن معنى الحياة على طريقة سقراط كان يراقب مدينة كوبنهايكن مسقط رأسه بحنوٍ كبيرٍ وكان يصاب بالذّعر عندما يتأمل الكون وكيف يعمل بنظام كامل متناغم:

- إن الناس ميتون، متحجرون، يكتب سورين، إنهم عبارة عن نموذج واحد مصبوب من نفس القالب، لديهم نفس الآراء، نفس وجهات النظر، يعيشون نفس الحياة تماماً، إنهم عبارة عن أفواج غفيرة من البشر ليس لديهم هوية خاصة بهم، كل شيء مخطط بدقة شديدة، يبدأ الفرد يحب ويعشق في سن العشرين، ينام كل يوم الساعة العاشرة، يتزوج، ويعيش حياة عائلية، يشغل مكانة ما في المجتمع، ينجب أطفالاً في حين أنهم ميتين مسبقاً، أفكارهم تكون هشة وقد يتمزقون في أي وقت. يكتب سورين عن سكان المدينة ويشرح وكمثل جميع الشباب الصغار يسأل في كل الأوقات نفسه:

- **كيف لي أن أتجنب أن أكون واحداً من هؤلاء؟!**

لقد استغرق بعض الوقت قبل أن يستوعب سورين أن ذلك الذي

يعاني منه ليس مرض اكتئاب وإنما هو يأس وقنوط من الوجود، خلف كل تأملات الذات ووساوسها هناك صوت يناديه يجذبه إليه يريد منه شيئاً، إنّه الصوت الذي أطلق عليه سورين صوت الروح، وعندما ينصت إليه بدقة يسمعه يطالبه بأنين، هو بحثه في ذلك العالم الخارجي السطحي وبدلاً من ذلك يغير مجرى بحثه وينقلب عائداً إلى داخله، ليبحث عن مركز نقطته الجوّانية عليه أن يذهب باتجاه نفسه، باتجاه الأبدية الخالدة.

لكن سورين بدا له ذلك وكأنها كليشيهات تقريباً، أن يسمع إلى صوته الجوّاني، هذا يعني أنه لا يستطيع أن يتخيل نحن بشر سنة 2000 نقطة الانطلاق هذه، وأسأل: كيف لي أن أعرف أن ذلك الصوت هو صوت روحي أنا؟ وكيف لي أن أتأكد أن تلك الروح تعرف ما هو الأفضل لي؟ هل هو صوت بيولوجي خالص، غريزة البقاء على قيد الحياة، أم أنه وسيط ليوصل إلى حقيقة أعلى، نوع من روح الله؟

هذا يا صديقتي العزيزة ما يقوله سورين ولكن لم يحن الوقت بعد لنناقش ذلك، دعونا في هذه اللحظة نتحدث بشكل مؤقت عن تلك الحالة التي يشعر بها المرء بأنه غير مرتاح وأن هناك شيئاً غير صحيح في داخله يكشط في نفسه وهذا يكفي.

المرحلة الثانية

الجوّانية

«الجوّاني هو أن تكون حاضراً
مع نفسك، أن تكون مخلصاً لها»

- إما أو-

الخطوة الرابعة!

أن تكون جوّانياً

أن يشعر المرء بعدم ارتياح في حياته الخاصة ويشعر بأن هناك إحساساً داخلياً يُثير لديه إحساس الانزعاج إحساس غير مقبول ويُدرك بأنه يجب القيام بشيء ما ليزيح ذلك الإحساس المقيت، لكنه في الوقت نفسه يرغب في أن يتشبث أكثر في وضعه ذاك الذي هو فيه ويتشبث أيضاً بما يمتلك، وهذا ما يربك ويشوّش فكره فيشعر المرء بأنه مضطرباً، متوتراً قلقاً وأن وقته يمضي ولا يفعل شيئاً ويتمنى لو أن شيئاً ما يحدث ويتغير وضعه من تلقاء نفسه لكن لا شيء يتغير وإحساسه بالقلق والحيرة باقٍ لا يتغير:

- ماذا أفعل يا سورين؟

- هناك طريق واحدة فقط! يقول سورين، أن تكون في وضع راض مع نفسك وهذا لا يتم إلا عبر داخلك أنت فقط!

- عبر داخلي؟

- نعم، أنت وحدك فقط، أنت الوحيد القادر على معرفة ما الذي ينقص روحك، لا أنا ولا غيري ولا أحد يستطيع أن يتعرف إلى ما هو صحيح لك وما هو غير صحيح، أنت الوحيد الذي يمكنه أن يعرف ما هو الحقيقي بالنسبة إليه!.

- حقيقي؟!

- نعم! هكذا يقول سورين، وهكذا يكتب، وهكذا يقصد:

- حتى تخرج من ذلك الفراغ ينبغي عليك أن تبحث عن تفسيراتك للواقع الذي تعيشه، أن تجد توضيحك أنت للحقيقة الخاصة بك.

- ولكن ماذا تقصد يا سورين؟ كيف أجد لنفسي الحقيقة ألم نتفق جميعاً على حقيقة واحدة؟ ألا ينبغي علينا أن نتوحّد في رأي واحد عن الحقيقة؟ هل أستطيع أن أملك أنا حقيقة ما عن الواقع، حقيقة تخصني أنا لوحدي؟

- نعم بالطبع، أنت قادر على أن تحصل على طبعتك الخاصة، نسختك الخاصة بك.

- لا، دعونا نأخذ خطوة بعد خطوة.

هناك أنواع مختلفة من الحقائق يقصد سورين، هناك حقائق حول المفاهيم العلمية إنها حقائق تمت دراستها واختبارها ويمكن تكرارها وإعادتها من قبل عدة أشخاص في فرص مختلفة وأمكنة وأزمنة مختلفة دون أن تتغير نتائجها أو تتبدل حقيقتها، أن تضع الماء في درجة باردة تحت الصفر يصبح بالتأكيد متجمداً، وإذا وضعته فوق درجة حرارة عالية فهو يبدأ بالغليان والتبخر هذه حقيقة علمية لا يمكن الاختلاف عليها ولا يمكن لأحد أن ينكرها أو يتساءل حولها، هل هي صحيحة أم لا؟ يمكنك أن تجرب ذلك بنفسك في بيتك في المطبخ ستجد أن الماء يعمل هكذا. لكن - يكتب سورين- إن ذلك العلم الذي نجحنا في أن نثبته يُشكل جزءاً صغيراً جداً من ذلك الذي نُسميه واقعاً، لكن الأشياء الأخرى كالأخلاقيات، المبادئ، المعنويات، الأذواق، القيم، والنظرة إلى الحياة، الدين، السياسة، وكل ذلك وغيره نستطيع أن نحسه فقط ونعرفه ونكون على دراية وعلم به، وإما أن نكّون آراء ووجهات نظر حوله أو نؤمن به أو لا نؤمن، لنأخذ مثالاً بسيطاً:

هل اللون الأحمر جميل أم قبيح؟ هل من الأفضل أن يكون لديك كلباً أم لا؟ هل من الأفضل أن يأكل المرء اللحم أم يكون نباتياً؟ هنا وفي هذه الحال لا توجد حقيقة مطلقة، إنها مجرد آراء، وجهات نظر فقط، لننظر إلى الشيء الأصعب لننظر إلى وعيك الخاص، أنت تعرف أن لديك وعياً خاصاً بك وأنت إنسان واعٍ ولكن ما معنى هذا؟ ماذا يعني وعي؟ لا أحد يستطيع أن يجيب، إن العلماء والباحثين الكبار يتوقفون عند هذا السؤال لكنهم يستطيعون أن يجيبونك على أسئلة علمية ويمكنهم حساب المسافة بين النجوم والكواكب الأخرى ويمكنهم أن يجرون عمليات جراحية بالمنظار ويبنون كومبيوترات معقدة ويُجهّزونها بأحدث الأجهزة المُتطورة لكنهم إلى الآن لا يعرفون ماذا يعني وعي، وهكذا هي الأسئلة الأبدية: هل الحياة لا معنى لها -أم أنها مليئة بالمعاني؟ هل هناك شيء أسمه الله- أم لا وجود له؟ ماذا سيحدث لنا بعد الموت؟ إن جميع تلك الأسئلة سواء كانت سهلة أم صعبة ليس لها جواب قاطع، ليس لها دليل قاطع يقصد سورين هنا يكون جوابك أنت الخاص بك يصبح له نفس القيمة والقدر لجواب أي شخص آخر، إن رأي فنان ما أو وجهة نظر شخص ما حول اللون الأحمر تختلف عند رجل العلم ومفهومه حول الوعي والإدراك، الكاهن، رجل الدين حول معتقداته وإيمانه بالله، كل أفكار هؤلاء ليس لها أي قيمة أمام أفكارك أنت الخاصة بك، إن مفهومك ووجهة نظرك هي التي تُشكل الحقيقة بالنسبة لك، إنها حقائقك أنت الذاتية وهي غير قابلة للبرهان، إن المرء يقولها في حالة شجاعة وغضب وكأنه يطلب الإغاثة ليتحرر منها وفي رأيه أن لديه الحق للحقيقة، إن ذلك الذي لا يقدر أن يثبته بالبراهين يقولها بهذه الطريقة وهو يشجع نفسه ويواسيها، إن ذلك الشاب الصغير غريب الأطوار الذي عارض عائلته والجامعة والكنيسة وخرج في رحلته الخاصة يفتش عن معنى الحياة:

- هلو، أنت يا سورين! يخاطب سورين نفسه، بغض النظر عما يفكر به الآخرون، يحق لك أن تسأل، ويحق لك أن تجيب، لا يمكن لك أن تتغاضى عن حقيقة كونك إنساناً موجوداً في هذه الحياة وهذا يعطيك الحق لتعبر عن رأيك الخاص بك.

كثيراً ما ندّعي بأننا نعرف حقائق الأشياء ولدينا المعرفة الكاملة لها لكنها معلومات ثانوية لم تصل إلينا مباشرة بل إنها آراء انتقلت إلينا من ناس إلى ناس، لدينا معلومات كثيرة ونعرف آراء ووجهات نظر أكثر من اللازم، يقول سورين، فكر فقط في كل شيء قلته، فكر في كل تلك المعلومات المزعومة التي كنت قد أقرّيت بها اليوم، ما مدى معرفتك بالمعنى الحقيقي لتلك الكلمات؟ هل أنت تعرفها حقاً، أم أنك غير متأكد منها؟ هل كنت حاضراً عند حدوثها أم أنها حقيقة مؤكدة وقد أُثبت برهانها سابقاً؟ أم أنك من ذوي الخبرات الخاصة، وتساءلت وحدك بحثت وصفيتها بشكل دقيق من خلال ذاتك الخاصة وتوصلت إلى ما توصل إليه الآخرون في وقت لاحق ووصلت إلى موقف متوازن للحقيقة الحاضرة الآن؟

«فكر!» يكتب سورين في كتابه «إما أو» «فكر فيما لو كان كل شيء في حقيقة الأمر هو مجرد سوء فهم، فكر فيما لو كان الضحك في حقيقة الأمر هو بكاء»!

نحن البشر كالببغاوات نُكرّر دائماً ونردّد الكلام دون تفكير، إنها آراء واعتقادات سطحية غير ضارة نسبياً على سبيل المثال قد يُشكل خطورة على الإنسان إذا تناول الطعام ومارس رياضة السباحة، وأن القراد تلك الحشرات الصغيرة يصعب إزالتها لأنها تحفر داخل الجلد وتعيش تحته وأن أنشتاين أثبت بنظريته تلك بأن كل شيء نسبي، إن ذلك غير صحيح، لكنه لا يلحق الضرر في حياتنا اليومية عندما نكرره ونعيده مرة تلو الأخرى إن ذلك لا يؤثر كثيراً بشيء لكن الأسوأ من ذلك هي تلك الأفكار الموروثة

المُتفجرة بسرعة التي يمكن لها أن تُسمم العلاقات بين الشعوب وبين الدول، كنت استقل سيارة أجرة، قال السائق لي بصورة قرار قاطع وكأنه متأكد من صحة كلامه بأن الرئيس بوش هو الذي أمر بنفسه وطالب بالهجوم على البرجين العالميين في 11 سبتمبر وذلك ليحصل على سبب ليبدأ حربه المقدسة ضد الإسلام، وأجدادي المسيحيين المتعصبين الصارمين، كانوا مقتنعين تماماً بأني سأذهب إلى الجحيم ومصيري النار وذلك لأني لم أُعمَّد في حياتي أبداً.

إن كل عائلة لديها معتقداتها، وافتراضاتها وتخميناتها الجماعية، إن كل مجموعة تعمل عملاً ما في مكان ما أو كل متدينين أو الذين ينتمون إلى حزب ما، وكل بلد لديها معتقداتها الخاصة بها وبمساعدة تلك الجماعات إما أن تتحالف مع بعضها البعض أو تبني حولها أسواراً كي تبعد الآخرين عنها بعيداً، نحن ضد هؤلاء الآخرين أفكارهم تتعارض وأفكار الآخرين هؤلاء أفكارهم مبنية على الهواء، لكن ومع ذلك فهذا ليس هو الأسوأ يقصد سورين، إن المُقلق والمُخيف حقاً هو أننا نستخدم تلك الحقائق المستعارة كي نتجنب اللقاء مع أنفسنا فبمساعدة ذلك ننشئ جداراً أو حاجزاً كبيراً حول الأنا وذاتنا الجوّانية مما يبعدنا عن فهم وجودنا الحقيقي حتى يصل بنا الأمر في النهاية إلى أننا لم نعد نعرف من نحن.

إن مواجهة المرء لنفسه والحقيقة الخاصة به تكمن وراء مفاهيمه ومفاهيم الآخرين وهذه هي المهمة الرئيسية في المرحلة الجوّانية يعتقد سورين، وهكذا حتى الآن إن كل الذي وصل إليه المرء والذي يعيش فيه هو قادم بتوجيه ورقابة من حوار مُكثف مع العالم الخارجي أي إن كل الذي كنت تعيشه هو سيطرة وتحكّم من الخارج، إن الأشياء الخارجية هي التي توجهك لكن الآن ترغب الروح في أن تبدل منظورك، تريد أن تغير وجهة نظرك وتدع الداخل هو الذي يقودك لكن هناك شرط أساسي لتتمكن من

فعل ذلك هو أن عليك أن تقبل بنفسك توافق عليها، وأن تكون واثقاً تماماً بكل ما يمكن أن يكون من وجودك ككيان، أنت موجود، إذاً ادرس الآن وتفحص ما هو ذلك الذي هو أنت؟ ماذا تكون تلك الأنا والروح؟ اقبل بنفسك كما هي حقيقتها، «اعرف نفسك» كما هو في بيت الفلسفة لسورين، كما اعتاد سقراط أن يقول ذلك.

إن الخطوة الأولى هي أن تترك اليأس والقنوط بعيداً - يقصد سورين- وأن تقتنع بكل الأحاسيس التي لديك، أن تتقبل ذلك الشعور بالفراغ الذي ينتابك، أن ترضى بأحاسيسك الأخرى تلك التي تخريش داخلك وتجعلك تشعر بالانزعاج وعدم الرضا، إنها حقيقتك أنت، مهما كانت تصرفاتك الخارجية وبغض النظر عن كيف تبدو في الواقع الخارجي لكنها حقيقتك أنت وينبغي عليك أن تتقبلها وترضى بها وإذا كنت لا تشعر بالرضا وذلك لأنك قد تكون بعيداً عن قيمك الخاصة كونك تعيش حسب أعراف وتقاليد واتفاقات غير راضٍ أنت عنها، إذا كنت تشعر بالخواء ينبغي أن تعترف بذلك لنفسك أيضاً، وإذا كنت تشعر بالإحباط، الحزن، مُثبط العزيمة، مُخيب الآمال، اقتنع بمشاعرك واقبلها وإذا كنت سعيداً، كن سعيداً فقط، لقد أطلق سورين على تلك الحالة وأسماها «أوتَنتيسك» أي بمعنى «الأصلي» وقال:

«لتكون أصلياً ولتجد نفسك حيث هي ابدأ من هناك - » أن الأصلي هو ذلك الصوت الروحي الوحيد الذي يناديك ويطلب منك أن تكون «أوتنتسيك» - وحسب وجهة نظر سورين أن تكون «أصلي» هي ليست تعليم أو شهادة تحصل عليها ولا هي عمل تقوم به ولا هي هواية قد تُشكل لك معنىً كبيراً في حياتك، ولا هي دور تقوم به لتكوين عائلة، ولا هي مسألة إنجاب أطفال، هي أهم مهمة يقوم بها الإنسان على وجه الأرض ولادة الأطفال وتربيتهم ورعايتهم بل هي مهمتك أنت، مهمة أن تكون أنت نفسك فقط.

أن تكون نفسك أنت إن ذلك يتطلب شجاعة كبيرة ويتطلب وقتاً طويلاً ويقتضي منك أن تكون صادقاً، صريحاً، ويتطلب أيضاً أن تكون ذا إرادة قوية، إن كل ذلك قد لا يُشكل لبعض الأشخاص صعوبة، ويمكن لهم أن يكونوا أصليين فهؤلاء يكون لديهم اتصال مع جانب من داخلهم الأصلي يصل إلى حد كبير أكثر مما لدى الأشخاص الآخرين إنهم يعرفون ما يشعرون به، ويفكرون، ولهم رأي في ما يريدون وما لا يريدون، إنهم جديون لا يتلاعبون كالأطفال ولا يفعلون شيئاً ضد آرائهم، ولا يقومون بفعل أفعال لا يرغبون في فعلها، ولا يُحوّرون الحقائق أو يحاولون تشويهها إنهم يعملون دائماً على استخدام مختلف أنواع التفسيرات للوصول إلى الحقيقة، أو كما يقول البوذيون:

«إنهم جائعون عندما يشعرون بالجوع، إنهم متعبون عندما يشعرون بالتعب، إنهم يعيشون حقيقة كما يشعرون هم به حقيقة».

عندما كانت ابنتي في عمر السنتين، كانت تحب أن تتسلق كثيراً فوق الكرسي وتفتح الثلاجة كانت تفعل ذلك عدة مرات باليوم وذات يوم عندما جاء والدها إلى المطبخ ورأى باب البراد مفتوح على مصراعيه أصبح شديد الغضب وبدأ يصرخ بأعلى صوته:

- اللعنة! اتركي الثلاجة أيتها الصغيرة، سأجنّ منك، هل تريدين أن يكون لك أباً مجنوناً!؟

إن كلاماً كهذا لا يُقال بهذه الطريقة المُرعبة من أب تربوي لطفلة صغيرة لكن يمكننا تفهّم ذلك، أما الطفلة ماذا سيكون رد فعلها عندما يصرخ في وجهها رجل كبير، طويل، قوي وعلى بعد مترين فقط يصيح بهذا الأسلوب المخيف وبأعلى صوته وبنبرة غضب شديدة اللهجة، بالتأكيد البنت لا تستوعب ذلك ولم تكن ابنتي قد تعلمت بعد أن تُفسر كلاماً كهذا أو أنها لا تعرف إعادة تفسير كلمات والدها التي قالها لكنها ظلت واقفة تستمع إليه فقط وتنظر إليه بتحفظ ثم قالت له:

– لا شكراً! لا أريد أباً مجنوناً وإنما أريد آيس كريم!

إن معظمنا نحن الكبار لدينا الكثير من الفلترات «المرشحات» ننظر من خلالها إلى العالم الخارجي والجوّاني أيضاً، نحن نرى الكون عبر نافذة زجاجية عليها بعض الأوساخ والأتربة نحن ننظر عبر نظارات وردية أو كما لو وضع أمامنا ستائر شفافة من الدانتيل، هكذا ننظر إلى الأشياء، وهذا يجعلنا نرى كل شيء مختلفاً، ليس على حقيقته، نراه شاحباً، باهتاً مما يجعل تقييمنا للحقائق غير موضوعية ولهذا يصعب علينا فهم الحقيقة، نحن نجفل عند سماعنا الحقيقة، نضع أصابعنا في آذاننا لا نريد أن نسمعها، نحن نُحور الحقائق نبتعد عنها كي لا نواجهها في كلا الحالتين من الداخل ومن الخارج.

دعونا نأخذ مثالاً بسيطاً من الحياة اليومية البسيطة، زوجي يعمل كل يوم لساعات طويلة وعندما يعود إلى المنزل مساءً يكون متعباً جداً يحضر بعض سندويشات الجبن ويتناولها يجلس أمام التلفزيون ويأكل صامتاً، أما أنا فقد كنت أشعر بالضجر وأن ذلك متعب تماماً لكنني أبدأ أعدّ لنفسي قدحاً من الشاي وأجلس إلى طاولة الطعام الكبيرة وأبدأ أتحدث إليه وأتحدث عن كل شيء حصل لي خلال اليوم، وأظل أتحدث عن ماذا نفكر وماذا نتأمل، إن ذلك ما لا يرغب به زوجي فهو يظل صامتاً لا يتحدث إلي أبداً لأنه يقضي يومه وساعات طويلة مع طلابه، لهذا عندما يعود إلى البيت يرغب في أن يجلس صامتاً، هادئاً ينظر إلى التلفزيون فقط، ورغم أنني أعرف أن عمله متعب، لكنني لا أود أن أفهم، وأشعر بالحزن والأسى، لكن مع ذلك كنتُ أجاريه وأجلس إلى جواره صامتة لساعات طويلة لا أتحدث ولكن مع مرور الوقت بدأت أشعر بنوع من الغرابة وصرت أتساءل: كيف سأقضي كل مساءاتي على هذا الحال مع زوج صامت لا يتحدث معي، ودون أن يكون هناك شيء مشترك بيني وبينه، أنا أحتاج إلى

نوع من الصحبة، أن أتسامر مع شخص يتحاور معي يبادلني الأحاديث، بعد فترة بدأ صوتي الجوّاني ينادي لكنني لم أنصت إليه وأصبحت متشنجة وردود فعلي أصبحت عنيفة وأصبحت أغضب على أبسط الأشياء ثم أصبحت أغضب أكثر وأكثر، وأصبحت أشعر بالانزعاج من زوجي ومن نفسي ومن التلفزيون ومن الشتاء المظلم الكئيب ومن كل شيء ومن كل تلك الليالي المُملة الرتيبة التي أعيشها وتساءلت داخلياً ما هذا الصوت الذي يناديني؟ ما هذه الرسالة التي وصلتني التي جعلتني أشعر بالانزعاج؟ في نهاية الأمر ماذا يمكن أن يكون ذلك الصوت الذي أتى ولم أستمع إليه؟

إنه ببساطة شديدة مطلب طبيعي تماماً،وهو أنكِ كنتِ لا ترغبين في مشاهدة التلفزيون! هذا كل ما في الأمر، إنه أنين الأنا وتذمرها، نحيب النفس الجوّانية هو الذي كان واقفاً وراء ذلك، لقد هربت من مشاعري الجوّانية البسيطة عبر قيامي لمشكلة خارجية أخرى وهربت من إرادتي الخاصة وأخفيتُ رغبتي الحقيقية وبمساعدة الإسقاطات الأخرى من التذمر والضجر والغضب أنكرت الرسالة التي يسميها سورين رسالة الروح، أنا أنكرت حق وعدالة نفسي في أن أنصت إلى داخلي ولم أتبع صوتي الجوّاني وجعلت من نفسي ضحية، لماذا فعلت هذا كله؟ إنه تصرف أحمق!

ما هو الأمر الذي يُشكل خطورة في عدم رغبتي في مشاهدة التلفزيون؟ لا شيء! لكن بالنسبة لي أنا في تلك اللحظة كان هكذا، وربما اعتقدت أن زوجي الذي كان يرغب برفقتي معه وكان من المفترض أن أكون كريمة وأشاركه ذلك رغم أنني أجد أن الجلوس معه أمام التلفزيون بهذه الطريقة شيء مضجر تماماً، أن يقضي المرء وقته بهذا الشكل شيء ممل تماماً، ربما لا أريد أن أعترف بأن زوجي وأنا لدينا احتياجات مختلفة عن بعضنا البعض وخاصة في المساء، وأنه مع طريقة عمله المرهقة ومع حماية سلامته الشخصية لا يستطيع أن يتأقلم معي، ولهذا لن أحصل على تلك

الليالي التي كنت أرغب في أن أحصل عليها، في الواقع إن ذلك لا يهم لكن الشيء المهم واللافت بالنسبة لي هو أني بدلاً من أن أغطي رغبتي وأجلس أستمع إلى التلفزيون معه بدأت أنتبه بدقة إلى ذاتي وسجلت فقط ما كنت أشعر به لقد كنت غير راضية عن ذلك وكنت سعيدة لتفسيري السريع هذا ودون تحريف لرغبتي وماذا كانت إرادتي ترغب، وعندما تماسكت نفسي بدأت أستمع بشكل أوضح إلى داخلي وهكذا أحسست بأنه من السهل حل تلك المشكلة، الآن هو يشاهد التلفزيون وأنا أعمل شيئاً آخر، أحياناً وعندما يكون رأسه غير معبأ بدوشة العمل، كنا نقضي وقتاً معاً على طريقتي أنا، وأحياناً إذا كان هناك برنامج جميل في التلفزيون أجلس وأشاهده معه أيضاً.

«يعتقد المرء بشكل عام أنه أن يكون الإنسان غير موضوعي ليست براعة» - يكتب سورين في كتابه «في الخاتمة العلمية» لكنه يكمل ويكتب-

«إنها مهمة صعبة جداً، نعم، حتى أنها أصعب من أي شيء آخر وذلك لأن كل إنسان لديه رغبة قوية، أُمنية طبيعية بالفطرة ليصبح إنساناً آخر، وهناك شيء يقوده غريزياً ليكون على وجه التحديد أكثر مما هو عليه.

إن هذا غير جيد سورين، كما يمارس ذلك على شخصية «أ» عبر تصرفاتها المراوغة والاعتذارات التي يدعوها حول حركة الحب الصارم، إنها ليست الظروف التي تجعل من المرء غير صادق مع نفسه أبداً، يقول سورين، وإنما هو نفسه دائماً وأبداً هو نفسه لا يكون صريحاً مع نفسه، أنت غير أصلي لذلك ببساطة تامة أنت لا ترغب في أن تكون صريحاً مع نفسك.

هل لأن الإنسان ذلك الشخص العنيد الذي لا هوادة له والذي لا يريد أن يكون مع داخله أو مع ذاته؟

نعم، إن ذلك واضح ويمكن بطبيعة الحال رؤية الموضوع هكذا، إنها ليست حرب تستطيع أن تفهمان أنت وزوجك ذلك الخلاف الجوّاني، إنه

الصراع الداخلي في النفس،هل أتبع الآخرين أم أتبع نفسي؟ وهذا هو الذي يمكن أن تحسمه قوة الإرادة- يقصد سورين- إذا كنت جاداً في أن تكون أصلياً اختر في كل لحظة أن تكون مع نفسك، الآن بدأت أفكر في المطربة السويدية كرستين فيبرغو كيف كانت حياتها صعبة للغاية، لقد كانت كرستين تعيش مع رجل يضربها، يهينها كل يوم ويحط من مقامها دائماً لقد كتبت كرستين في كتابها الرائع «خارج خط حدودك» تصف بشكل شاعري جميل رحلتها الجوّانية مع نفسها وكيف كان لديها اشتياق وحنين لعلاقة حب عميقة وكيف كان ارتباطها القاسي مع والد أطفالها، تلك العلاقة الحطامية التي جعلتها تكون حساسة أكثر تجاه الأنا الخاصة بها، كانت إرادتها فوق كل شيء أما احتياجاتها فقد كانت لا تُشكل شيئاً لها على الإطلاق، إن صوتها الجوّاني كان يصرخ ولم تنصت إليه إلى أن بدأ يخفت قليلاً قليلاً إلى أن أصبح في النهاية يهمس بصوت غير مسموع:

«أنت لا تستحقيني! تقول لي
نفسي وكأن شخصاً ما يخاطبني-
لقد رأيتُ نفسي مثل ما أنت ترينني،
لقد كنتُ شخصاً آخر، وتساءلت هل
أنت التي استحملتها طويلاً؟ هل نفسي
أنا التي استحملتني طويلاً؟

لقد استغرقت كرستين أكثر من عشرين عاماً لتقرر ما ينبغي عليها فعله وأن تترك ذلك الرجل الذي أحبت، وتسير وراء حقيقة نفسها وتتبع إرادتها الحقيقية.

إن الصوت وصل إليها، وأصبح أقوى، وهي تكتب:

أنا أسمع ذلك الذي لا يقال،

وأجعله يتكلم، لقد جعلت نفسي

تشعر بذلك، أنا أسمع، لقد جعلت

نفسي تحكي لي عن ذلك،

أنا أشعر.

لقد اكتشفت كرستين ذلك عندما بدأت تنصت إلى نفسها، استمعت إلى صوتها الجوّاني دون مواربة أو إعادة تفسيرات وعندما استوعبت مشاعرها كما هي تماماً ضرب في دماغها مسألة الإدمان واليأس فتوقفت مباشرة عن تعاطي الكحول واستعاضت عن ذلك بالاستماع إلى الموسيقى والتعمق فيها:

«من أين يأتي تآلف النغمات هذا؟ ما هو أساس إمكانيات كل تلك النغمات؟ كيف يمكن أن تكون قادرة على كل ذلك التناغم والضبط».

إذاً كان شيء بسيط كمشاهدة التلفزيون أو عدم المشاهدة، يمكن أن يخلق صراعاً داخلياً إذاً ما هو المطلوب من هؤلاء البشر المتمردين عندما يتعلق الأمر بالعنف والغباء والقضايا الدينية والنظم السياسية ورؤيتهم للعالم؟ فكر في شخصية نيكولاس كوبرنيكوس ذلك الرجل الذي كان في بداية القرن 1500- يعمل ضد جميع الخبراء والمختصين وادعى أن الأرض ليست مركز النظام الشمسي، وايغور سترافينسكي الذي ارتكب في 29مايو 1913 فضيحة كبرى في باليه «ضحايا الربيع» التي لم تُعرض، ارتكب عملاً مُخزياً عندما سمح في نهاية الجزء الأول بتغيير جميع الإيقاعات إلى 150 مرة وهذا ضد قانون الموسيقى، وأليس أوتسن- جنسن التي كانت في وقت مبكر من عام 1900 سببت في حدث كبير عندما قامت بتوزيع وسائل وقائية

لمنع الحمل لدى النساء الفقيرات واللاتي يملكن أطفالاً كثيرين رغم أن ذلك كان ممنوعاً ومحظوراً في تلك الفترة.

إن جميع هؤلاء الذين استمعوا إلى صوتهم الجوّاني واتبعوا روحهم بالتأكيد كلفهم ذلك الكثير، ماذا حصل لذلك الموسيقي وغيره عندما غير الإيقاع الموسيقي سوى الاستهزاء والسخرية منه، وماذا حصل لأليس أوتسن وغيرها لقد حاربهم الجميع ولعنوهم وسببوا حرمانهم من كل شيء.

- لا تنسوا المسيح! يُشير سورين إلى المسيح عندما يُصلب، وسقراط، لا تنسوا سقراط، هذا الفيلسوف الذي أرغم على شرب كأس من السم وذلك من أجل الحقيقة.

نحن لا نريد أن نصبح أصليين - يقصد سورين- لأننا غير متأكدين من أننا نريد أن ندفع ثمن ذلك كما دفع سقراط حياته، نحن لا نتّبع صوتنا الجوّاني لأننا نخاف من أن نصبح منتقدين أو نُبعد عن نطاق المجموعة ونصبح وحيدين، أو نكون بعيدين عن تلك المفاهيم والقيم التي بناها البشر معاً في أن يحبوا ويكرهوا نفس الأشياء، إن المرء لا يحب أن يكون شاذاً عن الآخرين وبدلاً من ذلك يختار أن يُنكر ذلك الكائن المُميز الذي في داخله وينكر روحه وصوتها ويصبح كما أطلق سورين عليه «نومَروس» ويقصد بهذه الكلمة أن يكون واحداً من الآخرين ليس لديه أي رأي أو عمل يُميزه عن الآخرين وهكذا يصبح واحداً من ضمن القطيع، إن ذلك ليس غريباً وذلك منذ وقت ليس ببعيد كانت مجاميع البشر تتجمع وتتشارك العيش معاً وذلك لضمان العيش والحياة والنجاة من البرد أو الموت جوعاً، إن تاريخ الإنسانية والبشرية يذكر هذه الأيام،فقد عاشت في داخله ولازالت مطبوعة في ذاكرته، لذلك نحن نحوّر الأشياء، نشوهها ونقلل من أهمية أنفسنا - يقصد سورين- إننا نحاول التأثير على الأنا المهزوزة التي فينا وذلك عبر تعزيز إعجابنا بالآخرين وبمساعدة تقليدهم عن طريق الملابس أو الأشياء،

العناوين، المعلومات، أو الآراء أو وجهات نظرهم الصحيحة، وليس عصابات سائقي الدراجات النارية وحدهم الذين يرتدون ملابس موحدة وإنما إلقاء نظرة واحدة فقط إلى عالم الدعايات وعارضي الأزياء تجد الجواب، انظر إلى ملابس رؤساء الشركات وكيف يرتدي جميعهم الجاكيت وربطات العنق، كابتن البحارة، شركات الطيران، فرق الألعاب الرياضية وحتى أولياء أمور الأولاد وهم يرتدون نفس ملابس فريق كرة القدم الذي يلعب به أولادهم وذلك لتشجيعهم، نحن نرغب بهذا بكل سرور وكما كتب سورين إننا لا نحب أن نكون أشخاصاً مختلفين غير أن نكون مع هؤلاء الناس ونتشابه معهم.

إذن هذا هو الوضع عندنا اليوم، وبالطبع كان هذا هو الحال في زمن سورين ولذلك الصف الصغير للأولاد البرجوازيين في كوبنهايكن في فترة القرن التاسع عشر 1800، هناك كان الناس أغلبهم يعرفون بعضهم البعض ولذلك ربما يستطيع المرء ببساطة أن ينظر إليهم ليرى كيف أنهم جميعاً متمسكين بالقوانين غير المكتوبة والمحافظة عليها بشكل متماسك، على سبيل المثال يرتدي أعضاء فريق كرة القدم زياً موحداً معيناً وهكذا يفهم الآخرين مباشرة أن هؤلاء من أعضاء فريق كرة القدم وبهذا يبتهج المجتمع والناس لذلك التعامل لكنها في الوقت نفسه لا تسعد ذات الفرد وذلك عندما يتماشى مع الآخرين فهو بهذا يتصرف خارجاً عن نفسه ولو لا وجود إعجاب الآخرين وضغطهم على الآخر لأصبح الناس أكثر بساطة من ذلك، ولارتدى كل شخص ما يعجبه وعلى راحته تماماً، بالطبع على الرغم من هذا كله إلا أن سورين لم يكن يطبق ذلك النظام وكان يطلق على هؤلاء الناس الذين يحاولون التكيف مع بعضهم البعض بمجموعات «الزمرة»، وميز نفسه بارتدائه ملابس خاصة ميزته عن الآخرين، فكان يرتدي قبعة عريضة وروباً غريباً وحذاءً عالياً وبنطالاً ضيقاً ويحمل تحت ذراعه عصاً أو مظلة مطر، كان سورين يتحدى بملابسه الغريبة الآخرين فهي تُعارض

الذوق العام ولا تتماشى مع ما يلبسه الآخرون، كان سورين يتميز دائماً بملابسه، فهو يلبسها كل يوم وبإصرار كبير إلى حد أخذ الناس يتابعون صحيفة «كورس» ما ينشر عنه من صور كاريكاتيرية، وعندما كان سورين يتمشى في هذه الملابس كان الناس يسخرون ويضحكون منه وكان الأطفال يتمازحون مع بعضهم الآخر بسخرية كبيرة مستهزئين منه، حتى أن خياطه طلب منه أن يتوقف عن ارتداء تلك الملابس المُضحكة وأن لا يخيط له مرة أخرى مثلها لأنها تجلب له سمعة سيئة.

لم يكن ذلك سهلاً حتى على سورين أن يكون هو نفسه في تلك الفترة، لم يكن سهلاً عليه الوقوف هناك أمام المرآة بملابسه الداخلية في ذلك المنزل البارد وهو ينظر إلى قطع ثيابه التي تُثير سخرية الناس، فيما مضى لم يكن سورين متردداً في أي شيء أبداً، لكنه الآن بدأ يفكر مع نفسه:

- إن ذلك لا يستحق العناء أبداً ينبغي أن أقرر الآن إما أن أهتم لسخرية الآخرين السلبية مني وأظل أفكر وأعاني أو أن آخذ الموضوع ببساطة شديدة وأستمتع بجذبي انتباه الآخرين لي!

إن الشخصيات الكاريكاتيرية التي كانت تُنشر عن سورين في الصحيفة اليومية جعلت منه حزيناً، نستطيع أن نفهم ذلك من كتابته في دفتر اليوميات التي كتبها وقد جعلته أيضاً شخصاً مشاكساً محباً للمشاجرة والعراك: « ....

«حتى الآن أنا أنتمي إلى الأقلية وأريد أن أنتمي للأقلية دائماً وأتمنى أن يساعدني الله وأنجح في ذلك إلى آخر يوم في حياتي» كتب سورين هذا في سجل أوراقه.

إن الإنسان الذي نحكي عنه من الواضح أنه شخص «أصلي» إنها شخصية سورين كما هي تماماً إنه شخص مُلزم أن يكون هو نفسه وذلك لأنه لا يُخفي رأيه أبداً وليس لديه أية مساومات حول احتياجاته ولا

يُحاول أن يُزين الحقائق أو يُجمل وصفها الحقيقي، إنه حقاً رجلٌ أصلي وكان مع نفسه وذلك لأنه لم يستطع أن يُكيف نفسه ويصبح نسخة كالآخرين.

فكر في أن تكون مدعواً إلى دعوة غداء، وهناك أنت في صحبة مجموعة من الأصدقاء الطيبين وتجري المحادثة بينكم على نحو سلس لا ادعاءات بدرت من أحد ولا شيء غير متوقع يُثير السخط أو يُغضب ولا من يُزعج الآخرين ولا آراء معارضة غير طبيعية تضغط على الحضور وتجعلهم يفكرون فعلاً فيها وهكذا تجلس حتى ساعات طويلة دون أن تشعر بشيء ما غريب يحدث ثم بعد ذلك تنتهي الدعوة ويفترق الجميع برضا وراحة وهم غير مبالين لأي شيء وذلك لأنه لم يمسهم أحد من الداخل ولكن في دعوة غداء أخرى يُقرر أحد الضيوف أن يدخل في صراع خاص حول الوجود فيطرح تصريحاً ما بطريقة مهملة لا يفهم من قبل الحاضرين وسرعان ما يجابه بالنقد ويسأله أحد الحاضرين:

- ماذا تقصد بكلامك هذا؟ أو:

- لا، أنا لا أتفق معك في هذا الموضوع! إنها أسئلة سهلة للغاية لكنها قد تعطي معنى عميق فجأة في النفس، على سبيل المثال:

«- شكراً، أشعر بتحسن الآن لكنني قبل أيام مررتُ بإحساس صعب جعلني أفقد توازني إنه أمر جدي لم أستطع السيطرة معه على وضعي لقد جعل كياني كله يهتز!»

إن المواضيع العامة لا تخلق رد فعل يُثير شيئاً ما لدى الآخرين ولا تفتح شيئاً داخلياً، (داخل النفس على سبيل المثال) إنها مواضيع لا يأتي منها رد فعل على نوع من الأسئلة عندما يسألها أحد الضيوف:

- هل ستسافرون هذه السنة إلى تايلاند أم لا؟! غير أنها تأتي على نوع أسئلة أخرى على سبيل المثال:

- كيف عليك أن تتعامل مع الفضائح؟ أو كيف تعالج مشكلة العار والخجل لديك؟ أو:

- هل الحب هو الشرط الأساسي لقيام علاقة جيدة بين المتزوجين؟ ماذا يقول الأزواج الذين عاشوا معاً فترة طويلة؟.

أن تتكلم على نفس المستوى الذي أتكلم أنا فيه، وتكون على اتصال مباشر من أعماقك إلى أعماقي يتطلب ذلك جهداً كبيراً للغاية، يتطلب حوارات وكلاماً وشروحات طويلة حتى تتمكن من الوصول إلى أعماق الآخر، إن هذا ما يطالب به تماماً الأشخاص الأصليون إنهم يستطيعون أن يُعكروا دعوة عشاء صافية بأكملها وذلك بإزعاجهم أحد الضيوف وإرغامه على كشف نفسه أمام الآخرين دون أن يدركوا، ولكن هل تشعر بأنه من الأفضل لك أن تتجنب هذا ولا تكون أصلياً، إذاً لندعو إلى هذا بكل ما لدينا من وسائل وطرق- يسخر سورين-

«إذا رغب المرء في أن يعيش حياة بسيطة لا يريد أن يدرك عمقها (وهذا هو ما يريده جميع البشر تماماً) إن ذلك في غاية السهولة كل ما يحتاج إليه المرء هو أن يكون عديم الأهمية لنفسه فقط وأن يقلل من قيمتها ويزدريها وأن يحتقر كونه إنساناً يعيش على هذه الحياة وأن يسخر من نفسه أكثر وأكثر وهكذا تصبح حياته أسهل، ببساطة شديدة على المرء أن يكون تافهاً، كن تافهاً وببساطة تصبح تافهاً!».

في الحقيقة ليس صعب أن تصبح شخصا أصلياً! - يقول سورين- إن ذلك لا يحتاج إلى أن تدخل في دورات تعليمية، ولا تحتاج إلى علاج نفسي، ولا أن تكون عضو في حركة دينية وأولاً وأخيراً وقبل كل شيء لا تحتاج إلى معلم أو قائد ليقودك، وهناك شيء واحد فقط يُطلب من المرء، ليكون أصلياً وهو أن يكون داخلياً فقط، أن يكون المرء جوّانياً من وجهة نظر سورين، عليه أن يتفهم ويستوعب كل شيء تماماً كما هو، أن ينظر إلى

الأشياء على حقيقتها دون أن يحاول تغييرها أو تفسيرها، ودون أن يعيد ترجمتها أو يُحوّر حقائقها وعليه أن يتعامل معها بحنو فضولي ويتساءل بجدية تامة دون أن يحسم أو يقرر وأن يتأمل نفسه والعالم دون أن يصدر أحكاماً وألا يفكر أو يقلق نفسه وعليه أن يُسجل بانتباه فقط ما الذي يحدث داخل وخارج نفسه ثم أدخل ذلك الذي يحدث داخل نفسك ودعه يلمس أعماقك دون أن تندهش لرد فعلك وبدلاً من ذلك اهتم بمشاعرك احميها، دافع عنها، وحاول أن تتفهمها، لم يكن من السهل على المرء أن يتقبل ذلك في بداية الأمر، وذلك لأنه ينظر إلى الأشياء كما هو معتاد، يصنفها ضمن أُطر الخير أو الشر وأن يكون حاكماً على نفسه وعلى الآخرين، لكن بعد فترة من الزمن تتغير الأوضاع ويصبح الأمر أسهل ويبدأ يرى أشياء لم يرها من قبل.

«ينبغي على المرء أن يكون لغزاً غامضاً، ليس فقط في أعين الآخرين وإنما أمام نفسه أيضاً!». يكتب سورين في كتابه «إما أو»، «أنا أقرأ، أتعلم، وأُعلّم نفسي وعندما أشعر بالملل أشعل السيجار وأفكر في الإله وكيف هو، ماذا يعني لي حقاً سيدنا المسيح؟ أو يفكر ماذا كان يصنع مني؟ أي أنه يعرف مسبقاً عن الشخصية التي أقرأ عنها.»

وهكذا يكمل سورين: «مثل الكابتن صاحب السفينة الذي يتحرى مسبقاً عن البحر ليستكشف أمواجه، لديه الخبرة لمعرفة الجو ويراقب هبوب الرياح قبل وصولها إلى سفينته، ينبغي على المرء أن يلمح مزاج الجو قليلاً وقبل أن يرتدي ملابسه يفترض به أن يشعر كيف سيكون تأثير الجو عليه وعلى الآخرين، وكذلك كل المواقف وكل الأشياء في الحياة ينبغي على المرء أن يعرف مسبقاً كيف سيتصرف معها، إن الإنسان ينبغي أن يجرب عدة طرق ليصل إلى تلك النغمة الصافية ليفهم ويرى ما هو المخفي وراء كل إنسان سواء أكان بالكلام أو بالتصرف، وكلما كان المرء على دراية وخبرة

كلما كان من الأسهل عليه إقناع نفسه بأن لديه الكثير والكثير لم يفكر به أبداً.

إن ذلك الشخص الذي يعيش جوّانياً طوال الوقت هو في حالة اكتشافات جديدة ويُدهش عند اكتشافه صفحات جديدة داخل نفسه ويُذهل من معرفة أشياء داخل نفسه لم يكن يعرفها من قبل، بعضاً منها لطيفة والبعض الآخر غير مريحة.

«إنك تحتقر الناس وتزدري أهمية الآخرين» قال لي ولدي ذات يوم ونحن نرى شقة للإيجار، لقد دافعت عن نفسي ضد هذا الإدعاء:

- أنا أحتقر الناس!؟ في الحقيقة إن ذلك لم يكن ضمن تفكيري يوماً ما، أبداً، ولم يخطر على بالي ولم أنتظر جملة قاسية يقولها ولدي لي ذات يوم على الإطلاق.

«لكن ألا تستمع إلى نفسك ما قلته قبل قليل؟» قال ولدي بإصرار!

- ماذا تقصد، ماذا قلت!؟ قلت له.

«- من غير المتوقع أن يطرح الناس أسئلة غبية كثيرة لا يستوعبون ما هي، إن ذلك كره وازدراء للناس، أنت أتيت إلى هنا كي تعرف أكبر قدر ممكن من المعلومات حول الشقة، أنت هنا لتجيب على الأسئلة فقط، وليس لتحكم على أسئلتهم سواءً كانت صحيحة أم خاطئة، إنهم كانوا فضوليين لمعرفة أشياء يرون أنها مهمة بالنسبة لهم، من أنت حتى تنتقدهم بهذه الطريقة؟!».

بعد عدة أيام أبقيت عيني مفتوحة وراقبت نفسي جيداً وأدركت حينها مندهشاً كيف كنت أكذب على نفسي، أنا الذي أصف نفسي بأني إنسان يحترم الآخرين بينما أنا من الداخل اكتشفت ذلك مستغرباً بأني أُقسّم الناس إلى قسمين القسم الأول وهو أنا أحترم الأشخاص المُثيرين للاهتمام، والقسم الآخر لا أحترم الأشخاص غير المهمين في الحياة، أقدر

الأشـخاص ذوي القيمـة العاليـة ولا أقـدر الأشـخاص الآخـرين، أشـخاص يشكلون قيمة عالية وآخرون لا يشكلون أي قيمة وليس لهم أي اعتبار داخل نفسي وهكذا قد أكون أنا أكره وأحتقر نفسي أيضاً.

إن الشخص الذي يرغب في أن يبحث على مدى بعيد ليجد معنى حياته ينبغي عليه أن يُطور الجوّانية لديه، يقصد سورين، إن الجوّانية هي أداة الفحص التي يملكها، ومنها يستطيع أن يجد الطريق إلى المعنى من حياته، إبدأ من ذلك الشيء الصغير، راقب نفسك بشكل رقيق ومن الضروري جداً أن تلاحظ كل شيء بحنان وفضول وأن تنظر من كل الجهات ومن عدة زوايا مثل طفل صغير عندما يتسلل خلسة إلى حفلة الكبار ليرى ماذا يفعلون فيبدأ يتساءل: لماذا تفعل هذا تلك المرأة؟ ولماذا يتصرف ذلك الرجل بهذه الطريقة؟ قد يتساءل ويتساءل عندها وبأعجوبة كبيرة تصبح الجوّانية طبيعية عندها يستطيع أن يرى المرء كل شيء بصورة أقرب وأعمّ ويمكنه أن يلاحظ تلك الهياكل الأكثر تعقيداً، ويرى هؤلاء المخدوعين الذين تغطي عيونهم غشاوة مغبرة، مممم، هذه هي الطريقة الصحيحة هكذا يمكن الاهتمام بذلك، تخيل أنا أعمل على هذا الشكل، ما هو موجود وراء تلك الزاوية الثانية؟ عندما تصبح الجوّانية عادة طبيعية لدى الشخص هكذا تضم كل شيء وتشمل كل فعل ورد فعل ولا يمر رد فعل داخل نفسه دون أن يلاحظها ولا ينسل أي شيء إلا ويكون مروراً منه وأي ادعاء أو أحداث في المجتمع لا تمر دون أن يلاحظها، إن المرء لا يتأمل نفسه وداخله فقط وإنما يبدأ يلاحظ كل شيء بطريقته ومن منظوره الجديد الآخر، ما هي الحياة السعيدة وما هي الحياة التعيسة؟ ما هو الحق وما هو الباطل؟ كيف يمارس المرء قوته وسلطته؟ هل حياة الناس الناجحين جميلة؟ ماذا يعني لك أن تكون إنساناً؟ حاول أن تجيب على كل سؤال بدقة متناهية، وفي كل مرة تنجح فيها، يقصد سورين، سوف تقترب أكثر من نفسك قد

يكون ذلك هو المعنى من حياتك. لو كنت فقط أعيش جوّانياً لما تركت ابنتي ذات العامين تذهب إلى الحضانة على الإطلاق في حين أنا جالس في البيت أرعى أخيها الصغير المولود حديثاً، كانت ابنتي من الواضح ليست هي مخلوقة اجتماعية، لم يكن يروق لها أن تكون مع مجاميع الأطفال وكان يطيب لها دائماً أن تكون لوحدها تنسجم مع عالمها الخاص بها فقط، عندما كان يخرج الأطفال يخرجون راكضين للعب خارج المبنى فرحين، ضاحكين كانت ابنتي تظل جالسة هناك لوحدها عند الشباك، تقرأ قصص الأطفال، وكثيراً ما كانت حذرة، متحفظة، لا تختلط بأحد إلى درجة أن معلميها ذات يوم أوشكوا على نسيانها في مبنى الروضة وهم في طريقهم للخروج إلى إحدى الحدائق العامة وظل يبحث عنها حشد من المعلمين والموظفين إلى أن عثروا عليها لوحدها جالسة بين الرسومات والكتب، أذكر أنني عندما كنتُ أشعر بالانزعاج كل يوم عندما كنت أقوم بتوصيلها إلى الروضة، لم أشعر بالراحة أبداً وأنا أتركها هناك وأنا أدفع بعربة أخيها الصغير وأغادر، لكن في تلك الفترة، فترة الثمانينات كانت الحقيقة المتفق عليها جماعياً هي عندما تُنجب الأمهات أخاً جديداً يفضل أن يكون الطفل في الروضة وذلك لأن جميع الأطفال بحاجة إلى أصدقائهم في الروضة خاصة عندما تكون الأم مهتمة بولدها الجديد. لكن أنا نفسي لم أكن أستوعب ذلك لأن ابنتي هي ليست كل الأطفال وإنما هي ابنتي أنا.

لو كنت أعيش جوّانياً لما كنت بحاجة للذهاب إلى النادي الصحي لعمل المساج وتدليك ظهري ولكنت استمعت فقط إلى صوت عضلات جسدي ومفاصلي وهي تشكو، لو كنت أعيش جوّانياً بشكل جدي لكنت استوعبت منذ زمن بعيد أن الجميع بحاجة إلى النوم ومن الأفضل لي أن أعطي لنفسي الوقت الكافي وأنام جيداً.

بالمساعدة فقط من الجوّانية الخاصة بك، يقول سورين، يستطيع

المرء أن يصل إلى المعلومات الحقيقية عن نفسه، يستطيع أن يصل إلى حقيقة ذاته وهكذا يقرّ سورين أيضاً بشكل استفزازي بأن «الجوّانية هي الحقيقة».

ما هذه المطالب التي تطالب بها يا سورين؟ إن الأنا الخاصة بي تتأرجح وحيدة تماماً، إنها في صراع دائم ومستمر مع الوجود وليس لدي شيء أتكىء عليه لا نظرية أستند إليها ولا شيئاً أستعمله لأصل إليها، ولكن تقول فقط الحقيقة، إن الفطنة التي هي محدودة، الإدراك ومشاعري المعقدة المتشابكة، تلك هي الإمكانية الوحيدة لاكتشاف قدراتنا الجوّانية ونجاحنا في كتابة نظرية عنها.

ماذا سيكون الجواب البديل؟ يقول سورين ويدير بوجهه للجهة الأخرى وهو جالس في مكانه في مكتبة جامعة كوبنهايكن، هل يقلد المرء شخصاً آخرَ؟ أم يعيش حياة كاذبة؟ هل هذا ما يرغب فيه المرء؟ هل يناضل كي يصل إلى ذلك؟ وهكذا يعود سورين للتسوية ونصبح بلا جواب مرة أخرى:

– إما أن تختار نفسك أنت، أو لا تكون موجوداً أيضاً!.

في الفترة التي عاش فيها سورين، كان هؤلاء الذين قبلوا بالتحدي والذين اكتشفوا مباشرة الصعوبات، (هكذا كتب في الموقع بقلم س:ف)، أحد قراء وأكثر محبي سورين، حسب ادعاء له في رسالة إلى المفكر العنيد الضال يقول فيها:

«مرة أخرى تصطحبني كتبك لأرى نفسي بوضوح كبير، إنها توقظ إحساسي كي أستوعب واجبي ولكن كيف أُعيد العمل على إعادة تشغيل طبيعة وجودي الخاص بي مرة أخرى، إنه أمر ليس بالسهل أبداً!؟.

هل أفكار سورين واقعية؟ هل هناك منْ يستطيع أن يفهم نفسه بشكل كامل؟ هل من شخص وجد حقيقته وحقيقة معنى وجوده هو؟ هل

فعلاً هناك شخص شفاف، صادق، غير مزيف، مكشوف أمام نفسه وأمام الآخرين؟ في كتاب «إما أو» كتب سورين بأحد الأسماء المستعارة، أساسور وليم، يقر بهذا:

«- إن ذلك الشخص الذي يعيش بشكل متزمت متعصب، هل يستطيع أن يرى نفسه؟ هل أحس بداخله يوماً بجوانيّته تخترق وعيه وجميع أفكاره الواقعية؟ هل رفض يوماً ولم يسمح لشبح أفكار الغير المؤكدة تطارد مخيلته؟!». لكن في وضع آخر يكتب سورين في اسمه الخاص:

«- ليس هناك شخص يستطيع أن يكون شفافاً أمام نفسه». هكذا هو الحال مع سورين، يعطينا بيده اليمنى ويأخذه من اليد الأخرى.

- لا أحد يعرف، حتى أنه لا يكون متأكداً مما لديه، يقول سورين بشدة متزايدة. إذاً، دعونا نعمل بكل بساطة كما كان سورين يعمل، نُدرب الجوّانية الخاصة بنا، نجرب ونرى ما الذي يحدث.

«الاختيار في حد ذاته، أمر حاسم
لمعنى الشخصية، فعبر الاختيار
تتعمق الشخصية، وعندما لا تختار،
تذبل الشخصية وتبهت»

- إما أو-

الخطوة الخامسة!

أن تفكر في أن تختار

كانت ريجينا أولسون في سن الرابعة عشر فقط عندما التقت سورين، في 8 مايو عام 1837 في بيت العائلة الذي يقع في رودام شارع فريدريك سبيرج مباشرة خارج كوبنهايكن، كان اللقاء الأول لريجينا بذلك الطالب ذو 24 عاماً، وقد ترك انطباعاً عميقاً في نفسها ليس فقط لأنه استمر بالحديث دون انقطاع تقول ريجينا بعد ذلك اللقاء بعدة سنوات:

« - لقد كان كلامه يسيل كتدفق الماء من الينبوع وقد جذب انتباهي وشدني بكلامه الساحر وصرتُ واقفة كالمفتونة أمامه»! لكن سورين بعد ذلك شعر بالخجل لأنه كان قد قرر قبل أن يخرج من بيته من كوبنهايكن وقبل أن يمتطي الحصان ويذهب إليها أن يترك كلماته تلك في البيت حيث كان يطلق عليها اسم «الكلمات الشيطانية السريعة» وذلك لأنه كان متأكداً من أن كلامه هذا سوف يخلق مساحة من الإعجاب بينه وبين قلب كل فتاة بريئة، لكنه عندما التقى بريجينا لم يستطع أن يمسك نفسه فتدفقت الكلمات منه دون توقف، ودون أي حاجز، لقد كان سورين ذاهباً بشكل رسمي للقاء صديقه العالم اللاهوتي بيتر رودام الذي كان هناك في مهمة تخص أخته الصغرى بولت ذات 22 عاماً، لكن ريجينا لم تكن تعرف بذلك أبداً وذلك لأنها عندما التقت بسورين في تلك الحديقة الجميلة أخذ ينظر

أحدهما للآخر، وهناك بدأت قصتهما التي هي واحدة من أغرب علاقات الحب الغرامية، لقد أحبها سورين حتى مماته عام 1855، لكن وبعد سنوات من قصة الحب والخطوبة يتخلى سورين عن حبيبته ريجينا، لماذا؟ ليجد حقيقة ذاته عبر تدريبه على الجوّانية الخاصة به، إن هذا لا يكفي كي تجد المعنى من حياتك، يقصد سورين، إنها فقط البداية، لا، لكي تعرف حقيقتك وتمسك بها ينبغي عليك أن تجرب وأن تسير مع الحقيقة وأن تجرؤ على أن تعيش وراءها، لاحظ سورين ذلك وكتب يقول «ينبغي أن تكون لديك الشجاعة لتختار» يقصد حتى لو كانت روح الإنسان هي التي تُحركه عبر الجوّانية الخاصة به، كي يبحث عن نفسه يعتقد سورين أنه من خلال البحث وجرأة الاختيار، عندها سيجد ذلك الذي يُشكل الأنا الخاصة به، إن القيمة أو المعنى من حياته لا تظهر أو لا تنشأ لوحدها بشكل مستقل عن حياة الإنسان وإنما هي مرتبطة باختياره، إن الوعي واللاوعي هو الذي يُشكل كلا الاثنين الذات والمجتمع.

إن حياتنا مليئة بالاختيارات والقرارات فهي تبدأ من لحظة استيقاظنا صباحاً وحتى الخلود إلى النوم.

– هل أنهض من السرير أم لا؟ يسأل المرء نفسه، هل أستحم أم لا؟ ماذا سأرتدي اليوم من لباس؟ ماذا سأتناول على الفطور؟ كل يوم يتخذ الإنسان آلاف القرارات، إن تلك الاختيارات والقرارات الصغيرة والعديدة ينظر إليها المرء على أنها بدون معنى، لكنها في الحقيقة بين حين وآخر تكون قرارات كبيرة تتضح فيما بعد أنها قرارات حاسمة ومصيرية في مسيرة حياة الإنسان.

– ماذا لو أن سورين لم يذهب سورين إلى منطقة فريدريك سبيرغ ولم يلتق بريجينا أبداً؟

– ماذا لو أنه لم يقرر أن يخطبها؟ كيف ستكون حياته إذاً؟ بلا شكَ

كانا قد التقيا وذلك لأن مجتمع كوبنهايكن ليس كبيراً وكان كلا الاثنان ينتميان إلى نفس الطبقة الاجتماعية في ذلك الزمن وكانا يتواجدان في نفس الأمكنة ويزوران نفس الكنيسة ويرتادان نفس المقاهي وغالباً ما يذهبان إلى نفس المسرح، بالتأكيد كانا قد تقابلا عن طريق الصدفة في أحد تلك الأماكن، لكن ربما كان ذلك اليوم فقط اقتضى أن يرى أحدهما الآخر.

يرى سورين أن كل اختيار تقوم به مهما كان تافهاً وحتى إن كان ليس له أي معنى هو يكشف بالضرورة عن داخلك أنت، إما أن يفضح اللاوعي الخاص بك الذي ورثته عن بيئتك وتربيتك وعائلتك أو أنه يكشف عن حقيقة القيم والمبادئ التي خلقتها من فكرك الواعي.

- كيف اخترت مهنتك التي تعمل بها الآن؟ هل أصبحت محامياً لأن والدك محامياً؟ أم أنك أصبحت معلماً كوالدتك؟ أم أنك اخترت مساراً في الحياة مختلفاً تماماً عن والديك، وذلك بعد أن درست وتحققت من الجوّانية وأدركت ما المفهوم الذي تراه مناسباً لك والذي يُشكل معنى خاصاً بك أنت؟

إن جميع اختياراتك في الحياة وكل تلك القرارات التي تقوم بها بدءاً من ما تشتريه أو كل ما تأكله أو تشربه يمكنك أن تستخدمه لتحليل ذاتك، إن البيت الذي تعيش فيه، الأثاث الذي اخترته، السيارة التي تقودها، وحتى كيس البقالة الذي تحمل به مشترياتك، كل هذا ومن خلاله يمكنك أن تعرف نفسك من خلاله.

عندما كنت أتسوق من تلك البقالة القريبة من بيتنا كنتُ أشتري كيساً إضافياً لا استعمله أبداً، كنت أتبضع لترين من الحليب ورغيف أسمر ذو الحبوب الكاملة، جبن، طماطم وقطعة شوكولاتة وهذا سعة كيس واحد فقط، لكنني كنت أشتري كيساً آخر دائماً، قد ينظر المرء إلى ذلك الأمر في

غاية السهولة، وأنه مجرد إجراءات عملية غير مهمة لكن سورين لا يرى ذلك ويجد أن الكيس البسيط الذي سعره كرون واحد فقط بالنسبة إليه هو نموذج واضح لا جدال عليه من ذلك اللاوعي والازدواجية التي يحملها الشخص داخل نفسه.

كيف يفكر هو؟ إذا تسألني أنا شخصياً كيف أتعامل أنا مع أزمة الحفاظ على البيئة أكون وأكون واعياً، أنا أوزع الأوساخ من سنة 2000 كل بمكانه وحسب نوعه لأحافظ على البيئة وقد حصلت على سيارة تعمل على الإيثانول الذي لا يؤثر على البيئة إطلاقاً.

خارجياً، أي من السطح أبدو كما لو أني أعرف ما أقوم به وكما لو أنني بمساعدة من الجوّانية الخاصة بي انعكست علاقتي مع الطبيعة فصرت أتعامل بمسؤولية معها وأطبق مبدأ المحافظة على البيئة للعيش على هذه الكرة الأرضية ولكن هذا من وجهة نظر سورين ليس صحيحاً، إنه مجرد خداع للنفس وإن كيس البقالة هو الذي فضحني.

- لو أنك صحيح صديق للطبيعة (يقول سورين) لانقادت حياتك كلها للطبيعة، ولطغت على مفاهيمك الحياتية أزمة البيئة وما معناها وما مشاكلها وما هي مساهماتك أو دورك في إنقاذها، لو أنك كنت تعيش الجوّانية بشكل حقيقي لخيّم على حياتك طابع من التبصر والتفهم في كل خطوة تخطوها في تعاملك، ولكنت تبعت أحاسيسك وسرت وراء مشاعرك الجوّانية، ولكان من المستحيل أن تشتري أكياساً بلاستيكية ولا إضافية.

- إنك يا إنسان عام الألفين 2000 تعيش بالسطحية فقط! يقول سورين ثم يكمل:

- في الواقع إن علاقتك مع الطبيعة قد انحدرت إلى أسفل طبقات الأرض، ولقد أصبحت لا تهتم بالبيئة والطبيعة منذ شرائك الأكياس

البلاستيكية، لقد وقف الإنسان اهتمامه بالطبيعة منذ فترة 1700، كان ذلك قبل 300 عاماً عندما اتخذ قراره النهائي والقطعي بأن يضع الأرض تحت قدميه ويدوس عليها وقد أعطى لنفسه الحق في أن يستغل الموارد الحيوانية والفضلات وعمل التجارب وسيطر على كل شيء دون أن يراعي أو يأخذ بعين الاعتبار عواقب نتائجها.

إن النتائج التي حققها الإنسان في الواقع كانت رائعة، وقد ساهمت في تطور المجتمعات بشكل إيجابي،وساهمت في تأسيس ذلك التقدم الناجح الضخم في جميع مجالات الحياة، ومن الصعب على الأرض أن تستحمل إغراءاتها التي أثرت عليه.

- انظر إلى نفسك! يقول سورين، انظر كيف تعيش!

نعم، إن سورين على حق، لو تذهب الآن إلى بيتي وتدخل القبو لوجدت عند السلالم معلق مئات الأكياس الفارغة وبعدد زياراتي لمحلات البقالة، في الحقيقة لدي منزل مليء بالأشياء لا أحتاجها أبداً وأحياناً أرمي حاجات رغم أنها لا تزال صالحة للاستعمال، وأقود سيارة في الوقت الذي أستطيع أن أركب فيه الحافلة، أنا لستُ مهتماً بالبيئة ولست أفضل من الباقين أنا لا أهتم بالأشياء ولا أولي العناية بها، حالياً أسافر في نهاية الأسبوع إلى اسبانيا، وذلك لمجرد رحلة لتغيير البيئة، أملك قدم في الماضي وقدم في الحاضر، أنا لست الوحيد الذي يعيش الازدواجية وإنما هناك الكثيرين مثلي لا يتحملون بشكل جاد مسؤولية أزمة الحفاظ على البيئة. لو كان سورين يعيش الآن بالرغم من رغبته الكبيرة للأشياء وحبه للملابس والكتب وغيرها إلا أنه بالتأكيد لانهار أمام ازدواجيتنا ونفاقنا، ونتائجها ولكتب وكتب مقالات كثيرة ولجلس محدقاً بنا لساعات طويلة يرمينا بنظراته المليئة بالاحتقار والسخرية ثم بعد ذلك ينظر مباشرة في أعيننا وعلى طريقة أسلوب سقراط يطرح علينا الأسئلة:

– ما هو الفرق بين الإنسان والطبيعة؟ ما هي مسؤولية الإنسان تجاه الطبيعة؟ ماذا سيحدث لو أننا لم نغير من سلوكنا؟

لقد حدد سورين خياراته وسار معها إلى أقصى حد من الجدية، أن يتزوج أو لا يتزوج من ريجينا استغرق ذلك منه سنوات عديدة ليدرك ماذا يريد وأن يتوصل إلى جواب سليم، حتى يقرر بعدها، وعند فترات الاستراحة اليومية وبعد أن يتناول سورين غداءه اللذيذ يهتم كثيراً باختيار فنجان القهوة الذي سيرتشف فيه القهوة، وذات يوم كان مساعده إزرا ليفان يقف هناك لحظات مندهشاً عندما يفتح سورين دولابه المليء بمختلف أنواع الأكواب خمسون كوباً يحتفظ بها سورين في بيته، ويبدأ يسأل:

– أي كوب ترغب في أن تتناول فيه القهوة اليوم؟ فيُشير ليفان إلى أحد الأكواب لا على التعيين غير أن سورين لا يوافقه الرأي ولا يقبل جوابه العام هذا فيسأله مرة أخرى بل ويشدد على كلمة «أي كوب» ترغب به الأنا الأصلية الخاصة بك، اليوم؟ «فتش بعناية تامة في قلبك، في كليتيك» يقول سورين وهو يحدق في وجه ليفان، يقف ليفان هناك أمام الأكواب الخزفية المختلفة الأنواع والأشكال والأحجام منها الملون ومنها المورد بالذهبي أو الفضي وغيره، متردداً لا يعرف ماذا يختار، وإن حصل واختار أحد هذه الأكواب فإنه يعلم أن هذا غير كاف بالنسبة لسورين وذلك لأن اختيار الكوب بالنسبة له يعني الكثير، وسوف يرغمه إلى أن يشرح له وعليه أن يعرف لماذا اختار هذا الكوب بعينه؟ ما الذي مر به هذا اليوم وأثر عليه ليختار ذلك اللون؟ أي المواقف والحالات مرت به؟ كيف أعطاه هذا اليوم الإمكانية وجعل من الأنا الخاصة به تختار هذا النوع من الأكواب؟... إلخ..

«– إن لحظة الاختيار بالنسبة لي هي لحظات في منتهى الجدية» يكتب سورين في الجزء الثاني من كتابه «إما –أو» «وذلك لأنه من خلال اختياراتنا يصبح المرء إنساناً وليس مجرد بابا نويل». إن قدرة المرء على

الاختيار تظهر في أعماق وجوده كم هو حر وأن لدى كل فرد منا حرية في داخله، إن كل اختيار أيضاً حسب وجهة نظر سورين هو إمكانية تحديد هوية الأنا لكل فرد منا، وكي يشعر بها ويتواصل مع الروح ليصبح هوية واحدة كاملة خاصة به، في المرحلة الروحية يكتب سورين في كتابه «إما أو» إن خياراتنا هي غير واعية لذلك فهي لا تحتوي على معرفة حقيقية شخصيتنا، إنها مجرد مرآة تعكس زمننا، أصولنا، مزاجنا، طموحاتنا وعندما نبدأ نلقي نظرة إلى الداخل وندرب أنفسنا على الجوّانية تبدأ خياراتنا تتكشف أمام أنفسنا.

أن يتعرف المرء على نفسه قد يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، يرى سورين، إن ذلك التبصر والتفهم قد يناله الشخص عبر طرق التفافية غير مباشرة وقد تكون فقط لدى الناس الصبورين والأشخاص الجوّانيين الذين يدفعون كل شيء بجدية تامة إلى داخلهم ويتنبهون لردة فعلهم الجوّانية ويسيطرون على إراداتهم الخاصة، إن سورين تنبه إلى ذلك بشكل كبير لدرجة أنه عام 1837 كتب في أحد سجلاته:

«.... أنا أستطيع أن أختبئ من كل شيء أو أكون تجريدياً بكل شيء لكنني لا أستطيع أن أختبئ من نفسي، أنا لا أستطيع أن أنسى نفسي حتى عندما أكون نائماً».

أن يعشق المرء يكتب سورين معلقاً:

«.... ليس هناك شيء أمتع من أوقات الحب الأولى، وقتها مع كل لقاء ومع كل نظرة لديه شيء جديد، يأخذه معه إلى البيت ويشعر بابتهاج وسعادة منه».

يذهب سورين في زيارة إلى عائلة أولسون ويرسل إلى خطيبته ريجينا الرسائل والهدايا والزهور، كما يرسل إليها عطرها المفضل، شال، شمعدان، موسيقى، وفي تاريخ 8 سبتمبر عام 1840 خطب سورين ريجينا وفي اليوم

التالي مباشرة بدأ سورين يشعر بالتردد والقلق وأخذت قوتان تتصارعان في داخله: الأولى الرغبة والتوق إلى الحب، المرأة، البيت، وذاك الذي كان يسميه الخيار، أن يختار بين الزواج والارتباط والمفاهيم المتحجرة أو الخيار الآخر هو عدم الارتباط والسير وراء تلك الإرادة القوية التي في داخله ليكون هو نفسه، لكن الفيلسوف سورين كان غريب الأطوار إما أن يكون زوجاً صاحب مسؤولية أو أن يترك ذلك الخيار، ولكن في المقابل يبقى ذلك الكاتب الحر، كان يرغب حبيبته ريجينا بشدة لكنه أدرك أن تلك الحياة التي يرغب في أن يعيشها ستجرحها كزوجة:

«أن يكون المرء متزوجاً سوف لن يكون أمراً سهلاً». يكتب سورين:

«أن يكون للمرء زوجة وربما أطفال، إنه أمر مزعج، صعب، صعب، أن يكون لك زوجة وأطفال يعيشون معك، ذلك ضرب من المستحيل».

لم يكن سورين مثل هؤلاء الأثرياء البوهيميين الذين يدافعون عن أنفسهم فقط، كان سورين يعتقد عندما ينظر إلى داخله يرى أن هناك رسالة قادمة أيضاً من أعماقه الجوّانية وأن الكتابة هي ليست هواية يحبها فقط وإنما هي شيء قادم من وجوده، من روحه، يرى أنه خلق ليوصل أفكاره وينقلها إلى العالم والأجيال القادمة من بعده، كان ذلك هو المعنى الحقيقي لهدف سورين في الحياة وأن ذلك يتطلب منه التضحية، لقد أدرك سورين ذلك منذ زمن بعيد وحتى قبل أن يلتقي بريجينا، فقد سمع صوتاً من داخله ينادي لكنه لم يكن متأكداً منه بعد، فسار ضد هذا الصوت وبدل أن يستمع إليه مضى عكسه وخطب ريجينا ولكن كلما مر به الوقت كلما ازداد الصوت منادياً، حتى أصبح أقوى وأعلى:

« .... الحب ذلك الارتياح العظيم، تلك المتعة الرائعة كيف تقف لوحدها منفردة مُسيطرة على كل كيانك»!.

إن سورين يسب ويلعن نفسه في دفتر يومياته، إلى أن يقول بعد ذلك:

« .... لا .. لا يمكن للإنسان أن يكون هو وليس هناك وسيلة أخرى غير أن يقف في طريق إنسان آخر» وأخيراً .... ملاحظة: « ... أنا بحاجة إلى حريتي»!.

إن سورين لم يستطع أن يحصل على الاثنين معاً - المرأة والكتابة- إما الجلوس في أحضان المرأة الدافئ الذي يحب في تلك الزاوية على الأريكة أو الكتابة وحيداً على تلك الطاولة في ذلك المكتب الكئيب؟ - يجب أن تختار- إما - أو!.

إما أو، أو الاثنين معاً!

لكن كيف وصل سورين إلى تلك النتيجة ووصل إلى ما يريده؟

عندما حاولت ذات يوم أن أنصت إلى داخلي ظهرت أحاسيس عجيبة غريبة، مزيجاً مخلوطاً من المشاعر، أفكاراً، صوراً، احتياجات، لم أجد شخصاً ثابت المشاعر، وليس هناك شخص راسخ على إحساس واحد أو على انفعال واحد معين دون التغير في المشاعر والتنقل من إحساس إلى أحاسيس أخرى، أنا رجل على حركة وتغيير دائم، لحظات أشعر بالهدوء والرضا ثم بعد ذلك أشعر بأن هناك شيئاً يوقظ قلقي وهكذا وأحياناً يحدث لي شيء ما ثم أشعر بالسعادة وأكون فرحاناً أو أصبح حزيناً فجأةً وأشعر بالغضب واليأس، لحظات أشعر بأني أريد شيئاً ما ثم بعد ذلك - لا، ربما، لا أرغب في أي شيء كان.

كيف لي أن أعرف إرادتي الحقيقية وهذا الكم الكبير الهائل من اختلاط المشاعر ولخبطتها في نفسي والمتجذرة في روحي؟

- كيف فعلت ذلك أنت يا سورين؟

إذا قرأ أي شخص رسائل سورين إلى ريجينا خطيبته ودرس كيف كانت تصرفاته خلال تلك السنة لاكتشف أن سورين كان يبدو وكأنه يفحص ويتحقق من داخله وذلك عبر تركيز اهتمامه على نفسه وأنه أكثر انتباهاً لها فهو يسجل كل شيء يحدث له داخل نفسه ومن ثمّ يتبع نزواته

وحوافزها، أحياناً ينهال على ريجينا ويغرقها بالهدايا وكلمات الحب اللطيفة وغيرها ثم بعدها وفي الأسبوع الذي يليه ينقطع عنها ولم تعد تسمع عنه أي شيء أبداً، ثم يعاود بعد ذلك الكتابة لها فجأة، رسائل طويلة مليئة بالخطابات الفلسفية والأساطير والرموز الغامضة والغريبة، وبعد أيام ينسى، يذهب إليها وينسى أنه على موعد للقاء بها. وهكذا يبدو الأمر كما لو أنه قد أعطى لنفسه الإذن ضد جميع الأعراف والتقاليد والاتفاقات التي ينص عليها المجتمع وركز فقط على داخله ليكشف نفسه.

قد يتساءل المرء بماذا كانت بالمقابل تفكر ريجينا كيف كانت ترمي كل هذا وراء ظهرها، بسبب تقلباته تلك.

كان سورين يستعمل كتابته في الصحف وفي دفاتر يومياته والكتابة على الأوراق وغيرها يعتبرها أيضاً كوسيلة للاختبار، ملاحظات مكتوبة على الأوراق ومتناثرة هنا وهناك وجميعها مليئة بالأفكار وصيحات التعجب والأحاسيس المتضاربة، كان سورين يقرأ جميع الكتب - علم اللاهوت المسيحي وبالطبع أيضاً كتب القصص والروايات، الشعر، الأدب، الكتب العلمية، الفلسفية، المجلات الفكاهية، وكان يقرأ حتى القصاصات المرمية في القمامة يأخذها ويقرؤها أيضاً، جميع تلك الكتب كانت تحمل أثر بحثه إنه يعمل كالكلب ذو الأذنين يبحث ويقرأ بانتباه تام جميع الصفحات والكلمات من فوق إلى تحت ويكتب الملاحظات ويؤشر أو يضع خطوطاً تحت الأسطر والكلمات بأقلام حبر ملونة متقدمة من اللون الأزرق، الأحمر، الأسود، قلم رصاص، غرافيت ويسجل مختلف الإشارات، إن جميع الكتب مهما كانت تحتوي من شروح ومواصفات وأحداث ربما تتحدث عن شيء قد يشعل شرارة في روحه، شرارة قد تجعل صورته عن نفسه وعن العالم واضحة أكثر. أنا شخصياً أميل أكثر إلى الإصلاح، أحاول دائماً أن أكون منظماً أكثر، كما لو أنني أبحث دائماً عن مدينة فاضلة وكأني أفتش عن

شكل متوازن، ثابت، أتصور بأنه موجود وراء كل تلك الفوضى والتناقضات في الحياة إن ذلك يذكرني قليلاً بالفيلسوف اليوناني أفلاطون وفكره، يرى أفلاطون أن لكل شيء في الواقع نوع من النموذج المثالي له إن لكل شيء فكرة مثالية، أي أن أصل إلى كل شيء في أعماق نفسي هناك،هناك شيء ثابت لا يتغير ولا يتقلب داخل نفسي هناك توجد الأنا المثالية الخاصة بي.

اليوتوبيا، يعلق سورين، كيف يمكن لك أن تسيطر على جميع الأنا الخاصة بك، تتحكم في الجينات أو تسيطر على وظائف الجسد كالكبد أو القلب أو تذكر مليارات الخلايا الموجودة في الدماغ، مع تربيتك، وكل شيء شربته وسحبته إليك، مع حواسك الكثيرة والحسية الخاصة بك، انظر إلى نفسك تأملها، اكتشفها، فتش بها وكأنك في رحلة استكشاف وسير عليها كما لو أنك تسير على أرض ليس لها حدود لكنك غير قادر على أن ترسم لها خريطة وذلك لأنها أرض لا تحدها حدود وليس لها نهاية ومع ذلك أنت تتغير وكل خيار تختاره وكل تصرف تقوم به سواء أكنت واعياً له أم غير واعٍ، مدرك لوضعك أم غير مدرك، فإنك تقوم بتشكيل نفسك، انظر إلى نفسك إنها عبارة عن تجربة طويلة، أو كما قال (دلاي لاما) ذلك البوذي القادم من التيبت، قال ذات مرة:

> **«أنا أشعر بحزن شديد عليكم أنتم أيها الغربيين، لأنكم تعتقدون أنكم بُنيتم لتعيشوا بضعة عقود قليلة فقط، بضعة عشرات من السنين، ليس لديكم سوى 80 سنة فقط لتنظموا أنفسكم فيها، بينما من الأسهل لي أن أعتقد بأن شخصيتي قد تشكلت خلال وعبر 2500 حياة، وبأني متأكد تماماً من أنني سوف لن أستوعب أبداً وبشكل كامل لماذا أنا كما أنا وعلاوة على ذلك أنا أختلف عنكم وذلك لأنني أتجسد مرات ومرات عديدة، بالنسبة لي أنا**

أفعل كل شيء حيال ذلك المفهوم فلدي حياة لا تنتهي أبداً».

في ربيع 1841 بعد أن حصل سورين على شهادة الدكتوراه في السخرية من سقراط بدأ يقرأ في معهد القساوسة وصار قلما يلتقي بريجينا خطيبته وقد أمست الأمور لريجينا أكثر غموضاً فقد بدأت تخفت لقاءاته معها تدريجياً وسوف يختلق لها جميع الأعذار الممكنة والمستحيلة وخلال تلك الفترة كان سورين يتعذب ويتمزق بين احتياجاته المختلفة.

لكن لماذا يا سورين، هل تعتقد أنه من الصعب عليك أن تتخذ قرارك؟

نعم، إنه من الصعب ذلك لأننا نعتقد أننا نستطيع أن نختار الصحيح ولكن لا يمكننا ذلك! يجيب سورين.

– وهل نستطيع ذلك؟

– لا، على الإطلاق، لا يمكنك أن تكون متأكداً من اتخاذك قراراً أبداً، لا يمكن لك سوى أن تراقب فقط، أن ترصد كل شيء من أصغر خلية التي لا ترى بالعين المجردة إلى ذلك الثقب الأسود في السماء، أما ذلك الذي يستطيع فهو ينظر إلى كل حركة في الفضاء يراقب البحار والمحيطات يمكن للإنسان ساعتها أن يتوقع ويكون متأكداً ماذا سيحدث عما قريب في الجو.

إذ لم يكن لدينا علم ماذا سيحدث صباح الغد، ينبغي علينا التعايش جميعاً مع العلم والمعلومات التي نحصل عليها نحن لا نملك أية معرفة عما سيحدث غداً ولا نعرف ما سيحدث في الدقائق أو حتى الثواني القليلة القادمة إن كل شيء في حركة دائمة، الجميع يؤثر على بعضه البعض وكل شيء داخل في عملية واحدة عملاقة جداً، ينبغي على المرء أن يختار دون

أي ضمان دون أن يعرف كيف لا تتفاعل خياراته مع قرارات الآخرين أو مع قوة الطبيعة غير المتوقعة.

-هل تعطيك تلك الفكرة القلق؟ يسأل سورين بمشاكسة، معروف عن سورين منذ فترة المدرسة أنه شخص مزعج يُضايق الآخرين بأسئلته هذه وأنا أهز برأسي موافقاً، لا شيء أستطيع أن أتمسك به وليس هناك أي ضمان لأي شيء ولكن فقط أنا أكون متغيراً وأتحمل كل شيء يأتي.

-حسناً! يقول سورين، أن ينتابك القلق فهذا أمر طبيعي تماماً!.

إن هذا يجعلني أفكر بفرويد الياباني العالم النفسي شوما موريتا «1874- 1938»، الذي يرى أن الإنسان تقوده قوتان، الأولى رغبة شجاعة تدفعه إلى الأمام والأخرى قوة خائفة جبانة ترغب في أن يبقى في مكانه لا يتحرك، جزء منا يرغب في أن يخرج إلى مغامرة جديدة والآخر يرفض ويريد أن يبقى في المنزل لا يخرج، جزء منا يرغب في أن يغير حياته والآخر يتجنب ويتفادى ذلك، كان جزء من سورين يرغب في الخروج والابتعاد عن كل شيء والبحث عن الحرية والآخر يريد أن يعيش ويغرق في حضن ريجينا البرجوازي الآمن، الحنون. ليس هذا ما يعنيه شوما موريتا فقط وإنما ينبغي أن ذلك الصراع بين تلك القوتين هو الذي يجعلنا نتوازن- نكون في وضع متوسط- حذرين، معتدلين في مغامراتنا وهذا ما يرفع من فرصتنا للعيش حياة طويلة طيبة.

وعلى الرغم من ذلك فإن للقوتين آثاراً جانبية تُثير الإزعاج وذلك لأن مقياس القوة الجوّانية يخلق توتراً في النفس وذلك الصراع اليومي وربما في كل لحظة هو الذي يُسبب إحساساً بالقلق لدى المرء وعدم الرضا والإزعاج، إذاً إنه قلق، لكنه غير طبيعي، يقصد شوما موريتا: يصعب على المرء تجنبه أو تفاديه، لذا فمن الأفضل أن يتعلم التعايش معه.

إن رأي سورين هذا قد ينزعج منه الكثير من هؤلاء الذين يتهربون

من خيا راتهم المهمة عبر طرق مختلفة وفي مؤلفاته يعد سورين قوائم عديدة في ذلك الإطار:

- سابقاً كان الحنين أفضل من الآن، على سبيل المثال، أو تلك التأملات إنها ستصبح أفضل بعد فترة، إن دعم تلك القرارات البائسة، السيئة، حسب وجهة نظر سورين، هي التي ستقودك إلى الأخطاء فقط، إن ذلك الذي حدث فعلاً لا يمكن له أن يتكرر مرة أخرى وبالتالي لا يمكن له أن يُشكل أساساً جيداً لخيارات اليوم وذلك الذي ما زال لا يحدث، لم يحدث ولذلك سوف لن يحدث كما أنت تعتقد.

إن أي خيار، يقصد سورين كيركيجارد، يمكن للمرء أن يختاره عبر مساعدة الجوّانية الخاصة به فقط وذلك يأتي انطلاقاً من الأفكار والأحاسيس التي قمت أنت تماماً باختيارها، لحظة الاختيار مع وعي كامل بغض النظر عن ما اخترته سوف لن تعرف أبداً ما هو قرارك عندما تحصل على أي نتائج أو عواقب سلبية، أنت كائن لا تملك وليس لديك سيطرة وذلك لأن لا أنت ولا الحياة ثابتة، كل شيء كائن في عملية دائرة والشيء الوحيد الذي يمكن السعي للوصول إليه هو قرار مؤقت «ليس له معرفة موضوعية» هذا الذي عبّر عنه سورين:

«... إن ذلك مكرس لدى الجوّانية الأكثر عاطفية».

-لا، تستسلم الآن يا سورين، إنك تقول أولاً أن الاختيار هو أقصى إثبات لديك، لأني أنا كائن أستطيع أن أصف أن أنتج ذلك النوع من طريق الخلاص ثم بعد ذلك تقول ليس هناك إمكانية لتحسم أمورك، سواء كان قراري صحيحاً أم خطأً وإن تلك الحرية الرائعة من الاختيار التي رسمتها تضعني في وضعية غير ثابتة، غير أكيدة مثل حياة قلقة وعليها بهارات.

-أنا أستوعب أنك تريد أن تُسيطر على وضعك! يهز سورين رأسه بصبر واستمتاع:

لكن الحقيقة هي أنك لا تستطيع أن تحصل على تلك السيطرة أبداً ويجب أن تختار رغم أنك لا تعرف، أنت تشتري قارباً ربما، أو لعله يعطيك أنت وعائلتك عشرة عطل صيفية رائعة تستمتع بها بين الأرخبيلات والموانئ الجميلة، أو ربما قد تفقد السيطرة على السفينة أيضاً ويقع حادث ويموت أحد أصدقائك فتتحول رحلتك إلى حزن رهيب أو على سبيل المثال تبقى في عملك الممل بالرغم من أنك حصلت على عرض آخر والعمل في مكان جميل وأكثر متعة لكنك ترفض التغيير لأنك تشعر بالأمان في عملك هذا، بعد مرور ثلاث سنوات من العمل تباع شركتك لمجموعة شركات أخرى وتتغير الإدارة ويدعوك المدير إلى عمل آخر أو تركه والذهاب إلى الجامعة لتكملة دراستك، وفي نفس الوقت الشركة التي كنت تتحرق شوقاً للعمل فيها تنهار وتعلن إفلاسها ويصبح الجميع عاطلين عن العمل.

والآن تأتي واحدة من أشهر كلمات سورين المضيئة إنها جملة حكيمة لكنها غير واضحة في الترجمات التي كتب بها، وهي من كتاب (إما أو) الجزء الثاني:

> **«هكذا إذا كنت تريد أن تفهمني بشكل صحيح أستطيع أن أقول لك ببساطة أن لحظة الاختيار هي أن المرء يختار أقل ما يمكن من الصحيح، وذلك لأنه يعتمد على قوة الطاقة وتحديد كمية الجدية التي لديه والتركيز على المشاعر العاطفية التي في داخله، هنا تظهر الشخصية في داخلها الأبدي الخاص بها، وبواسطة ذلك تتعزز سمات الشخصية، وحتى لو كان اختيار الشخص غير صحيح، فسيأتي ذلك الاختيار على أساس الطاقة التي حددت قوة ذلك الاختيار، وبهذا يتكشف له بعد ذلك على أنه كان خاطئاً»!.**

- ماذا تقصد في النهاية يا سورين؟

- شيء من هذا القبيل تقريباً: بالطبع أنت لا تعرف في تلك اللحظة أن اختيارك كان صحيحاً أم خاطئاً ولكن إذا كان هذا الاختيار قادم من داخلك أنت من اقتناعك الجدي واعتقادك الجوّاني الخاص بك فإنك بهذا سوف تصل قريباً - قدر الإمكان- إلى الحقيقة، بالإضافة إلى ذلك يمكنك بعد ذلك من امتلاك نفس القدرة على التقييم، بما فيها أثر ذلك الفعل وفي وقت لاحق ترى تأثير ذلك الفعل على قراراتك واختيارك التي قمت بها وربما تغير رأيك في كل اختيار قادم أو أي قرار تتخذه فأنت في كل تقييم تقوم به أنت تحصل على صورة أوضح عن نفسك وعن كل شيء موجود آخر.

إن العالم موجود في عملية دائرة أبدية لا تنتهي أبداً وبهذه الحال أنت تشارك في هذا الجريان بوجودك الخاص وكيانك الكامل كله وبقدر ما تقدر وبأقصى حد عندك.

الاختيار، يكتب سورين:

«**إن الاختيار يمنح الإنسان القدرات والمهارات على الفهم والهدوء**»!.

❖ يبدو أن شرحك هذا يؤكد على أن الإنسان هو وحيد تماماً، يقول شخص آخر لسورين، بمعنى أنا والجوّانية الخاصة بي واختياراتي وقراراتي وتقييماتي كلها وحيدة تماماً.

❖ أنت على حق، من الصعب أن يكون الإنسان وحيداً ويعيش وضعاً منعزلاً عن الآخرين، يقول هذا الذي ادعى وأطلق على نفسه هذا المفهوم وكتب يقول:

«بأن الإنسان شجرة وحيدة أنانية» لا أحد يستطيع حقاً مساعدته،

لا عائلته ولا أصدقاءه ولا العلماء ولا الخبراء، ذلك لأن لا أحد من كل هؤلاء يمكنه أن يكون متواجداً هناك أينما أنت متواجد.

لقد كان الأهل والمعلمون والفلاسفة وعلماء الدين جميعهم يُشكلون خبراء لسورين، ولو كان يعيش سورين اليوم لكان من المحتمل إضافة المعالجين النفسانيين والاستشاريين والمدربين والصحفيين إلى قائمته أيضاً. إن كل قراراتنا هي قرارات فردية وتتعلق في المستقبل وجميع المعارف العامة والقديمة والتي يمكننا الحصول عليها من بعضنا البعض ومن الآخرين كما تتساقط كلمات سورين الشهيرة والتي كثيراً ما تناقلت وقيلت على لسان الآخرين:

«إن الحياة لا يمكن أن تستوعب إلا بالنظر إلى الوراء، إننا نستطيع أن نفهم الحياة من خلال الماضي ولكن يجب أن تعاش بالنظر إلى الأمام»!.

إن المرء لا ينظر إلى الوراء فقط فيمتنع ويتراجع ولا يستطيع فعل أي شيء، ولا يظل واقفاً لفترة طويلة ينظر فقط إلى الأمام، بل إنها تفهم عبر أن تكون جوّانياً وأن تستمع بجدية إلى صوتك الجوّاني وتفعل كما فعل سورين فبعد تفكير وقلق كبير وصل سورين إلى قراره المصيري وذلك في 11 أوغست من العام 1841 فسخ سورين خطوبته من ريجينا أولسون.

«إن الشيء الكبير هو لا أن أكون
هذا أو أكون ذاك، وإنما أن أكون أنا
نفسي، وكل شخص قادر على أن يكون
هو نفسه، إذا أراد ذلك»

- إما أو-

«أن تستخدم العالم، دون أن
تدمن عليه، أو تسيء استخدامه!»

- إما أو-

الخطوة السادسة!

أن تجرؤ على التصرف!

يمكن أن يشعر المرء كما لو أنه بدأ يتنفس الصعداء في داخله وذلك بعد لحظات طويلة من التفكير والقلق والكرب النفسي، في النهاية يتخذ قراره:

- حسناً، سأفعل هذا الشيء.. الآن سأنفصل عن خطيبتي.. سأغير عملي.. سأنتقل إلى مكان آخر.. سأسافر.. الآن سأقول الحقيقة..

-أنا سأفعل هذا..

لقد أطلق سورين على هذه الحالة وأسماها بالقفزة «الطفرة» لنوضح ذلك ولنصور الوضع بشكل واقعي ملموس يقف المرء هناك حيث حافة الهاوية وحيداً على قمة جبل عالٍ ينظر إلى تحت، إلى العمق، إلى الأمام للمستقبل المجهول، إلى الآمال المحتملة غير المعروفة، يقف هناك متردداً، هل أعمل هذا أم لا ينبغي عليّ عمله؟

إن الإنسان يحاول أن يحسب ما هو الأفضل بالنسبة إليه، هل أبقى واقفاً على تلك الصخرة الفقيرة المزعجة غير المريحة، لكنها آمنة، أم آخذ خطوتي إلى الأمام وأخرج إلى المجهول؟ في النهاية يصل المرء إلى نقطة ما إلى مفترق طرق، يكتب سورين، حيث هناك لم يعد التفكير والتأمل والتكهن في المستقبل، بالرغم من أن المرء لا يعرف ما ينبغي عليه عمله إلا أنه يتبع فقط أقوى دافع لإرادته الجوّانية:

- خذ نفساً عميقاً، أغلق فمك وهيا -اقفز!

أذكر ذات يوم عندما كنت أقدم استقالتي في العمل كان من الصعب عليّ اتخاذ قرار كهذا، كانت معاناة كبيرة كنت مُكره على اتخاذ ذلك القرار لقد كنت أعيش صراعاً كبيراً وهناك كمية هائلة من التقلبات والتغيرات في آرائي، أيام وليالٍ طويلة من الأرق والتفكير وعدم النوم وفي نهاية المطاف أدركت بأني لا أملك القرار وليس لدي خيار رغم أن رأسي كان يقاوم بشدة ويصارع ضد ترك العمل لكن الجسد يصرخ كله بقوة ويقول لا، لا أتحمل لم أعد قادراً على العمل ينبغي أن أتوقف الآن! وقبل أن أعود إلى المنزل كان ذلك يوم الأربعاء كتبت رسالة استقالتي ونسختها إلى خمس نسخ ووضعتها في خمسة ظروف وكتبت عليها العنوان ثم أرسلتها إلى خمس مدراء مختلفين ووضعت الرسائل الخمس على طاولة مكتبي، أنا عملت اختياري لكنني ما زلت لا أجرؤ على التصرف وكما يقول سورين:

«أن تختار فهذا شيء، لكن لا تستطيع أن تكون أنت، إلا بعد أن تسير وتحقق ذلك الخيار عندئذ تكون أنت نفسك».

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى العمل مبكراً وهناك رأيت رسائل استقالتي كانت مطروحة على المكتب، في تلك اللحظة استطعت أن أشعر بما تحدث عنه سورين، كنت واقفاً هناك على حافة المنصة العالية وأصابع أقدامي خارج الزاوية وأنا خائف ومتأرجح ومتردد، كنت مدركاً بأني إذا أخذت الرسائل وأرسلتها إلى مدراء عملي سوف تتغير حياتي وتأخذ مجرى ثانياً، كنت واقفاً أمام خيار تماماً - إما أو- إما أن أترك العمل أو أستمر فيه هنا وفي هذه اللحظة تماماً يمكن لكل واحد منا الإحساس بها، إنها لحظة ما قبل اتخاذ القرار وقبل التصرف والشروع في الفعل، ذلك الفعل

الذي قصده سورين هو قرار الإنسان إنه لحظة خيار وقرار حر تماماً، إن الإحساس بالحق والعدالة هو ليس أن تفكر بالقرار فقط دون أن تسير وراء نداء صوتك الحقيقي، إنه قرار قادم من وجودك أنت الخاص بغض النظر عن الحواجز والقيود والمطالبات والمفاهيم، يعتقد سورين أن ذلك ممكنٌ، إن الطريقة الوحيدة الصحيحة لتكون إنساناً هي أن تستعمل حريتك أنت، في حين يرى الآخرون عكس ذلك تماماً يعتقدون أننا بشر محددون في أطر من الجينات وأننا مسيرون بقوة المعايير من المبادئ والعلاقات، وأننا نخدع أنفسنا إذا فكرنا بأننا أحرار وأن الحرية موجودة أصلاً، لكن سورين لا يرضى بهذا الكلام ويرفضه تماماً ويرفض أية موانع أو حواجز أخرى تعيق حريتك، بغض النظر عن ثقل الحمل الذي فرض علينا أن نحمله فوق ظهورنا، وبغض النظر عن آراء أقربائنا والآخرين بنا، ومهما كان تذمرهم واستياؤهم من تصرفاتنا ومهما كانوا يمانعون ويتحدثون ضد مبدأ أخلاقياتنا العامة فنحن ينبغي علينا أن نسير وراء قائد طريقنا الجوّاني، الروحي، هو ذلك الذي نتوق ونتحرق شوقاً إليه هو الذي يطلق عليه سورين - هيامنا وولعنا- . يعتقد سورين أن الإنسان حر حتى وإن كانت هذه الحرية ضد المبادئ العامة، ومهما ينظر إلينا المجتمع أننا على خطأ، فالحرية ليس لها حواجز، وينبغي أن نتطور ونسير وراء داخلنا.

لا تنسى أنك لست ممثلاً، تقوم بدور تمثيلي في مسرحية مكتوبة من قبل شخص آخر- يُشير سورين في أحد كتبه- بمعنى أنك لست لعبة في مسرحية تمثل شخصياتها، يكتب لك أحد الأشخاص دوراً ما ويقرر أن تكون شخصية كذا مرسومة بهذا الشكل، إن المخرج هو الذي يتحكم بنوع الدور وما التصرف الذي تقوم به تلك الشخصية، إنها شخصيات تعمل كما أراد ورغب المخرج في أن تكون عليه، وذلك لأن المخرج هو الذي يقود العمل وهو الذي يقرر ماذا تفعل تلك الشخصيات أو ما لا تفعله إنه هو الذي

يكوّن الدور، إن دوره يقوم على مجموعة من أعماله وتصرفاته هو وبمساعدة أفعاله تلك تخلق شخصيته وتصبح هي نفسها الحقيقية، يقصد سورين إن الحقيقية ليست ما تقوله أنت ولا هي أحد العلوم أو المعارف والمعلومات التي تعرفها وتتفاخر بها ولا هي الأخلاقيات والمبادئ التي تحملها ولا هي قادمة من الأفكار أو النظريات التي تتكئ عليها، إن الحقيقة الوحيدة هي موجودة في أفعالك أنت، تلك الأفعال التي تفعلها، هي التي تُعرّفك من أنتَ.

جَرِّب، ثم جَرِّب

ثم أعد مرة أخرى وجَرِّب من جديد

ليس القدر هو من يقرر كل شيء عنا دائماً، لكل نصيبه في الحياة وغير ذلك من تلك العبارات هذا نسبي، أنت دائماً من يمكن له أن يكون ويصبح شخصاً آخر وذلك عن طريق قيامك بأفعال أخرى، نحن نختار الحياة التي نريد أن نعيشها وهي التي تُشكلنا

«لذلك أنا أناضل من أجل الحرية» يكتب سورين في كتابه «إما أو»:

«أنا أكتب من أجل المستقبل، من أجل - إما -أو من أجل ذلك الكنز الذي أملكه في داخلي، أكتب بهدف أن أترك كتاباتي للقادمين من بعدي، للناس الذين أحبهم، للعالم..[....] إن ذلك الكنز هو الإنجاز العظيم الموجود داخل الجوّانية الخاصة بي، هناك داخل داخلك أيضاً توجد إما -أو هي التي تجعل من أي إنسان أن يصبح جزءاً من الملائكة!».

- أوه، كم تبالغ يا سورين، «ملائكة» وأي المطالب والشروط التي وضعتها، من السهل أن تقول يفترض بالمرء أن يختار ويهتم بنفسه دون أن يأخذ بعين الاعتبار مراعاة الآخرين، ولكن أنت كنت شاباً ذا مكانة عالية في المجتمع الدنماركي وورثت عن أبيك بابا ميخائيل أملاكاً وأموالاً مما جعلك تصرف على نفسك وتعيلها دون أن تعمل أو تحتاج لأحد، أنت وحيد

وليس لديك مسؤوليات ولا عائلة أو أولاد تعيلها هناك قلائل من يكونون مثل وضعك يا سورين؟

ربما لا يرغب في أن يرد، بعد أن كانت لديه رغبة في أن يصعد الحصان ويلف حول القرية نادى سورين على حصانه وركبه وسار.

«- ربما لا، لكن أغلب الناس تعني الحرية لهم أكبر بكثير مما هم يعتقدون». وصعد سورين إلى العربة التي يجرها الحصان وقال:

«- هيا تعال اركب معي وانظر من حولك إلى الناس في مدينة كوبنهايكن، مممم، ماذا ترى؟ هل ترى حشداً من الأفراد المستقلين؟ لا، في الحقيقة أنت ترى شعباً، مجتمعاً بصورة عامة، أغلبهم يرتدون ملابس متشابهة، يمارسون نفس الهوايات، يحملون نفس الآراء، يعيشون نفس الروتين اليومي، إنهم لا يعيشون عبر أنفسهم وذواتهم أو رغباتهم الجوّانية وإنما يعيشون مبدأ صورة طبق الأصل من الآخر، هم عبارة عن صور منسوخة أحدهم عن الآخر».

لكن هل من المؤكد بأن كل البشر يرغبون حقاً في أن يحققون شروط سورين التي ينادي بها؟ هل حقاً أن أغلب الناس يتوقون إلى الحرية؟

- نعم، على أية حال هذا ما كان يعتقده سورين، إنه لا يرى أو يتخيل أمامه بعضاً من الأعمال العظيمة والرائعة ليحقق ذاته وإنما أن يختار الإنسان حريته كي يحققها، وفقاً لرأي سورين عليه أن يكون هو نفسه أمام ذلك الخيار سواء كان تافهاً، متواضعاً، صعباً أم سهلاً، سواء عليه اختار أن يبقى في البيت أو يذهب إلى الدعوة التي لا يرغب داخله بها، أن يملك كنبة في صالته مثل الآخرين أو لا يملك، أن يقضي وقته كله في قراءة الكتب ويستمتع بذلك أو أنه يعمل كما كتب سورين في كتابه «إما -أو»:

«إن الشيء الكبير هو أن لا تكون هذا أو ذاك بل أن تكون أنت نفسك وهذا يمكن أن يصله كل إنسان إذا رغب في ذلك»؛ كن أنت وراء نفسك

الصغيرة، سر وراء رأيك في كل خيار تقع عليه، اتبع إرادتك الجوّانية اذهب حتى وراء أسئلتك التي ليس لها قيمة وحاول الإجابة عنها كل ذلك سيعزز وجودك المميز ويقوي ذاتك.

بينما كنت أتنفس الصعداء، أخذت نفسين عميقين وبجرأة عالية أمسكتُ برسائل الاستقالة ومشيت في الممر الفارغ الطويل ماراً بهيئة التحرير إلى أن وصلت إلى صندوق البريد فوضعت الرسائل فيه وتركتها هناك في الصندوق، عندها شعرت بحسرة وحزن شديد، الآن علي أن أغادر هذا العمل الذي أحببت لقد فهمت بعد ذلك أن وضعي هذا كان منطقياً وتبين لي بعد فترة قصيرة أن موقفي هذا كان يحتوي على مواجهة وتحديات جديدة في حياتي.

فكر سورين أيضاً بصعوبة، فبعد معاناة طويلة، وذلك في 11 أوغست عام 1841 أتى بهذه الجملة:

«لا شيء آخر أمامي أفعله سوى أن أتصرف بجرأة عالية وأذهب إلى أقصى حدود الجرأة!» إن أقصى الحدود التي وصلها سورين كانت هي يومين فبعد أن طلب سورين يد حبيبته ريجينا للزواج منها تركها وفسخ الخطوبة بعد يومين فقط، كان في الحقيقة يعشق خطيبته ريجينا ولا يريد أن يهجرها وظل يحبها طوال حياته لكنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً حيال ذلك، ذلك لأن الأنا الخاصة به وروحه وكل داخله كان يجبره على أن يترك حبيبته وهكذا نزع سورين خاتم الخطوبة وكتب رسالة طويلة وأرسلهما في طرد بريدي إلى الآنسة ريجينا أولسن، بورسجاده 66:

«إذاً، دع ذلك يحدث» يكتب سورين، «قبل كل شيء لا تنسي ذلك الشخص الذي يكتب هذه الرسالة، سامحي ذلك الإنسان الذي استطاع أن يفعل كل شيء لكنه فشل في أن يجعل فتاة تكون سعيدة»

هكذا أصبحت ريجينا فتاة يائسة وصار والدها تركيلد غاضباً يسب

ويلعن أما شقيق سورين قطب حاجبيه ومجتمع كوبنهايكن من النساء والرجال هزوا أنوفهم مشمئزين من ترك سورين خطيبته وبعد عدة شهور يسافر سورين إلى برلين، وهناك بينما هو حانق، غاضب على كل شيء يكتب كتابه الأول والرئيسي وبأكبر سرعة «إما -أو» الذي تحدث به عن حنين الإنسان ورغبته في البحث عن معنى حياته وصعوبة الاختيار، لقد اتخذ سورين قفزته وسبق الآخرين، اندفع بقوة عنيفة عبر العتمة إلى الداخل وهناك تحت السطح في الأعماق استطاع أن يجد مصدر إزعاجه القادم من أفكاره الخاصة، ورأى قدرته الرائعة على التأليف والكتابة، إن ذلك الشيطان الكتابي السريع الذي أطلق عليه سورين والذي كان يتكلم معه عندما يتكلم سورين، الذي كان سابقاً يجهله ولا يعرف بالضبط ما الذي ينبغي عليه فعله، لقد حصل على مهمته الآن وهي دراسة وفهم أفكاره وحياته وهكذا ترك كل شيء ودعاه يمضي معه وسار معه إلى نهاية حياته، إنهما مشتركان في نقطة واحدة هي - الكتابة- ذلك الطالب وعالم الدين اللاهوتي الذي سيصبح قساً وبمساعدة تصرفاته وأفعاله أصبح فيلسوفاً ومعلقاً وكاتباً:

«وهكذا فجأة بعد دوامات التفكير المُحيرة الكثيرة كان كل شيء يجتمع معاً، ويسير مع بعض، وأصبح لي شيئاً أريده».

بعد ست سنوات من الأزمة في مدينة جيلايه وبعد أن ودع سورين حبه الوحيد وأكبر عشق في حياته وجد الشيء الذي «سيموت ويحيا من أجله».

إن نظرية سورين كيركيجارد جعلتني أفكر في فترة السبعينات عندما خلق الأزواج من أتباع سورين مثل بيرلز وغيره وبدؤوا يتصرفون كالمخلّصين ومنقذي الروح للبشر فابتكروا أهدافهم لتطوير الإنسان وأصبحوا هم أنفسهم وبعض الأحيان كانوا يتصرفون بقساوة وفظاظة ويتلفظون بكلام

جارح مع الآخرين وأحياناً بطريقة شرسة قبيحة يكلمون الناس فيها ويبررون ذلك بقولهم:

«إن هذه هي حقيقتي أنا، إنها الحقيقة الخاصة بي» ويتساءلون كيف يمكن للمرء أن يتجنب أن يكون ثملاً إلى أعلى حد بالروح الخاصة به؟ كيف يمكن أن يصبح المرء حقيقياً، أصلياً دون أن يكون مُهجّناً، دون أن يسحق ويمشي فوق الآخرين؟

الجوّانية! مرة أخرى إنها هي الجوّانية، إن المرء يلقح نفسه بالجوّانية وإن أي إنسان يكون كاشفاً نفسه بشكل جاد ودقيق ويعرف داخله بعمق وبنفس العمق يعرف داخل الآخرين، ينظر إلى احتياجات الآخرين بنفس الدرجة التي ينظر بها إلى احتياجاته الخاصة ينظر كما ينظر إلى ما تحتاجه نفسه هو:

«أن يعيش نفس القانون الذي يريده الآخرون أن يعاملوه به ويطبق نفس المعاملة التي يرغب في أن يعامله بها الآخرون».

- لا، أنت الآن تزحلقت إلى الوراء، ورجعت إلى عام 1700 مرة أخرى، يقاطع سورين مع حسرة طويلة، لقد كان الفيلسوف إمانويل كانط 1724-1804 يرى أنه يمكن للعامة أن يضعوا قواعد عامة حول كيفية تصرف الناس مع بعضهم البعض وأطلق عليه بـ«الأمر» إنه فعل الأمر الذي يستعمل كصيغة للأمر المطلق غير المشروط، لقد بنى كانط تلك الفكرة في مسرحيته التي كتبها وهي لو قشرنا جلدنا السطحي كله لوجدنا نحن البشر في الباطن في أعماق داخلنا أننا نشبه بعضنا البعض، «أنت تعرف أن الذي يكون في أعماقي هو نفسه الموجود في أعماقك أنت أيضاً» هذا ما وصل إليه الفلاسفة منذ زمن بعيد.

- ولكن ما معنى أن يكون للإنسان في الأساس احتياجات مختلفة تماماً عن احتياجات الآخر؟

- إن البشر ربما كانوا متشابهين، وربما لا، أنا أميل إلى الظن بأن البشر مختلفون تماماً عن بعضهم البعض، إذاً، الجوّانية هي أن أنظر إلى الآخر على أنه لغز غامض كبير تماماً مثلي أنا، وعلي أن أُغير تحليلاتي عن الشخص الآخر إلى نوع آخر من التفسيرات، إلى نوع من الفضول،أو حب معرفته، وبدلاً من أن أستخدم طريقة بيرلز لبعض أفعال من الأمر، غير المشروط، «أنا هو أنا، وأنت هو أنت» وأن تتساءل بشكل رقيق وبكل تواضع:

«أنا أعتقد أنني أبدو هكذا ومن تراك أنت تكون؟»

الفرد شخص واحد لا يتجزأ

إن الفرد شخص واحد لا يتجزأ، ولكن لدي أكثر من تساؤل أود أن أسألك عنه، إذا أنا كنت قد وصلت إلى أن روحي والأنا الأصلية الخاصة بي ترغب الجوّانية الخاصة بشيء معين ولكن قراري هذا في حال اتخذته سيجرح آخرين بأعماقهم هكذا تماماً كقرار سورين على سبيل المثال حين فسخ خطوبته من ريجينا والذي أدى ذلك إلى جرحها وإصابة ريجينا في أعماقها، إذا كان تصرفي هذا يؤثر بصورة إيجابية على علاقتي بداخلي لكنه يسبب الألم والمعاناة في علاقتي بالآخرين والمحيطين بي، كيف لي عندها أن أعرف ما هو الصح وما هو الخطأ؟ الآن أصبح سورين منتبهاً ويصعب عليه الموافقة على هذا الكلام، هناك طريقتان لتفسير إراداتنا، يقصد سورين، تدخل تلك الطريقتان ضمن مفهوم الأضداد- إما خير أو شر، إما جميل أو مؤلم- أو أن تكون طريقة محايدة تماماً- إن ذلك الذي ترغب به قادم من أحاسيسك الجوّانية من أعماق روحك سواء كان جيداً أم سيئاً، هو فقط هكذا، وهذا هو الصحيح.

❖ ما هذا الكلام؟ إنه كلام حيادي؟ هذا يعني إذا كانت لدي رغبة قوية وشعرت بأن أطفالي بحاجة إلى ضرب هل أضربهم؟هل يعتبر هذا تصرف حيادي؟

من المنظور الفلسفي الخالص يمكن للمرء أن يعتبر ذلك - ما يدعيه

سورين- بأنه مسرور لغضبي، أي يمكن له أن يضرب أطفاله إذا شعر بأنه بحاجة إلى ذلك وإلا ماذا سيعتبر المرء هذا، يسأل سورين، أي المفاهيم والمبادئ برأيك، ستستند إليها؟ السلبية أم الإيجابية؟ الخيرة أم الشريرة؟

وأنا أفكر وأتأمل بقصة الضرب:

❖ ربما التعاليم المسيحية منذ بدايتها عندما بدأنا نحسب الوقت تقول:

«إذا ضربك أحد على الخد الأيمن فأعطه خدك الأيسر» أو في العام 1979 شَرَّعَ قانون (ممنوع ضرب الكبار للصغار) على أية حال في فترة الخمسينات يقال كان «الأطفال يتحسنون بالضرب»

❖ أي حالة من تلك الحالات تُشكل الحقيقة الأبدية بالنسبة لك؟ يتساءل سورين، الخير والشر، إنه يُفسر بأشكال مختلفة في مختلف الأوقات ومختلف الثقافات من يمتلك الكلمة الأخيرة؟ من يحصل على أقصى حد من القوة للتصرفات والأعمال الإنسانية؟ من سيعين لمنصب منظمة الحقيقة الأبدية العالمي، حول العنف وإساءة معاملة الأطفال؟ بالإضافة إلى السؤال، ما يكون خير لإنسان ربما يكون شراً لإنسان آخر؟ ما الذي يكون في هذه اللحظة خير وما الذي يمكن أن يكون شراً في لحظة أخرى؟ وكذلك العكس.

❖ لكن ضرب الأطفال، يقول سورين، لا يمكن لك أن تعني ما تقوله!

❖ أنا قلت بشكل فلسفي خالص، لا يمكننا أن نعرف وهذا شيء مختلف تماماً، إنما حدث لي الساعة الخامسة أو السادسة يوم الخميس في نوفمبر الماضي أمام البائعة في السوق التجاري حيث كنت واقفاً هناك وسلة البائعين مليئة بالمشتريات، لحم مفروم، طماطم، معكرونة، وغيره، كانت ابنتي مستلقية على الأرض تضرب بقدميها وتصرخ: أريد شراء الحلوى، الآن، الآن.. الآن، هل تتحمل في هذه اللحظة أن تنظر إلى هذا

الوضع بعين من جوّانيتك الخاصة بك، عندها ماذا ستفعل هل ستضرب ابنتك أم ماذا؟

الآن ينبغي أن أفكر ماذا يقول سورين؟ ليس هناك مبادئ دائمة، أبدية حول المفترض أو كيف يتعامل الكبير الناضج مع الطفل الصغير، ولا هناك قواعد صحيحة أو قواعد خاطئة، ولا هناك وصايا عشرة كما في الدين المسيحي ولا ألواح حجرية منقوشة عليها كتابات الحكمة ولكن هناك جواب واحد فقط هو جوابك أنت إنه موجود لدى الشخص فقط الذي لديه الجواب الخاص به فقط. إذاً، إذا سمحت لهذا السؤال مع مساعدة من الجوّانية وأصفيه عبر الروح الخاصة بي ماذا تقول هذه؟

- أضرب طفلاً؟ لا، لن يحدث هذا أبداً، أبداً وتحت أي ظرف من الظروف ولا في أية حالة من الأحوال والحالات. إذاً، كان هذا سؤالاً بسيطاً، لكن هناك أسئلة صعبة، أصعب بكثير مما يعني ذلك أنا بالطبع امرأة عصرية وضد عملية البغاء وضد المُتاجرة بالجسد بكل أنواعه وأشكاله وأحواله ومهما كانت الأحوال والأوضاع لا أريد أن أبيع جسدي ولا أشتري جسداً آخر إطلاقاً، ولا يمكن لي تحت أي ظرف أن أصبح مومساً، إلا في حال واحدة فقط، إذا كان أطفالي سيموتون جوعاً وليس هناك حل آخر أمامي والطريق الوحيد هو أن أبيع جسدي عندها سأفعلها دون تردد، إن احترامي لجسدي سيكون أقل بكثير من حياة أطفالي ورعايتهم والعناية بهم ولو وصل الأمر لإنقاذهم من وضع ما، سأعمل الأسوأ من ذلك بكثير، بالتأكيد هناك آخرون لا يأخذون خياري هذا بعين الاعتبار ولا يجدونه حلاً للأمر ويتحملون رغم كل شيء ولديهم الاستعداد لينظروا إلى أطفالهم وهم يموتون جوعاً أو أن يختاروا الموت على ألاّ يمارسوا البغاء، هل أستطيع أن أقتل؟ أجاوب تلقائياً، كلا، لا يمكن أن أقتل أبداً ولكن في الأزمات الطارئة الحرب أو حالات العنف الرهيبة قد لا أثق بهدوئي والسلمية التي

أحملها في داخلي، إنه مبدأ، قاعدة أخلاقية تكون شكلاً خلال أوقات الأمن والسلام وتصبح شيئاً آخر عندما تصبح الحياة مهددة بالموت، إن الرجال ينتهكون المحرمات دائماً يكسرون الحواجز ويتخطون الموانع الصعبة والقوية كل ذلك،في سبيل إنقاذ أسرهم وبلدانهم، أنت لا تقتل في السلام، القتل لا ينطبق على حالات السلام لكنه يتعلق بالحرب، بالبقاء على قيد الحياة، هناك رجال يرفضون حمل السلاح وهم على قناعة تامة بأنهم لا يشاركون بأي حرب حتى لو أن بلدهم وعائلاتهم مهددة بالقتل، إنه مبدأ أخلاقي فردي بحت يعتمد على الحالة وعلاقة الفرد بالوضع.

-هل أسرق من أجل إنقاذ أطفالي؟ بالتأكيد نعم، هل أكذب؟ نعم أكذب دون شك، هل أعذب إنساناً آخر؟ لا، أبداً، هنا تأتي الحدود، «إنه شيء مُثير للاهتمام، لماذا أتخيل بأني أستطيع أن أقتل لكنني في الوقت نفسه لا أتصور بأن أعذب أحداً؟» وكذلك كيف أو ما هي وجهة نظري بالأسئلة الأخرى؟ هل يمكن للشاذ أن يتزوج؟ بالتأكيد يمكن له ذلك وهل يمكن له أن ينجب أطفالاً؟ قطعاً يمكنه ذلك، ما هذا السؤال؟ هكذا يمكن للمرء أن يحتفظ لنفسه بكاتالوج، كدليل لمجموعة من المبادئ ليسير عليها ثم ماذا بعد ذلك؟ مبادئ مسموح بها ويسري عليها التطبيق؟ هكذا، والآن حان الوقت للداخلية مرة أخرى، إذ لا يوجد هناك بعض الألواح الحجرية المحفورة بالمبادئ والتعاليم الأخلاقية لنسير على خطاها، نحن البشر نستطيع أن نتلمس طريقنا فقط والسير إلى الأمام لوحدنا، هذا ما نقوم به، عندما كنت صغير السن في فترة الخمسينيات كان إنجاب الأطفال من زواج غير شرعي عار،والطلاق كان شيئاً مكروهاً لا يحبذه الناس والشذوذ حالة غير قانونية ومن العيب أن يجلس الآباء في المنازل لرعاية الأطفال بينما نساؤهم تعمل خارج المنزل وهذا الشيء الذي لا يمكن مناقشته أو الحديث عنه، علاقة التعايش بين الرجل والمرأة التي كانت تعتبر علاقة مشبوهة

وغير رسمية وعلاقات الجنس قبل الزواج شيء لا أخلاقي إلى أبعد الحدود، عندما التقى أبي بمديره انحنى «للسيد المدير» عند تحيته، خلال تلك السنين وعبر تلك الخمسين سنة التي عشتها عرف الإنسان وتعلم أكثر لقد جرب وتصرف وأحياناً عبر الاقتراحات والمقاومة الشديدة وبعد المناقشات والحوارات الطويلة مع بعضنا البعض استطعنا أن نُغير طريقة حياتنا وأن نعيش بشكل أفضل. إن تجابه الأفعال الجوّانية للإنسان مع جدية الناس الآخرين يحاول المرء أن يفهم نفسه ويفهم العالم وعند التقاء هاتين النقطتين يستوعب المرء وتلتقي حقيقته الذاتية الخاصة به مع مفاهيم وتصورات الآخرين ومن هنا تتقدم الثقافات وتلتقي وتتطور الإنسانية.

نحن نجرب ثم نعيد النظر ونجرب مرة أخرى، ثم نعيد ونجرب مرة بعد أخرى، ولا زلنا نجرب منذ عشرات السنين وسنستمر لمئات ثم مئات بعد مئات أخرى من السنين وذلك لأنه لا يوجد هناك هدف نهائي لحياة الإنسان والمجتمعات التي يعيشها، إنه في تجربة أبدية لا نهاية لها، إن ما تعتبره اليوم وتفهمه على أنه خير هل تعتقد سيتغير غداً ويتم اعتباره من منطلق ما، شراً؟

- ولكن يا سورين، ألا تعتقد أننا إذا أصبحنا أصليين جميعاً ستعمّ الفوضى بيننا لمجرد أننا نعيش جوّانيين ونحقق أنفسنا واقعياً؟ ألا ترى بأننا إذا فعلنا هذا سيكون على حساب بعضنا البعض؟ هل حققت أنت حقاً رغبتك الجوّانية على حساب تكسير مشاعر ريجينا خطيبتك؟ الآن يصمت سورين، بدأ يفكر، بدون شك كان يقرّ ويعترف أن ذلك كان صحيحاً عندما اختار ريجينا وخطبها ليرتبط بها، ذلك لأنه أراد أن يعيش حياته معها، لكنّ الجوّانية الخاصة به تحركت وأخذت الروح تنصت إليه وأدرك حينها أن ذلك الذي يحسه كان صحيحاً في هذه اللحظة، هو خطأ على المدى البعيد،

إن الحياة ليست ثابتة، بل هي عبارة عن عملية، لقد أستوعب سورين ذلك وإذا تبعها المرء وسار معها تتغير أحياناً شروطها وظروفها باستمرار:

- إذاً، وبعد مرور 150 سنة على حبكما، هل من المفترض ألاَّ يكون باقٍ؟ بعد مرور كل تلك السنين هل كنتما تتحرقان شوقاً لبعضكما البعض؟

- كلا، أنا فعلت الذي ينبغي فعله، يجيب سورين، أنا كنتُ أحب ريجينا ولكن لو ارتبطنا معاً لما عشنا حياة سعيدة لكنتُ أنا أبحث عن المعنى عن حياتي في الكتابة ذلك لأن الكتابة لها الأولوية في حياتي، بينما هي تعيش حياتها معي في الظل كئيبة.

كان سورين دائم التفكير بريجينا حتى عندما يكون مشغولاً في تأملاته ويتجول ويسير من غرفة إلى غرفة في شقته الكبيرة أو يكتب وهو في نشوة غامرة وكميات الورق مكدسة ومطروحة حوله في كل مكان أو حتى عندما يكون في كوبنهايكن ويتدخل في بعض النقاشات الساخنة والشرسة مع أحد المثقفين ولكن عندما ينشغل فكره وتكون لديه اهتمامات عقلانية، فكرية، تغيب صورة ريجينا عن باله ولكن في لحظات الهدوء، عندما يكون في وضع هادئ تعود ريجينا ويجدها بين أفكاره، حيث حبيبته وخطيبته، قدره وملهمته:

«نعم، كانت ملهمتي» يكتب سورين:

«نعم، هي التي جعلتني أصبح شاعراً» ورغم أنه لم يذكر ذلك في كتبه سوى في كتاب واحد فقط - ريجينا- يكتب سورين، وبعد وفاته بأن كل كتبه هي إهداء إليها.

لقد مضى وقت طويل لم يلتق سورين بريجينا، بعد أن تزوجت ريجينا برجل آخر التقيا صدفة، كان سورين في أحد نزهاته يتمشى في كوبنهايكن وكانت ريجينا تتنزه أيضاً في نفس المكان، تقابلا دون أن يتكلما معاً، اقتربا كل من الآخر أكثر وأكثر ثم مر كل منهما من أمام الآخر،وسار

كل واحد في اتجاهه، ثم في اليوم التالي وفي نفس الوقت التقيا مرة أخرى، وهكذا أصبحا يلتقيان كل يوم في نفس الوقت والساعة ونفس المكان يأتيان ويمر أحدهما من جنب الآخر بصمت لإلقاء تحية وبدون أية كلمة، يقتربان من بعضهما البعض أكثر وأكثر ثم يسيران كل واحد في طريقه.

لقد فعل سورين، ما الذي ينبغي عليه فعله، لقد كان أصلياً.

هذه أحاسيسك الجوّانية، اختياراتك، تصرفاتك، أفعالك، بغض النظر عن العواقب سواء أكانت نتائجها سلبية أم إيجابية، هل أنت متفق، متسق مع بعضك البعض؟ من أنت؟ هل أنت حسب نظرية سورين إنسان أصلي أم لا؟ هل أنت ببساطة شديدة كما أنت كائن حقاً أم أنك مجرد نسخة مصطنعة لشخص آخر؟ هل أنتغير سعيد لكنك واضح أم غير ذلك؟ أنا أشعر اليوم بأني مرتاح وأعرف لماذا أنا مرتاح، اليوم أشعر بصعوبة وأعرف كيف أصبح يومي هكذا صعباً.

والآن، قد يتصور المرء بأننا وصلنا أخيراً إلى نهاية طريق سورين وأننا وصلنا إلى قدر ما يستطيع المرء أن يصل إليه ولكن الوضع ليس هكذا مقارنة مع الكثير من المفكرين الوجوديين الذين جاؤوا بعد سورين، يتوقع سورين بعد المرحلة الحسية والجوّانية هناك مرحلة أخرى ذات بُعد واقعي يمكن للمرء أن يكتشفها ليصل إلى الخطوة السادسة من طريق سورين وهكذا قد يحدث في منتصف هذا الطريق يجتاح المرء الصوت الجوّاني مرة أخرى ويشعر بالانزعاج ويظل يناديه وقد يوقظه ليلاً من نومه يستيقظ ويشعر بأن هناك شيء غير مضبوط، يضايقه، شيء يقض مضجعه، مرة أخرى تدعوه الروح أن يواصل طريقه ولا يتوقف وتناشده ليكملا لبحث ويتقدم أكثر فيأتي بالطبع هذا السؤال:

- هل هذا كل شيء أم أن هناك شيء آخر؟ هل هناك شيء أكبر من الأنا الأصلية الخاصة بي؟

بين الجوّانية و الروحانية

بين فترة الجوّانية والروحية...
هناك صوت ينادي مرة أخرى..

أن تقف هناك أمام هذا السؤال الذي يرى سورين أنه السؤال الأخير الذي تسأله الروح:

- هل هناك شيء كبير أكبر مني أنا؟ ما هو؟ إن إحساساً مُحيّراً يعتريك وتشعر بأن هناك شيء ناقص غير مكتمل فيك وأن هناك شيء آخر أكبر وأفضل منك أنت، إن ذلك الإحساس يجعلك تشعر بأنك كائن وحيد تماماً، وأنك واقف أمام فراغ هائل تقف فيه على أرض ليس لها قاعدة ولا أساس ولا أرضية تحتك، ماذا لو كان الجواب، نعم، للأسف أنت وحدك، وكل شيء ولا شيء هناك والأهم من ذلك كله سوف لن يحدث لك شيء آخر مُثير للاهتمام أكثر من ذلك الذي حدث، فكر ماذا لو لم يوجد معنى آخر غير الذي وجدته داخل نفسك؟ ماذا لو أن الحياة في الأساس ليس لها أي معنى؟ لقد كان ذلك عملاً شاقاً على المرء أن يجرؤ وينتقل من عالم الحسية ويدخل إلى الجوّانية يترك السيطرة المادية ويتخلى عن تلك الأشياء الخارجية التي كانت تتحكم به لتأتي الجوّانية وتترأس عليه وتقوده وينقاد من قبلها ثم بعد ذلك تأتي الخطوة الأصعب وهي البحث عن الروحية فتظهر في طبيعة الحال المشاعر السلبية:

- ماذا جرى لي، هل بدأت أجن؟ هل بدأت أتصوف؟

- ماذا لو أن هناك حقيقة روحية، واقع روحي موجود؟ ماذا يعني ذلك؟ أنا غير واثق من أني أريد أن أعرف ذلك؟

- إذاً، الآن، هل حان وقت (الله) يا سورين؟

- إن ذلك يعتمد على ماذا تعني في ذلك! يجيب سورين وهو جالس على كرسي الخيزران ويصف بإسهاب مفرط، وفي يده كتاب يقرأ به بين الحين والآخر:

- الله! إنه اسم فقط، بالإضافة إلى أنه اسم كبير مُحمل بمعاني كبيرة، أنا شخصياً اسميه الأبدية التي لا نهاية لها، أو القيادة، أو بطريقة أبسط اسميه الواحد الأوحد.

إذاً نحن إلى الآن لا زلنا نتعلم أن نعيش حياتنا وحتى الآن يملؤنا شعور بعدم معرفة كيف نحيا حياتنا اليومية مع خياراتها الصعبة وأحكامها الأخلاقية وقراراتها.

وهكذا يستمر سورين ويقول:

- نحن نعيش الآن في حالة عدم يقين كبيرة إننا نفترض، نخمن، إننا نقّر ونفيد بأننا ندرك أن حياتنا اليومية تلك،هي ليست كل شيء ووراء كل ذلك هناك ضبابية روحية عن الحقيقة وأننا كنا متوجهين إلى هذا الطريق طوال الوقت دون أن نعرف!.

هل يستند (سورين) إلى الحقيقة؟ كلا، ليس بالمعنى العادي البسيط، إنه يتفلسف الآن ويتأمل، يتخيل، إنه يربط بين هؤلاء الذين يقولون أنهم يعيشون حياتهم ذات بُعدٍ روحيّ، وهؤلاء الذين يناضلون للوصول إليها، ثم بعد فترة طويلة، أو فجأة، يعيشون أنا ممتلئة من أشياء أخرى، أشياء قد تكون أكبر من أنفسهم، أشياء قد تعطي حياتهم معنى جديداً تماماً، معنى ليس مجرد أنه شخص أصلي وينتمي إلى الجوّانية فقط وإنما تعطيه صورة عامة وعالمية.

- هل هذا يعني أن سورين يؤكد على أن الأبعاد الروحية موجودة؟

- كلا، أبداً، على العكس.

«- إن محاولة إثبات وجود الله مادياً محاولة مجنونة ومضحكة تماماً.» كتب سورين في أحد تمنياته، وأخذ يشرح بأن البشر سوف لن يتمكنوا من أن يُثبتوا بأن الله موجود أو غير موجود على الإطلاق.

إذا كان الإله عند المسيحيين هو كما قال المسيح، أو البراهاميو عند النسخة الهندوسية والله عند المسلمين وعند اليهود، إنه حي أبدي، ثابت هو نفسه، لا يتغير، وموجود في كل الأوقات وكل مكان وزمان، إذاً في هذه الحال نكون نحن غير مرتبطين في زمن معين أو مكان معين ولا يمكن لنا أن نتخيل ما محتوى ذلك وما معناه ببساطة شديدة، ليس لدينا القدرة على أن نستوعب أو نُناقش وجود الله أو عدم وجوده «إنه اللا سؤال» يعتقد سورين، لا، إذا كان المرء يرغب في أن يتحقق من الوجود وما إذا كان هناك حقيقة أخرى بعيدة عن أحاسيسنا العادية من المهم عليه مواصلة الطريق إلى الجوّانية وأن يخمن ويجرب، أنت تعرف أن العالم المادي موجود وهكذا تستطيع أن تأخذ به وتعمل أشياء معه وأنت تعرف أيضاً بأنك موجود، وتعرف تقريباً كيف يعمل جسدك، أنت نفسك بشكل خاص تُشكل دليلاً لنفسك، هنا يتعلق الأمر بزيادة وتوسيع البحث إلى شيء أكبر منك أنت ومن داخل نفسك إلى العالم، الكون كله، وإلى كل شيء.

-كل شيء، يا سورين، ماذا أعرف أنا عن كل شيء؟

- يمكنك أن تعرف، أنت وحدك لا أحد غيرك يستطيع أن يعرف! يجيب سورين، وذلك لأن لا أحد إلى الآن يمكن أن يُثبت كيف العالم مربوط بعضه ببعض، ولأن كل ادعاءات الآخرين الأولية تمهيدية فقط، لهذا نكون كلنا باحثين، مستكشفين، نحن جميعاً كشافة، استعمل نفسك كآلة وطور الجوّانية الخاصة بك، وانظر ماذا ستجد.

إذاً، ما هو وجودك الخاص؟ إن روحك تناشدك الآن - يعتقد سورين- فخذ خطوة أخرى إلى الأمام، ابحث عن ما وراء الأنا الخاصة بك بعيداً عن المعنى الخاص بحياتك الذي وجدته، ابحث بأقصى حد ممكن لديك عن المعنى الخاص بكل شيء، ابحث رغم أنه ليس لديك علم ماذا ستجد، نعم، لأن ما هو موجود هو أبعد مما تتصور، ما هي الحقيقة وراء ذلك الواقع الملموس الظاهر؟ ماذا وراء الأنا الصغيرة الخاصة ووجهات نظرها المحدودة وتكهناتها الكثيرة والعديدة، هل كل شيء قادم من قوة خلق واحدة تتجلى في شكل من أشكال الحياة، المادة، والوعي؟ أم أن هناك نوعاً من المعنى الذي يشرح كيف كل شيء مرتبط بعضه ببعض؟ هل هناك قوة شخصية خاصة، نوع من أب، أم، الله، هو الذي يهتم بنا؟ هل لديك آراءَ ووجهات نظر حول كيفية رعاية شؤون أنفسنا؟ أم أننا جزء من مجموعة مشتركة غير شخصية، نوع من أن تكون كائناً موجوداً فقط؟

ربما هذا هو الحد الأقصى لمعنى الحقيقة، إنها مجرد معادلة رياضية سهلة، كما الباحث في علم الرياضيات المعاصر ماكس تيغمارك الذي فكر وتأمل كثيراً وتكهن بأننا نحن البشر عبارة عن معادلة رياضية تحتاج إلى حل، وقد اتخذ من نظرية الفيلسوف الإغريقي فيثاغورس الذي عاش في الفترة تقريباً «540- 497» قبل الميلاد، نقطة انطلاق وبدأ من هناك، وكذلك استفاد من الباحث الإيطالي غاليلو غاليليه «1564- 1642» الذي كان يفترض على أن الكون كله عبارة عن كتاب كبير مكتوب بالأرقام، «لكنني سأكون أكثر تطرفاً وأذهب إلى أبعد من ذلك» يكتب ماكس تيغمارك مقالاً في مجلة «نيو ساينتست» لقد ادعى ماكس أن الكون لا يمكن وصفه من قبل الأرقام فقط، وإنما الكون هو لا شيء آخر غير أنه عبارة عن علم رياضيات بحت.

إن ماكس يجادل ويناقش فكرته كالتالي:

إن الحقيقة يجب أن تكون مطلقة بصورة تامة وأن تكون متشابهة للجميع ليس للبشر فقط وإنما ينبغي أن تكون حقيقة متساوية لكل شيء، للحيوانات والذباب وكل شيء حتى أجهزة الكومبيوتر المعقدة العملاقة، لذلك ينبغي على الإنسانية جميعاً أن تبتعد عن الوصف التعريفي المحدد للأشياء وأن يلغوا كل الألفاظ التي أطلقوها على الأشياء وأن يبتعدوا حتى عن المصطلحات العلمية كالذرة والجزيء، النجوم والقمر وغيره إنها أشياء ذاتية بحتة وقد جاءت من أفكار الإنسان وانتقلت كالعدوى وانتشرت بين الناس جميعاً، إن الوصف النهائي للحقيقة ينبغي أن يكون كل شيء فيها حيادي دون أن يكون لها شكلاً من أشكال المتع، إن الحقيقة الذاتية يجب أن تكون حقيقة موضوعية، معتدلة تماماً، لا تختلف من إنسان لآخر، إن الإنسان لا يملك بعد أي صيغة أو قاعدة ما أو معادلة حسابية ينقاد وراءها، لكنه عندما يقوم باختراعٍ ما، يعتقد أن ذلك سيصبح من السهولة وأنه سيحصل على الحقيقة وبعد إجراء الأبحاث والتجارب وعندما ينتهي من إنجاز شيء ما وينحاز بشدة لاختراعه الذي اكتشفه ويعتقد أن ذلك هو الحقيقة بعينها فيرى أنه من السهولة أن يتم طبعها ونشرها على البلوزات وتوزيعها على الناس الآخرين.

-نعم، نعم، نعم، يقول سورين وهو متعب قليلاً، إن الإله خارج أنفسنا وهو أحادي، واحد في داخلنا، بحيث أن الإنسانية ومنذ آلاف السنين لم تزل تتمسك وتحتفظ بهذا المفهوم دون أن يجدوا جواباً مقنعاً يتوحّدوا به:

– استسلموا! إنكم سوف لن تعرفوا حقيقة وجود الله ولا حقيقة الكون أبداً، استوعبوا أن ذلك لن يحدث أبداً!

-لكن هل ترى من الأفضل أن نتوقف عن البحث؟

– كلا، هذا لا يجوز، يقول سورين بشكل حاسم، نحن البشر نحتاج إلى شيء ما نؤمن به ولسبب ما نحن مخلوقون بهذه الطريقة، وإذا لم نستطع أن

ندرك معنىً للحياة، فنحن نخاطر في أن نفقد الأمل داخل نفوسنا، وهكذا حتى لو لم يكن هناك أجوبة لأسئلتنا الأساسية فإننا نحتاج إلى اعتقادات موضوعية نؤمن بها، ونعمل من أجلها كالنحلة تماماً إنها تعمل وتصنع العسل من أجل مملكتها، من ناحية أخرى ينبغي علينا أن نكون حذرين - يقصد سورين- وألاّ نخلط بين المفهوم الفردي الخاص بنا وبين ما هو موجود هناك وراء ذلك الاحتمال الذي يمكن وقوعه مع واقع الحقيقة الروحية.

إذاً لقد كان سورين يفكر هكذا:

- دعونا نخمن ولنفترض أن ذلك البعد الروحي موجود فينا وأنه شكل من أشكال معنى الكون قد يكون قوة ما، نوع من أنواع الإبداع، هدف ما- لا أحد يعرف؟ إذا كان موجوداً هذا فإن ذلك ما يعتقده كيركيجارد تماماً وكما قال تيغمار كأنه موجود معنا، مع وجودنا، إنه موجود مع تفسيراتنا أو بدونها، إنه موجود فقط في أعماق معنى الكلمة والشيء الآخر هو الخبرة الشخصية الفردية للإنسان وأن هناك شيء ما يقف وراءها وأبعد من خبرة الإنسان، إحساس ما، معرفة صامتة تقف داخل النفس ويدرك وراءها بأن هناك حدث كبير كنزول الوحي عليه ويرى الحقيقة، لكن الحقيقة لا يمكن أن تحصل عليها وليس هناك أي فرصة أو إمكانية لتأكيدها من قبل أحد ولا توجد لائحة إجابات من العامة ولا حتى هناك شروح أو تفسيرات للحقيقة يمكن أن نحصل عليها من الكتب وليس هناك من حصل على الحقيقة كلها أو حتى جزء من نظرية عنها وليس هناك بصيص ولا وميض لها، إنه وهم الدماغ، كل شيء نعيشه- بغض النظر عن كل ذلك الذي يتعلق بالألعاب النارية أو المعايشة الروحية- هو فردي، وأن هذا الذي تمر به يكون تجربتك أنت، أنت الذي تعيشه لا أحد آخر، إنه حقيقة ذاتية بحتة، هي ليست خبرة روحية معينة أو أنها شيء موجود، الآن بدا الأمر أكثر صعوبة وأكثر تعقيداً.

إن ذلك ما يمرّ به المرء وتلك التجربة الكبيرة التي عايشها،يجد الرغبة في التحدث عنها، ولكن كيف يمكن له أن يشرح ذلك، إنه شيء لا يوصف، إن تلك الكلمات التي ابتكرها الإنسان لها علاقة بالأشياء المادية، إنها كلمات عملية وواضحة ولها علاقة بالأشياء التي نراها ونلمسها ثم سرعان ما نستعملها لنصفها من أفكارنا ومشاعرنا، ولكن كل تجارب التعايش الروحية ينبغي أن نستعملها كاستعارة أو مجازاً، إنها نماذج ورموز حتى يصعب على المرء الاتفاق عليها، والجميع له رأي يختلف به عن الآخر.

إن كلمة توت بري يمكن أن يراها المرء في خياله، بينما أنا أشرح شيئاً عن التوت البري وأستطيع أن أجعلك تراه في خيالك، تحسه، أن تتذوق ذلك الشيء الذي أطلقت عليه أسم توت بري، وهذا ينطبق على الأشياء المادية الملموسة المتعارف والمتفق عليها، ولكن كيف يمكن لي أن أحصل على مفهوم واضح مثل ماذا أعني بكلمة أنا حزين أو أنا أحبك؟ إنه إحساس ليس له وصف معين وليس له تذوق خاص، إن الأشياء المادية يمكن شرحها لكن الشيء المحسوس لا يمكن شرحه وذلك لأن الأحاسيس تختلف من شخص لآخر، كذلك الحب أيضاً فعندما يقول شخص ما أنا أحبك هذا لا يعني أن الطرف الآخر يحبه في نفس الوقت، أو يحبه بقدر ما يحبه هو، وكذلك ربما شخص ما له نظريته والآخر له نظرية أخرى وشكل مغاير تماماً، لا أحد يستطيع أن يقارن تجربته بتجربة الآخر، والأصعب من ذلك هو «الله»، بحيث أن الذي يشعر بوجود الله، كيف له أن يشرح بأنه التقى بالإله الذي دائماً غير ظاهر غير موجود؟ هذا ما يقصده سورين، إنها مشكلة الديانات الكبرى، عندما يمر شخص ما بتجربة تعايش مع حالة ما خاصة، الشخص الآخر القريب منه يصيبه الإلهام ثم الآخرين وهكذا يلتف من حوله مجموعة من الناس يستمعون إلى وصفه الصريح ويزعمون في نهاية المطاف بأنها حقيقة واقعة ثم تأتي الخطوة التالية تبدأ بإقناع الآخرين بالإيمان

بتلك الفكرة الغامضة، الضبابية، ثم يختارون أفضل شخص في المجموعة وذلك ليعين ممثلاً عنهم، ويصبح هو المسؤول عن تفسير فكرتهم بالطريقة الصحيحة ليتم توصيلها إلى الناس الآخرين، إنهم يؤطرون فكرتهم ويضعون قانوناً مبدئياً لها أيضاً ويسيرون على نظامها، ويظل الأعضاء يراقبون كيف تسير فكرتهم وماذا سيحصل أو ماذا سيحل لها، ومع ذلك كله الآن بدأ سورين يدفع بنفسه أكثر للدخول في الموضوع إلى أعمق، هل يحتاج البشر أن يوصلوا فكرتهم للآخرين؟ علاوة على ذلك الآن هو منتصف قرن 1800- ويُثير سورين قضية عمل هؤلاء الكهنة ويقوم بقراءة ممثلين الكنيسة الدانماركية، الذي أطلق عليهم سورين رؤساء أو أسياد الثرثرة، ويقول أنهم ليسوا بحاجة ليتحدثوا كثيراً عن تجارب مرَّ عليها آلاف السنين، ويعتقدون بها، رغم أنها في الأساس ليست تجاربهم الشخصية، ولم يشهدوها يوماً بشكل حقيقي مباشر، ورغم أنها تجارب تابعة لأشخاص آخرين إلا أنهم يتحدثون عنها وكأنهم هم من عرفوها، وهذا ليس برهاناً كافياً، لقد كانت الأشجار تحترق وانقسم البحر إلى نصفين وجميع المرضى نهضوا من الفراش وساروا متعافين، إن الديانات يفترض بها أن تكرس أغلب وقتها في محاولة تطبيقات عملية ما يعلموه للآخرين بدلاً من أن يكتفوا بالحديث والثرثرات الكبيرة عن المواعظ وغيره، لقد كان سورين يحرض بشكل ثوري، ثورة رجل واحد ضد الكنيسة التي بدأها وحده في نهاية أيام حياته.

- اتركوا اللاهوت وعلم الأديان! يقول سورين لعلماء الدين، وبدل من ذلك استمعوا أنتم مرة أخرى إلى صوت روحكم الجوّاني وإذا شعرتم بأن هناك صوتاً ينادي وبأن رغبة في داخلكم تصرخ استمعوا إليها، وابحثوا فيما إذا كنتم ستجدون شيئاً هناك.

إن سورين شخصياً لم يستطع أن يتخيل بأن الحقيقة محددة في إطار معين إنها ليست موجودة في الدراسة فقط ولا في الأشياء الجميلة ولا

هـي مجرد الحصول على أصدقاء ولا حتى في شراء الكتب والعصي التي أحبها ولا في الأحاديث الفلسفية، إنـه لم يكن يعرف ما هـو الشيء الآخر، لكنه كان يعتقد أنه بمساعدة الروح والناتج من بعض الناس يمكن للمـرء أن يحصل على الاتصال لكن قبل أن ندخل في ذلك دعونا نعود بخطوات إلى الوراء إلى ذلك الإنسان الذي بدأ يُدرك ويشكك وأخذ يسأل نفسه، إن المرء قد يتعب ويشعر بالملل لأقل الأشياء إنه ناضل وسعى كثيراً حتى يصل إلى فهم حالته تلك، لقد تحقق من إرادته وفحص رغباته واختبرها وجربها في الواقع وبحث في الحياة إلى أن توصل إلى هذه النتيجة وهكذا أصبح الإنسان أكثر فردية، متأكداً أكثر من أشيائه وأصبح أكثر استقلالية وابتعد عن آراء الآخرين ومطالبهم ووقف بثبات على الأرض إنه فخور الآن بنفسه فقد أصبح أصلياً، تم هذا بعد عمل قاسٍ استطاع فيه أن يتغلب على الذات والألم، وأي مكافأة حصل عليها من نفسه؟ ازدادت روحه بالتساؤل أكثر: تلك الأنا التي بنيتها أنا، هل هي كل شيء؟ أم أن هناك شيئاً آخر يجمعنا نحن وكل تلك الأشياء؟ هل هناك من يُوحِّدُ الأنا مع تلك الحقائق الذاتية؟ شيء هو أكثر حقيقية من الحقيقة الذاتية نفسها؟ إذا أخذنا هذا السؤال بجدية إذاً نحن ندخل في مفهوم «الهلع» كما أطلق عليه سورين، ذلك المسيحي يوهانس الصوفي يدعوه للصلب ليلة عتمة الروح، ولكن يمكن أن يسميه المرء أيضاً فضول الوجودية،وهكذا بعد فترة من عدم اليقين والتشكيك الكامل وكل شيء يبدأ من جديد ويتساءل المرء: هل صحيح ما أنا عليه؟

إن ذلك يُشبه قرار شخص بأن يقفز من على منصة القفز إلى حوض سباحة دون أن يعرف شيئاً عن ذلك الحوض، لا يعرف كم عمق الماء، ولا حتى إذا كان هناك ماء في الحوض أم لا، ولكن هذه المرة لا نحصل على مساعدة من أحاسيسنا أو مقدرتنا على التخيل، ولا حتى من فطنتنا

أو إدراكنا، إن المرء يمكن له أن يطور الأنا الخاصة به عن طريق العمل عليها عبر التفكير والتأمل، عندها يستطيع أن يصل إلى الجوّانية، ولكن في التجربة الروحية لا يحدث هذا ولا يمكن للمرء أن يترك نفسه ويسلمها للروح فقط، على أية حال هذا ما يقوله هؤلاء الذين يعرفون هذا،وبدلاً من أن يبحث عن إرادة أو على قرار جريء للسباحة في المياه العميقة يختار الفعل بشجاعة تامة ويتجاسر ويتصرف كما تتطلبه المرحلة الجوّانية، الآن ينبغي على المرء أن يحاول أن يكون ضعيف الإرادة، مع ذلك المجهول وينبغي عليه كالمتصوفة السيدة تريزا من افيلا - كتبت تقول: علينا أن نوسع ونكبر قلوبنا أمام ذلك المجهول، أن تُسلم نفسك وتفتح أُذنيك له وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا تخلينا عن كل شيء، ونترك أي شيء نعرفه ونسلم أنفسنا إلى ذلك المجهول!.

- نتخلى عن كل شيء؟ ماذا تقصد تريزا بهذا؟

- إذا كان هناك حقيقة روحية موجودة ما وراء العالم الذي نعرفه بحيث لا يمكن أن نصل إليها مع تلك المعلومات المتوفرة لدينا اليوم، على العكس، تقصد تريزا كل شيء نعتقد أننا نعرفه عن العالم، عن أنفسنا وكل شيء تعلمنا منه وكل شيء توصلنا إليه في طريقنا، اجعل نفسك فارغاً تماماً، تقول تريزا وأيضاً الكثير من المتصوفين متفقين معها، افتح نفسك، ثم بعد ذلك انتظر في صمت للرد الذي قد لا يأتي.

- كيف يسير هذا؟ كيف كان سورين يتصرف مع هذا؟

في العام 1847 عندما كان عمر سورين 34عاماً، سمع سورين مرة أخرى الصوت ينادي داخل نفسه، بعد أن نشر كتابه (إما أو)، عمل سورين كل شيء كي يكون مخلصاً لنفسه، أن تكون الأنا الخاصة به أصلية تماماً، أصبح شخصية فردية، الآن تصحو رغبة حنين جديدة داخل نفسه:

«لقد تحرك شيء داخل نفسي» إنه يُشير إلى التحول، يكتب سورين

في سجلاته، «الآن أريد أن أقترب أكثر من نفسي بطريقة أعمق، سأكون هادئاً وسأتجدد من الداخل!».

سوف يعمل لساعات أقل ويتفرغ ليستقبل كل شيء مهما يكن ذلك الذي سيأتيه، سوف لن يدافع عن الصفحات الضعيفة في نفسه ولا يشكو أو يلوم نفسه على هذا أو ذاك، سوف يكتشف نفسه ولكي يعمل كل هذا، عليه أن يعود قليلاً ويتراجع خطوات إلى الخلف، ويحاول أن ينعزل عن الحياة، لقد بدأت الحياة الدنماركية تتغير، وصل بناء المصانع وانتشارها حول المدينة بشكل كبير وشعر سورين بالخوف من أن صوته الجوّاني سيخفت ويضمحل ولا يسمعه في خضم ذلك المجتمع الجديد أحد، لقد ظهرت غيوم سوداء في الأفق وكان سورين قلقاً من أن تلك الحداثة والحياة العصرية الجديدة القادمة ستفقد الناس راحتهم الأبدية وحريتهم الخاصة ومغادرة حياة الهدوء ووداعها إلى الأبد، كان سورين يتنبأ وكأنه يعرف ماذا سيأتي وكتب يقول:

«لنفترض أن شخصاً ما اخترع وسيلة من أنابيب كمكبر للصوت، صغيرة ومريحة وبنفس الوقت قوية وعندما يتحدث الشخص منها يمكن للمدينة كلها أن تسمع ما يقول، بالتأكيد ستمنعها الشرطة وذلك خوفاً من إزعاج الآخرين بشكل جنوني ويفقدون الناس عقلهم عند استعمالها!».

الآن ينسحب سورين ويعود إلى شقته يجلس إلى طاولته ويخرج أوراقه ويدعو عمليته الجوّانية تعود مرة أخرى لتصبح كتاباً آخر، لقد كتب سورين في وصف مطول ودقيق عن مرحلة البشر الثالثة - الروحية- وقد أطلق عليها «أعمال الخير الخاصة بالحب».

كان سورين واقعياً، كان يفهم أن أغلبنا لن يكون متطرفاً في بحثه عن الروح والحقيقة، مثل (بريدجيت المقدسة)، (المهاتما غاندي)، و(الحاخام نجمان)، أو من (هايدغارد بنجن)، الأغلبية منا غير مستعد أن يجازف وأن

يضع كل شيء في لعبة واحدة في البحث ومطاردة المجهول، نحن نناضل مع الأنا الأصلية ونفتح النافذة جزئياً ونزيح الستائر الثقيلة في حياتنا اليومية العادية بين فترة وأخرى لنرى هل هناك شيء خلف هذه الستائر، نحن نتعمق قليلاً أكثر في البحث ولكن إذا كان صوتك الجوّاني ينادي ويناشدك بأن تكمل التقدم في البحث، عندها يرى سورين من المهم أن تستجيب له، «أنا أسمعك» يحتاج المرء أن يقول لنفسه كما كان سورين يكتب ويؤكد:

«أنا أشعر وأتحرق شوقاً» ثم بعد ذلك تتحرى الجوّانية أكثر وتدخل إلى أعمق وأعمق، لتذهب إلى ما وراء الأنا إلى أبعد من الفردية، ثم إلى ما أبعد وأبعد وأبعد.

«إن الشخصية ترغب في أن تكون واعية عن
نفسها في أبديتها، إذا لم يحدث هذا،
وإذا الصوت لا يجد الصدى ولا تستمع إليه،
ولا يخرج يتوقف ويرتد إلى الوراء ويبدأ
يضغط إلى الداخل أكثر، فتظهر المشاعر الثقيلة».

إما- أو

المرحلة الثالثة

المرحلة الروحيّة

«إذاً ما هو ذلك المجهول؟!
من بقايا فلسفة»

الخطوة السابعة

أن تفتح نفسك !

إن التجارب الروحية موجودة، ويمكن لك أن تتأكد من خلال التقارير والسجلات القديمة،من كل الأوقات وفي جميع الديانات وفي بلدان كثيرة في العالم ومن مختلف أنواع البشر، إن كل تلك التجارب - بغض النظر عن كيف حدثت- قادمة من ذلك الإنسان الباحث عن الحقيقة إلى القارئ، من ذلك الشخص الذي يصلي ويتأمل إلى ذلك الإنسان العادي الذي يعيش حياة العلمانية تماماً، إلى ذلك الدنيوي الذي يعيش حياته وليس لديه أية فكرة عما بحث عنه سورين، إلى كل التجارب، إن كل تلك التجارب متشابهة مع بعضها البعض، فجأة تفتح نافذة داخلية، وتغير ميزان القوى، يظهر إحساس ما ويُعرف بنظرية ذات منظور جديد، لم يكن يعرفها أحد سابقاً، وهكذا عندما تهدأ الدهشة الأولى، سواء كانت مفرحة أم مخيفة، يدخل الهدوء إلى النفس ويشعر المرء بالانتماء، يشعر بأن هناك شيئاً ما موجود في مكان ما، وأحياناً يصفه بأنه قادم من داخل النفس، وأحياناً من خارجها، ومن خلال ذلك الإحساس يمكن للأنا أن تستند إليه، وتسترخي معه بسلام وهدوء، إن الكثير من البشر يشعر بيقين معين فيبدأ بقراءة دعاء ما وينتابه إحساس بأنه مغلق تماماً على نفسه وقد تم احتواؤه ولكن من أين يأتي هذا الإحساس؟

إنه أمر مُثير للاهتمام، يبدو لدينا حاجة على أن نعمل من أجل أن يكون لدينا رأي خاص بنا، رغبة في الإجابة على معظم الأسئلة غير المؤكدة، أن نقوم بملاحظتها والتفكير حولها، أليس كذلك؟ يقول سورين.

إن الله موجود! يقول أحدهم ويكتشف الآخر أن الله قطعاً غير موجود والطرفان على استعداد تام للدخول في صراع طويل حول رأيهما ولا يمكن لأحدهما أن يثبت شيئاً فيه.

لو استطاع سورين أن يرى خوذة عالم الأعصاب والباحث ميخائيل المعدنية الصفراء مع أسلاكها وأشكالها التي تتصل بمختبره هناك في جامعة لاورنتيان في سدبري في كندا، لضحك كثيراً، لقد أطلق ميخائيل على خوذته، خوذة الله، وقد قام بتصميم تلك الخوذة وذلك محاولة منه أن ينادي تجاربه الروحية بمساعدة المغناطيس الكهربائي، كان ميخائيل يرتدي الخوذة ويربطها فوق منطقة الجبين والأذنين ويبدأ يضغط ليمدها بقوة الكهرباء فتعطيه حافزاً فوق العادة، إحساساً بأن هناك اتصال مع الأرواح، ثم بعد فترة قصيرة يشعر بأن هناك حضوراً لأحد ما أو شيء أو أن هناك بارقة ما من الكون، على أية حال قدم 80 بالمائة من مجربي الخوذة تقريراً وأخبروه بذلك، وباحثون آخرون لم ينجحوا في هذا وذلك لأن المنطقة التي فوق الأذن هي لسبب خاص تماماً تبدأ بتفريغ الشحنات الكهربائية عند البشر الذي يدّعون بأنهم على تجربة دينية تحت نوبات الصرع، كان الكاتب الروسي على سبيل المثال فيودوردو ستوفسكي يعاني هو نفسه من مرض الصرع ووصف في أحد كتاباته كيف كانت حالته قبل أن تنتابه نوبة الصرع ويفقد الوعي وكتب يقول: «يتملكني إحساس بأن السماء انخفضت وسقطت من فوق على الأرض وابتلعتني، لقد أحسستُ بوجود الله حقيقة وشعرت بأنه دخل بي أنا!».

إن الباحث ميخائيل صاحب الخوذة، لا يصدق كلام دوستوفسكي، وذلك لأن دوستوفسكي ينتمي إلى مجموعة الناس الذين لا يؤمنون بوجود

الله، ويرى ميخائيل في نفسه أنه قد حصل على مساندة تُثبت وجود الله من تجاربه الخاصة تلك.

إن التجارب الروحية عبر تلك الخوذة لا تؤدي إلى نتيجة عادلة أو مضبوطة، وذلك لأنها تُسبب نكراناً للطبيعة وأعتقد أنه يمكن لبعض الناس الحساسين للمغناطيس الكهربائي يُثير لديهم هذا النوع من الإحساس من تلقاء أنفسهم. إن ميخائيل لا يقصد أنه لا يصدق هؤلاء المتدينين تماماً وإنما يقول إن هؤلاء الشخصيات الروحانية الذين ادعوا بأنهم عاشوا في اتصال مع تلك الحقيقة الروحية، مثل المسيح، باولو وبودا، جميع هؤلاء كان لديهم خلل في دماغهم، أو نوع من ضربة صرع.

إن هؤلاء المؤمنين الذين يمثلون جماعة «الله موجود» بالطبع فسروا النتائج بفهم مختلف ويعتقد صاحب الخوذة أنهم وجدوا الاتصال مع الله واستقبلوا رسالة مقدسة.

دعونا ننتقل إلى مختبر آخر إلى مونتريال في كندا، هناك الباحث ماريو بيوريجارد كان لسنوات عديدة يحاول أن يفهم كيف يتعامل الدماغ مع التجارب الروحية ويمكنكم أن تنظروا إليه وهو جالس وراء شاشة الكومبيوتر هناك حيث توجد اسطوانة بلاستيكية بيضاء، هذه هي الكاميرا المغناطيسية فيمكن للمرء أن يرى الأقدام التي تخرج من أحد الجوانب في النهاية، إنها أقدام الراهبة الكرملية التي كانت مستلقية هناك وهي تحاول أن تسعيد تجربة إحساسها بوجود الله مرة أخرى، عند الشاشة رصد بيوريجارد الراهبة وكيف كان دماغها يتذكر، ثم طلب منها بعد حين،أن تسترخي فقط، وأن تبقي عينيها مغمضتين، ثم بعد ذلك بقليل وفي محاولة لاستحضار مشاعر الراهبة وهي في لقائها مع أحد الأشخاص الذين تعرفهم كان ذلك الجهاز الحساس يتابع العملية ويسجل كل الحركات الدماغية التي حدثت بأجزائها كافة.

قال بيوريجارد عندما قام بتحليل مادة الدماغ التي استحضرها من عشرة راهبات، كان عليه أن يقوم بإخضاعهن إلى العديد من الدراسات والفحوص وجعلهن يمررن باختبارات مختلفة ثم بعد ذلك توصل إلى شيئين وهي أن ذكرى التجربة الروحية ليس لها علاقة في المكان ولا يقتصر وجودها فوق الأذنين فقط، فعندما تذكرت الراهبات اتصالهن مع الإله انهمكن وتفاعلت أجزاء كبيرة من أدمغتهن عند استحضارهن لتلك الذكرى والشيء الثاني هو أن ما يميز الشعور من هذه التجربة الروحية عند استحضار الراهبات لأصدقاء حقيقيين، أو طيبين، أو عندما أعادت الراهبات ذكرى شخص يحببنه أو تربطهن معه صداقة لطيفة تحفزت أجزاء أخرى تماماً في الدماغ. لقد كرس ذلك الباحث الأمريكي أنتونيو داماسيو معظم وقته وهو يحاول أن يفهم مشاعر البشر وكيف يعيشون أحاسيسهم، يعتقد أنتونيو بأن التجربة الروحية يمكن لها أن تُفسر عن طريق أحاسيسنا الأساسية ومع عواطفنا وعندما يكون نظامنا العصبي متوازناً تماماً يعطي الجسد إشارات بأن كل خلايا الجسد في وضع واحد كله تحت السيطرة تماماً، إن ذلك الإحساس قوي جداً ويمكن فهمه على أنه روحي، إنه نوع من السعادة الوجودية العميقة، إنها تجربة تناغم ووئام مع مبدأ الحياة ومع عملية الحياة نفسها، يعتقد الباحث أن ذلك الإحساس يمكن له أن يأتي من تلقاء نفسه أو يأتي أيضاً بمساعدة الصلاة أو عبر التأمل أو من خلال تواجد الإنسان وإقامته مع الطبيعة أو عبر الاستماع إلى الموسيقى أو الفلسفات أو أن يكون مفتوحاً تماماً في لقائه مع العالم.

إن سورين يهز رأسه حزناً على الباحثين المعاصرين وكيف هم مشغولون في محاولات لإثبات ما لا يمكن إثباته، أي مضيعة للوقت فقط:

« ... أنا أحتاج لأعرف كيف تسير عملية الهضم كي أستطيع أن آكل أو أنا محتاج لأعرف كيف تسير حركة النظام العصبي كي أؤمن بالله وأحب

البشر؟ كان سورين متذمراً من اعتقادات هؤلاء البشر القوية ومن تلك المهارات القابلة للقياس والتي كانت موجودة حتى في وقته،وهكذا نكتشف ارتياح سورين في كتابه «الخاتمة غير العلمية»:

«لحسن الحظ أنا الآن عبر أحاسيسي خال من المسؤولية لا أحتاج أن أثبت شيئاً!» وبدل من ذلك كان مهتماً في الواقع الحياتي كله، مهتم بذلك الإنسان الأصلي الذي قرر الآن أن يتبع صوته الجوّاني والذي يتبع روحه ويبحث عن معنى لحياته بصورة أفضل ويدخل أكثر ويتعمق في الوجود وكيف تعمل الروح عندها؟

- أي سورين، ماذا ستقول لهم؟

- أولاً، وبادئ ذي بدء، حيي نفسك وتحية لعدم يقينها الخاص، أنت لا تعرف إذا كان الله موجوداً أم لا! حسناً، أنت لا تعرف ما هي التجربة الروحية؟ ممتاز، ثم أنت لديك مسبقاً الخصائص الضرورية اللازمة التي يقتضي أن تبدأ بها من أي مكان وهذه أهم بداية.

- لكن انتظر الآن، هل يمكن لي أن أستمد المساعدة من هؤلاء الذين سبقوني كالرجال القديسون والنساء القديسات والفلاسفة والديانات؟

- لا، أبداً، على الإطلاق! يقول سورين، كيف لك أن تعرف أن الذي وجدوه هو شيء لك أنت؟ كيف لك أن تعرف أن ذلك المعنى الذي وجدوه كنت أنت تبحث عنه أيضاً؟ أوقد يكون الجميع وجدوا شيئاً في الأساس لا يُشكل قيمة لديك؟

- حسناً، لكن كل كتبك وكتاباتك ماذا تعني بها؟

- في الحقيقة، إن كتبي لا يمكنك أن تستند إليها، أنا لستُ معلماً وليس لدي توابع أو تلاميذ إنها مسؤولية وأنا لا أريد أن أتحملها.

لا، يكتب كيركيجارد في كتابه الخاتمة غير علمية، إذا أراد المرء أن يدرس ويتحقق من المجهول عليه ألاّ يؤمن بأي شيء، وأن يعطي المساحة

والمجال لشيء غير متوقع ويستقبله ويجد حيزاً لتتحرك الجوّانية الخاصة به، عندها يمكن له أن يكتشف اكتشافاً لا يمكن اكتشافه أو كما كتب الراهب السوري الزائف- كتب ديونيسيوس عام 500 لتوابعه وتلاميذه:

«تيموتيو، أصدقائي، نصيحتي لكم في بحثكم الخاص وراء الشيء الغامض في العالم، اترك كل شيء خلفك، كل شيء رأيته، فهمته، اترك كل أحاسيسك، أفكارك، كل الذي استوعبته، كل ما هو موجود، وغير موجود. [....] حينئذ، عندما تترك كل شيء خلفك تماماً وتقدم نفسك بالكامل، سيتم رفعك إلى فوق من شعاع أو شعلة ستدخل بهذا الضوء إلى الظلمة الإلهية التي هي وراء كل ما هو يكون».

الآن يطرح سورين سؤالاً:

- هل أنت على عجل؟

- نعم، أنا مستعجل، ومستعجل جداً، إذا كان هناك شيء يستلزم معرفته، نعم، بالطبع يرغب المرء في أن يعرفه الآن على الأقل قبل أن يموت.

- نعم، صحيح، يمكن أن تحسب هكذا، يجيب سورين بضجر واضح ودون خجل كالعادة، إن البحث عن حقيقة الوجود ينبغي أن «تولد بحذر وبشكل بطيء» وأنا أعتقد أن حياة واحدة لا تكفي لذلك.

- لكن، ينبغي أن أُولد بشكل بطيء وذلك لأن حياة واحدة لا تكفي، معنى ذلك أني لا أستطيع أن أصل إلى الهدف على الإطلاق، لماذا أعمل كل هذا إذاً؟

الآن يتحسر سورين، الآن يأخذ نفساً عميقاً، ويبدأ من الأول ليشرح إلى هؤلاء الناس بطيئي الفهم مرة أخرى:

- أنت إنسان، يقول سورين، والإنسان ليس كرسياً، ولا منتج صناعي جاهز وإنما هو كائن حي في طريقه إلى التغيير باستمرار ليصبح إنساناً

آخر، أي طوال طريقه هو في تغيير ليصبح أكثر مما كان عليه اليوم وأن بحثه دائم ليس له بداية ولا نهاية، إن البحث عن الذات أن تكون إنساناً، ماذا سيكون المعنى من العيش لو حصلت معجزة وفهمت كل شيء في عشرين ثانية؟ هل «ستولد بحذر وبطء شديد » هل ستتغير وتيرة إيقاع روحك، «وعذابك الأبدي اللانهائي» إن مناشدتك للعواطف والحب والحنان خطوة بعد خطوة، تتحدى وتشعر بالدهشة باستمرار ولديك فضول دائم حول نفسك، وحول كل ما هو موجود داخل وخارج نفسك، أحياناً يمكنك أن تجد طرق سالكة وتقودك إلى الأمام بسهولة، كالطريق ذو الاتجاه الواحد وأحياناً أخرى تواجه فجأة طرقاً متعددة تعترض طريقك فتتبع مساراً كالأعمى لا تعرف إلى أين يؤدي بك، وأحياناً تمر بدروب ملتوية، طريق ترابي متعرج أو خط سريع وشارع مستقيم، أحياناً تسير بخطى بطيئة وأحياناً تخطو خطى سريعة، إن بحثك الخاص يجعلك تعمل على اختيارات جديدة وتقوم بتصرفات وأعمال جديدة وتطرح أسئلة جديدة وتجد أجوبة جديدة وتحصل على إنسان جديد ومن ثم تبدأ بأسئلة جديدة مرة أخرى....

- أنا لم أتوقف أبداً، يقول سورين، ولا بحثك له نهاية أو له شيء محدد.

أن تفتح نفسك للوجود الغامض معناه التحدي الكبير في تلك الخطوة السابعة من طريق سورين، أن تفتح نفسك وتفرغها تماماً لتصبح فارغاً من الداخل وأن تصبح عرضة لاستقبال الاتصال، أن تصل إلى هذا الوعي الخاص يطلق عليه سورين الوعي الشفاف، وهذا يمكن عمله فقط في الحاضر.

ذات يوم سنحت لي الفرصة لأتكلم مع دالاي لاما، كان يسكن في فندق سبع نجوم في ستوكهولم، وكان يقيم في واحدة من أضخم غرف

الفندق تلك التي يقطنها كبار الشخصيات، أثاث فاخر، سقف عالي جميل، والقائد الروحي التبتياني يلف جسده بقطعة قماش حمراء ويده وكتفه الأيمن عاريين ويرتدي نظارة طبية كبيرة:

- من أين يبدأ الإنسان ببحثه عن معنى وجوده؟! سألته.

- أتعلم! انظر إلى حواس الإنسان الخمسة إنها حواس متفرقة عن بعضها البعض، حاسة هنا وحاسة هناك، إنك لا تستطيع أن تجد الهدوء أو الراحة والسكينة إلا إذا استطعت أولاً وأخيراً أن تتعلم أن تركز كي يتمكن وعيك من أن يتماسك في نقطة واحدة معينة وإلا تتفوق الأنا وتسيطر على العملية كلها، انظر، أرأيت، هناك لا تجد شيئاً آخر، لا شيء غيرك أنت، أنت نفسك وحدك! وبدأ يضحك.

إن الغموض هو مخصص كي لا يعمل شيئاً، إنه غموض فهو يكرس نفسه على مر العصور للغموض والامتناع فقط، إنه لا ينام، لا يأكل، لا يشرب، لا يتكلم، إنه موجود فقط إلى أن يصل إلى الحد الأقصى!. إن سورين ودالاي لاما، يتحدثان عن شيء آخر، إنهما يتحدثان عن زهد-الأنا- وكيف على المرء أن يتجنب تفسيراته الخاصة للعالم إن المفكر الروحي روبرت فورمان الأمريكي المعاصر، تكلم عن أسلوب فن النسيان ويقول أن البراعة أن تنس ما تعرفه مسبقاً، انس كل شيء منذ ذلك اليوم الذي ولدت فيه انساه وربما قبل ذلك أيضاً منذ وضعنا نحن البشر المفاهيم وجمعنا التصورات حول الواقع الذي نعيشه، بالطبع إنها عملية ضرورية، إنها أفكار ومفاهيم مميزة للعمل بها في الحياة اليومية ولكن عندما تظهر تلك الأسئلة غير اليومية علينا أن نواجهها، تلك الأسئلة الكبيرة والتي هي أكبر من الإنسان وأكبر من ذلك العالم المادي الذي اعتدنا عليه، تلك الصور غير المألوفة التي تقلقنا وتزعجنا، تُشبه ذلك المسافر الذي يذهب إلى بلد جديد ويأخذ معه خارطة خاطئة:

- اسمح لي، عذراً، هل برج إيفل قريب من ساحة كنسي نغتون هنا في لندن؟ مع العديد من المفاهيم هناك مخاطرة كبيرة في أن نحاول التكيف مع أي من التجارب الروحية كي تتناسب مع ما نتوقعه:

- برج إيفل من المفترض أن يقع هنا، انظر إلى الخريطة التي معي؟

لقد علمني دالاي لاما هناك في الفندق في غرفة كبار الشخصيات على تمرين بسيط:

«اجلس بطريقة مريحة على أن يكون ظهرك في وضع مستقيم تماماً، جلسة اللوتس، لاسيما أنتم الغربيون سيئين بهذه الجلسة، فأنتم غير معتادين عليها، حافظ على عينيك نصف مفتوحة وانظر إلى نقطة محددة أمامك على الأرض ثم بعد ذلك تنفس كما هو معتاد أن تتنفس وتابع بتركيز عالي كيف يدخل الهواء إلى الرئتين وكيف يخرج من خلال الخياشيم، خذ شهيق، نفس إلى الداخل، ثم زفير، أخرج الهواء إلى الخارج، شهيقاً، زفيراً، ثم شهيق، ثم زفير».

- هل هذا كل شيء؟

«- نعم، إن هذا كل شيء! أرأيت، إن هذا وحده صعب بما فيه الكفاية، لو أنك بدأت تتنفس الشهيق والزفير بعد عدة أنفاس وأنت في تركيز كامل ولكن بعد لحظات تذهب الأحاسيس وتنساب في طريقها، عندها ينبغي عليك أن تعود لجذبها مرة أخرى، أنا أتنفس، أسحب الهواء إلى الداخل، أنا أتنفس، أخرج الهواء إلى الخارج».

«- إنه شيء مضجر حقاً».

أنا أجرب ذلك إن ذلك مُملّ، أحياناً أشعر بانزعاج حقاً فبعد ثلاث أنفاس أفقد التركيز وأفكر ماذا سأطبخ اليوم للغداء ثم ثلاث أنفاس وأفقد التركيز وأفكر بالفيلم الذي شاهدته أمس، نفسين وأفكر بالأطفال، خمسة عشر نفس أصبح مرتاحاً مع نفسي للغاية وأفقد التركيز، أناقش نفسي

ليس مملاً أو مضجراً فقط وإنما هو شيء معذب أيضاً، عندما تكون الأنا مشغولة بالتنفس تأخذ الشهيق وتخرج الزفير وعندما لم تعد تستطع الهروب إلى ذلك الذي كنت تهرب إليه أو ذلك الذي سوف يأتي وهكذا،عندها تفقد السيطرة وتكون في وضع واحد فقط إنه ليس أفضل حالات الأنا، لم يعد هناك أي شيء مناسب، لا قوانين أنت وضعتها لنفسك تناسب ولم يعد لها معنى وليس هناك قواعد ينبغي أن تفعلها أو يجدر بك القيام بها، يمكنك أن تقتنع بالحقيقة في أية لحظة دون وقت محدد، إن تلك القوانين التي وضعتها لنفسك كي تكون راضياً عن نفسك وكل تلك الأفكار التي قررت أن تخبأها يمكن لها أن تظهر مرة أخرى، وجميع المشاعر والأحاسيس التي كنت قد بذلت جهداً كبيراً كي تبعدها عن رأسك تخرج مرة أخرى من أماكنها المختبئة داخل النفس، قد تشعر بألم عضلي غير متوقع، قد تشرع بالبكاء وتبكي دون انقطاع مثل طفل صغير، إنه بكاء قديم مركون هناك داخل النفس وذلك عندما أصبح الحارس مشغولاً بأشياء أخرى الآن استيقظ واخرج للحياة، أو ربما تضحك بدون سبب أو قد تضحك على كل شيء، إن الشخص الذي كنت ترسم له صورة عبر المفاهيم والآمال المُزينة، لم يعد موجوداً والشخص الوحيد الذي لديك هو أنت كما أنت هذا الشخص الحاضر والواقف أمامك في هذه اللحظة هو أنت نفسك، الآن عندما كنت طفلاً صغيراً تبرز نفسك وتقف أمام ذاتك لا تفعل شيئاً، عليك أن تستمر في أن تكون، دع الضحك يجري إلى أن يتوقف من نفسه وأخرج البكاء ودع الدموع تنهال إلى أن تنتهي، دع كل شيء يخرج من نفسك واتركه يأخذ مجاله إلى أن يختفي من تلقاء نفسه، تنفس فقط، شهيق- زفير- شهيق- زفير-كن فقط- عليك أن تكون فقط- وهكذا سترى بأن الحزن تهاوى والضحك يزول ويضمحل وكل شيء هو عملية وكما يقول البوذيون: ((**كل شيء يأتي وكل شيء يختفي**)).

- كم يستغرق ذلك كم من الوقت، ينبغي أن أجلس؟ سألت دالاي لاما بقلق.

نصف ساعة، جيد، لكن إذا جلست ساعة كاملة يكون أفضل وكلما جلست على فترات يكون ذلك من الأحسن، يفضل الجلوس ساعة ولكن لعدة مرات في اليوم أفضل من ساعات طويلة ومرات أقل وهذا يعتمد عليك أنت؟ هل لديك أطفال؟

- نعم؟

- أريد أن أقول لك شيئاً، عندما تكون مع أطفالك ينبغي أن تكون معهم بشكل كامل تماماً وعندما تتأمل نفسك كن مع نفسك تماماً، أي بمعنى كن مع الأطفال بشكل كامل عندما تكون معهم، اترك الأفكار الأخرى وابق مع الأطفال فقط، وهذا أفضل تمرين تمارسه، ومن ثم احصل على خمس دقائق زيادة للتنفس، شهيق- زفير- وكذلك هناك مختلف أنواع البدائل كممارسة هذا التمرين في العديد من التقاليد الروحية، عند الهندوس يركز المرء على تركيب الأحرف، أو خلط الصور، عند المسيح يمكن للمرء أن يعيد تكرار كلمات المسيح، في الدين الإسلامي واليهودية يقرأ المرء النصوص المقدسة بشكل كامل، بغض النظر عما يحدث داخل أو خارج النفس فإن المرء يعود إلى ممارسة هذا التمرين مراراً وتكراراً كل يوم.

«إن الروح لا تفعل شيئاً» هذا ما جاء في كتابات يوحنا الصليب، لقد كتب يوحنا في كتابه «ليلة الروح المعتمة» افتح نفسك وانتظر فقط، استقبل روحك ولا تتراجع.

إن البوذيين الزن هم الأكثر صرامة وتزمتاً من الآخرين، ذات يوم كنت في اليابان في معبد كيوتو في ليلة تأمل، بدأنا في وضعية الجلوس مع ركبة مطوية وظهرنا مستقيم بصورة تامة، على أرض خشبية قديمة عمرها 700 سنة، كان الخشب ممتداً على الجدران ويحيط بنا في كل مكان في

المعبد، جلسنا نتأمل لمدة 30 دقيقة للمرة الواحدة، كان الرهبان يتجولون خلف ظهورنا وهم يسيرون ببطء شديد في جو رسمي ماسكين بأيديهم عصوات خشبية، إذا نام شخص ما نوماً خفيفاً، قليلاً، أو أحنى ظهره قليلاً، يضربوه صفعة على ظهره بالعصا ليعتدل ظهره بشكل مضبوط ثم يحيّونه منحنين كإشارة للشكر.

كانوا لا يسمحون بعمل أي شيء خلال فترة التأمل،وإذا شعر المرء بألم أو شيء يوجعه أو حتى لو رغب في حكّ منطقة ما في جسمه فإن ذلك غير مقبول وأي حركة تبدر منه يضرب بالعصا مباشرة، ينبغي أن تتخلى عن كل شيء وأن تتحمل كل شيء، تماماً كل شيء، حتى لو حضرت أشياء مقدسة أو وحي ينبغي على المرء أن لا يتحرك وأن يتحمل فقط، إذا كان المرء يشعر بأنه مليء بالتوقعات المباركة، تجربة ضوء، أو إذا شعرت بأنك على اتصال مع الإله لا تهتم، واعمل كالعادة، تنفس فقط شهيق- زفير- أو كما يقول أحد بوذيين الزن معلم التأمل:

- قبل أن تتأمل لا شيء وبعد أن تتأمل لا شيء.

لا أحد من هؤلاء جميعاً، لا البوذيين الزن، ولا الرهبان المسيحيين، ولا يوحنا الصليب، أو الفيلسوف سورين أوكل أولئك الذين أعطوا أهمية كبرى للتجارب الوجودية والذين لا يؤمنون بتلك التجارب، أقصد بأن مخاطرتهم كبيرة جداً في إثبات تجاربهم وذلك قد سبب درجة كبيرة من الارتباك لهم وللآخرين من أنهم قد يتوصلوا إلى قناعة بأن لا وجود للإله وأن الاتصال الذي توصل إليه ليس الإله وإنما داخلهم هم أنفسهم وأن قدرة دماغهم هي التي خلقت وابتكرت لهم تلك الصور والتخيّلات، إن الأشخاص الذين نجوا من الموت يشرحون لنا كيف كان إحساسهم عندما اقترب الموت منهم وقد تحدثوا بأنهم لحظة الموت قد شاهدوا نفقاً ينبعث منه نور وظهر لهم نوع من المخلوقات وهي تقترب لترحب بهم في ضبابية الموت. إن الغريب

في الأمـر أن النـصارى يقـرّون ويـدّعون باليـسوع ومـريم، بينمـا المـسلمين يلاقون نبيّهم محمد، في حين أن الهنـدوس يقومـون بتلبيـة كريشنا، بارفاتي وشيفا.

إن البحـث عـن انفتـاح الـروح مـن وجهـة نظـر سـورين بـأن الـشرط الحقيقي للروحانية هو ليس الرومانسية بل العكس من ذلك فهو عبارة عن تقشير النفس وتقشيرها ثم تقشيرها مرة أخرى، وأن على المرء أن لا يتخيل أو يتوقـع حـدوث شـيء مـا بالإضـافة إلى أن عليـه أن لا يـصبح مندهـشاً أو منفعلاً أو يشعر بالذعر فجأة حين يظهر لعيانـه شـيء مـا أو عنـد اكتـشافه شيئاً ما جاء بعكس افتراضـاته وتوقعاتـه الـتي كان يفترضـها سـابقاً، لم يقل يسوع في أي مكـان كـان ينبغـي علـى المـرء أن يتلقـى ملكـوت الـسماء كطفـل صغير:

«انظر هناك، ضوء!» تقول الطفلة وهي تؤشر على المصباح المعلق في السقف، إنها تلاحظ وتكتـشف فقـط، لا تـسأل لماذا أو كيـف ولا تـسأل لماذا ذلك المصباح يُنير أحياناً وأحياناً يكون مظلماً لا يُنير ولا تـسأل مـن اخترعـه أو صممه ولا من اشتراه ولا من أين أتى ولا تصدر حكماً كيف يبدو فيما إذا كان جميلاً أو بشعاً، فقـط ضـوء لا أكثـر ولا أقـل، كذلك يُناشـد الـصوفيون أولئك الذي يسعون للبحث:

- انظـر، لاحـظ، اكتـشف فقـط ولا تحكـم! انظـر هنـا كأنـه جـزء مـن الواقع الذي لم ألتقيـه مـن قبـل أبداً، نقطـة. بالمـساعدة مـن الجوّانيـة ترتفـع الحسية وتصعد بشكل مباشر إلى الروحية.

إن معظم التقاليد الروحية تقرُ بأن كل شـيء يسير علـى نحوٍ أفضل بالنظـام والانـضباط، لـيس هنـاك فـرق فيمـا إذا كنـت سـتتعلم كيـف تقـود دراجـة هوائيـة أو كنـت ترغـب في أن تـتعلم العـزف علـى آلـة التـشيلو أو أن تبحث عن الإلـه عبر جرعـة قليلـة كل يـوم بـدلاً عـن أربـع سـاعات بـين كل

أسبوع وأسبوع، في الدين المسيحي تصلي الراهبات ست مرات باليوم بينما الرهبان يصلون في أوقات محدودة، خمس صلوات يصلي المسلمون إلى الله في اليوم الواحد، يتأمل الشرق آسيويون، البوذيون، في الصباح والمساء، يستعمل دالاي لاما عدة ساعات كل يوم كي يحضر نفسه للموت. لكن هناك أيضاً هؤلاء الذين يفكرون كسورين كيركيجارد الذين يفضلون تمريناً دائماً ليلاحظ ويكتشف بشكل دائم، نوع من الجوّانية المزمنة التي تجعل الأحاسيس مستعدة طوال الوقت لتقابل العدم وغير العلمانية في الدنيوية، هكذا يعمل بنفسه لوحده باستمرار، يفضح دون توقف أفكاره، أحاسيسه، مشاعره، ردة فعله، كل يوم وكل ساعة يتأمل نفسه والآخرين بتواصل مستمر، ماذا يقولون، ماذا يفعلون، وكيف أن كلماتهم وتصرفاتهم مربوطة ولها علاقة ببعضها البعض، وأنهم يعيشون في فحص داخلي عن الواقع، وبمجرد أن يجد شيئاً مُثيراً للاهتمام في تلك السطحية يحاول التحقق منه لكن معظم ذلك يجده في الجوّانية، يكتب، يُعدّ الملاحظات، يجمع بعضها ببعض ويلخصها، ثم بعد ذلك يجد ما يوصله للعالم.

عندما أتأمل لبضعة شهور، يحدث عندها بين الحين والآخر مع كل ذلك الضيق والإزعاج الذي يلح في رأسي، ينشأ ركود وهدوء أحياناً، الاستراحة بين الشهيق والزفير تصبح أطول، حدود الجسد تصبح باهتة، الوعي يتواجد في نوع من الظلمة اللانهائية، الشعور يكون حيادياً في حالة إحساس مريح والوقت يلعب وتصبح بضعة دقائق يشعر وكأنها ساعة، ربع ساعة وكأنها دقيقة واحدة، إنها حالة تدوم فترة قصيرة وتختفي ثم بعد ذلك يبدأ يعود ذلك الإلحاح الذي تعرفه مرة أخرى، «إنها حالة تجعلك تنسى الواقع ثم بعد ذلك تختفي ويعود النق»، ربما من المحتمل أن يستطيع ذلك، فيما بعد، أن يعطيني لمحة، بادرة عن حياتي اليومية إلى نوع جديد من الهدوء، قدر ضئيل من الوضوح، إلقاء الضوء على يومياتنا لنشعر بصورة

أفضل وأفضل، «أي أنها قد تفيدني حتى وإن كانت لحظات قصيرة»، ولكن، لا أعرف!

لقد سألت معلم التأمل فيما إذا كنتُ أنا في الطريق الصحيح وقد أجابني بانزعاج وكأنه دلاي لاما:

«ليس هذا هو الأفضل، تنفس فقط، خذ شهيقاً وزفيراً!»

عبر التأمل، أو الصلاة، أو من خلال البحث عن طرق أخرى جديدة تظهر لدى الإنسان مقدرة على الاتزان، إن المشاعر تأتي وتذهب، والخيال يرسم الصور ويأتي الدماغ يفكر ويتأمل، يفسر ويتوق ويتشوق ويخشى ويخاف، لكن إذا كان المرء متمرناً على الروحانية، يجلس على الأرضية الخشبية ويتنفس فقط الشهيق والزفير.

إذا كنت تعيش الروحانية، كما يطلق عليها سورين في الحياة الواقعية لحياتنا اليومية، هي التي ستقودك وتقود مشاعرك فشروق الشمس قد يجعلك سعيداً والمطر قد يشعرك معه بأنك محبط، مكتئب، والنجاح يعطيك الإلهام، والفشل يشعرك بخيبة الأمل، والتي بدورها تشعرك بالضيق والانزعاج، ترمي بكومة من المشاعر تارة إلى الأمام وتارة إلى الخلف لكن هؤلاء الذي حصلوا على تواصل مع الروحانية لديهم مكان هادئ، له جذوره الراسخة كالعين الثابتة في الإعصار، هناك حيث هم لا ينقادون من قبل الأوضاع الخارجية، هذا لا يعني أنهم لا يتأثرون بالظروف والأحوال الخارجية التي تحدث من حولهم لكن هناك نقطة واحدة ثابتة داخل أنفسهم لا تتحرك يشعرون بأنها هادئة لا تتأثر بأي شيء بغض النظر عن كل القلق الموجود داخل أو خارج أنفسهم، تلك الأبدية تكتمل مع حرف أو، ويعيشون في تلك اللانهائية.

إن الباحثين الذين عملوا في السنوات الأخيرة تجارب عن الرهبان والبوذيين ذوي الخبرة وقارنوهم مع هؤلاء قليلي الخبرة والنصف مدربين

والذين لا يتأملون والمدنيين قد تبينت لهم ضروب الاختلاف بينهم، فعندما تعرض هؤلاء المجاميع الثلاث إلى ضغوطات وصدمات عديدة كانت ردود فعلهم مختلفة تماماً، عندما تعرض غير المتدربين إلى عاطفة مُثيرة حادة بالأداة كانت ردود فعلهم حساسة جداً وقوية وقد استغرقوا فترة طويلة ليستعيد نظام الجهاز العصبي في الجسم استرخاءه مرة أخرى، لقد شعروا بالخوف في بداية الأمر ولكن سرعان ما عادوا إلى وضعهم الطبيعي، لدى الراهبات والرهبان الذين أمضوا سنوات طويلة جالسين يركزون على الروحانية ظهرت لديهم صدمة صغيرة فقط في مؤشر الرسم البياني ولقد سجل الجسد رد فعله تجاه أي شيء يحدث غير متوقع لكن الأحاسيس لم تتأثر.

إن السؤال المطروح هو: فيما إذا كان ذلك الهدوء الذي جلبه الرهبان إلى أنفسهم هل هو نوع من الجذور الراسخة في ذلك الواقع الكبير، أم أنه مجرد عادة تدربوا عليها فقط؟ هل الرهبان هم مجرد نوع من نخبة رياضية مدربة فقط أم ماذا؟

يعتقد سورين أن ذلك من المحتمل أن يصبح جزءاً من واقع أكبر، ليس مع الأنا الشخصية، بل هو راسخ، متجذر في الروح في الوقت الحاضر، الجسد روح، الروح جسد، إنها قدرات الإنسان الإجمالية، عندما تتعرف الأنا وتتمكن النفس من تحديد الهوية تماماً مع الروح تختفي الأنانية، يعتقد سورين، وعندها يختفي ذلك الذي يسميه ضرورة أو احتياجاً للعالم ولأنفسنا والتباهي بالنفس والعالم يختفي ويصبح الإنسان خالداً، ويكتب سورين، - إما أو- إما أن يصبح «عجوزاً بصورة هائلة» أو «صورة شباب دائم إلى الأبد».

هكذا إذاً كانت الأنا في المرحلة الأولى تمتاز تلك الفترة التي تتفحص بها الواقع الخارجي وفي مرحلة سابقة كانت تتعرف على نفسها لتحدد

معنى هويتها، تحاول الآن أن تضع مكاناً لها بالكامل، ما هي الموانع في العلاقة للمعنى الكبير في حياتي؟

- ما هو المعنى مع كل شيء؟ وما هو واجبي الأساسي؟ ما هي مهمتي الرئيسية؟

يعتقد سورين أنه قد عرف.

كان يعتقد أنه كان عاشقاً كبيراً.

«إن الشخص الذي لا يستطيع أن يظهر نفسه، لا يستطيع أن يحب أبداً...»

- إما أو-

الخطوة الثامنة!

أن تحب بلا شروط

إن أفعال الحب هي واحدة من أكبر ما كتب سورين التي كتبها باسمه الحقيقي، هي ليست ثقافة أو تعليماً وليست أطروحة أو تصوراً عن مفاهيم الحب عبر الأوقات بل هي أقرب إلى تدفق ينبوع نهر، مونولوج، حديث داخلي يُشبه جريان النهر الجاري يأخذك معه في السير مع العملية الخاصة به.

سورين الآن جالس في شقته في كوبنهايكن وأمامه كومة من الأوراق المتراكمة، إنه يحاول أن يستمع إلى الجوّانية بتركيز جيد، مع كل محاولاته استطاع أن يعثر على داخليته وترك الحسية الخاصة به مفتوحة كي يقدر أن يطرح أسئلة على نفسه، ما هو موجود هناك ما وراء الأنا الأصلية التي عرفها جيداً؟ ماذا يوجد خلف روح سورين؟

سورين جالس هناك ينتظر أن يجد الجواب، إنه يمسك بالقلم ويكتب أول كلماته من الفصل الأول:

«- إذا كان ذلك صحيحاً [....] إذا كان ينبغي على المرء أن يصدق بذلك الذي لا يتمكن من رؤيته بالعين المجردة، فلأن عليه أولاً وقبل كل شيء أن لا يتوقف إيمانه بالحب أبداً»

وهكذا يستمر سورين في تفكيره ويقول:

- لذلك فإن الحب هو ليس شيئاً مبهماً فقط أو غير مرئي أولا يمكن أن نمسكه باليد وإنما هو أيضاً في أنقى أشكاله غير منطقي تماماً وهو موجود في كل شيء!.

ثم يضيف:

- إنه في حد ذاته، الدليل على أن هناك أبدية خالدة موجودة.

- لا، يا سورين، أنت الآن بدأت تسرع في التقدم إلى الأمام كثيراً لا يمكن لك أن تقفز فقط هكذا، نحن لا نعرف شيئاً عن أي شيء وتقول أن الحب هو البرهان على كل شيء، اشرح نفسك؟

يتوقف سورين عن الكتابة وينظر إلى فوق، ويبدأ بطرح أسئلته اللانهائية:

- هل الحب موجود؟! رغم أنه لم يُمسك به أو يقبض عليه؟

- نعم بالطبع موجود!

-هل هناك أنواع مختلفة للحب؟

- نعم، هل تقصد حبنا للأفكار، للأشياء، حبي لزوجي وأطفالي، لأهلي وأصدقائي، أوه، لقد نسيت، حبي لنفسي بالطبع.

-نعم، نعم، إنها أنواع مختلفة من الحب، لكن هل هناك نوع آخر من الحب؟

فكرَّ قليلاً ثم خطر على باله أن يجيب:

- هل تقصد الحب غير المشروط؟

- تماماً، البراعة هي أن تهتم أو ترعى الآخرين دون أن تحصل على أي شيء في المقابل،أن تحب دون أن تأخذ هذا هو الحب الذي أتكلم عنه.

-حسناً.

-إن هذه ليست معجزة؟ إن الحب موجود في منظور حياتنا اليومية بشكل شامل وكامل، إنها فكرة حمقاء أن تفكر بهذه الطريقة، إنه تفكير

مقلوب حقاً لماذا لا نضع شروطاً للحب؟ لماذا نحب دون شروط عندما توجد أشياء كثيرة يمكن أن نفوز بها لنغني ونعزز الأنا الخاصة بنا، أن تحب وتكون محبوباً، ما هو الهدف من إهدار طاقة كبيرة دون الحصول على أي شيء بالمقابل؟

- نعم، يمكن للمرء أن يتساءل هكذا تساؤلات! رميت له سؤالاً آخر بسرعة كبيرة كي لا يسبقني هو للسؤال:

- ماذا تعتقد أنت؟

- عندما نحب على أساس يومياتنا، نحن لدينا الأنا وحياتنا ومنظورنا الخاص بها، إنه حب عنك وعن حياتك وعن أصدقائك وكل تلك الأشياء الخاصة بك، وهذا الحب اليومي يولد ويموت معك يكون معك إلى أن تتوقف حياتك، إنه الحب السهل!

- سهل!؟ إن حبي لأولادي ليس فيه شيء من السهولة على الإطلاق، إنه أكثر وأعمق حب دموي موجع بالغ الجدية.

- يتضح لنا أن حياتك محدودة وإنها لكذلك، نعم، بالتأكيد، ولكن من منظور الأبدية إنها محدودة وذلك لأنها متجهة إلى جزء من الواقع فقط، غير أنك إذا كنت تستطيع أن تفتح نفسك إلى ذلك الذي هو أكبر منك، أكبر من الأنا الخاصة بك، أكبر من حياتك، أن تكون مفتوحاً إلى ذلك الذي كان قبل أن تولد والذي سوف يبقى موجوداً بعد موتك عندها تتحول أحاسيسك اليومية إلى حب مع منظور أبدي هناك تُدرك أن كل شيء هو جزء من خلاصة واحدة هو كجريان النهر المتدفق، أنت أيضاً، لهذا السبب تحب كل شيء، وكل شيء على أرض الواقع يصبح محبوباً بالنسبة لك، تختفي الأنانية، والجوّانية تكبر ويتسع وعيك ويصبح الوجود كله من منظورك حباً أبدياً واحداً.

الآن يأتي الصمت، ويصبح كل شيء صامتاً في شقة سورين، إنه

يترقب بهدوء مثل معلم فطن ذلك الصمت ويبدأ يتفهم أن على المرء أن لا يخرب ذلك الصمت الذي يأتي من اندهاش، إنه يصمت للتفكير ملياً وبعمق ثم بعد لحظات أبدأ أسأل أنا:

- لكن كيف ارتبط كل هذا مع بعضه البعض ونحن لا نعرف شيئاً عن أي شيء؟

- يبدو أنك لم تفهمني! يقول سورين.

- كلا، لا أعتقد أني فهمتك!

- إن الحب ليس هو الجواب لمعنى الحياة،إنه حلقة الوصل فقط، هو الطريق الذي يربط العملية، إنه الطريق إلى هناك إلى معنى الحياة وذلك أنه عندما يعيش المرء ذلك الحب يمتلك فرصة ليفهم معنى الحياة، إن الحب هو الجوّانية للداخلية نفسها!

- باختصار، هل أنت تتكلم عن جريان النهر وعن الحب بلا شروط طوال الوقت؟

إن سورين غير مقتنع بأن الإنسان يفكر بأن نفسه وروحه جزأن بل هو روح، إنه يعتقد أن كل شيء وحدة واحدة، كل شيء هو جزء ضمن مجموعة واحدة، ما هو الشيء الآخر الذي يكون هناك؟ لا توجد حدود بين الجسد والروح، بينك أنت وبيني، بين الطبيعة والإنسان، الكون والأحاسيس، كل شيء متوحد في وجود واحد، في تكامل، في الكل، في العدم، وطريقة الأنا الأصلية للإنسان لفهم هذا كله، وهذا يكون عبر توحيد الطاقة وكل شيء، داخلية خاصة بالجوّانية، ذلك هو الحب غير المشروط.

إن أجمل صورة رأيتها هي صورة فتاة معوقة مع أمها، في مدينة ميناماتا في اليابان تم التقاطها من قبل الفنان يوجين سميث، الصورة هي عبارة عن حوض سباحة مستطيل مظلم وتقف قربه امرأة فاتحة ذراعيها وتمسك بثبات ابنتها توموكو ذات الستة عشر عاماً، الفتاة مستلقية عارية

واضعة رقبتها براحة تامة بين يدي أمها، الفتاة بُنيتها الجسدية نحيلة، صدرها غريب الشكل، واليدين والقدمين ملتويتين بشكل معكوف وذلك لأنه عندما كانت الأم حاملاً بالفتاة تناولت سمكاً كان يحتوي على زئبق خرج من مصنع قريب في الحي، سموم الزئبق انتقلت من الأم إلى الجنين، والآن يعمل على تكسيرها ببطء شيئاً فشيئاً، الفتاة عمياء، لكن الأم ترى وتنظر إليها مركزة نظرها على وجه ابنتها، بحنان وحضور تام تسبح الاثنتين معاً، كمثال على ما وصف سورين كيف المرء يعيش حباً واحداً كبيراً، حب أبدي بلا نهاية إلى ذاته يكون حاضراً، موجوداً في اللحظة والتو.

عندما أنظر إلى أم توموكو أتألم بشكل واعٍ، كيف لي أن أحدد حبي أنا؟ كيف أحب ناساً أكثر والبعض الآخر أقل؟ وكيف هو ذلك الخلط الخاطئ والمزج بين الغضب والانزعاج مع عدم الرضا والشعور بالذنب، وأفكر أنا أيضاً أن أحب الآخرين بهذه الطريقة، حب دون قيد أو شرط، أود أن أفهم العالم بهذا الإدراك، أن آخذ هذه النظرة عن العالم ولكن كيف يتصرف المرء كي يصل إلى هذا الإحساس؟

ذات يوم التقيت برجل من حكماء البوذية، دروانك كونكوكنور بورينبوشيكان قد جلس دروانك وحيداً في كهف لمدة اثني عشر عاماً مصمماً على البقاء فيه منعزلاً حتى تتكشف له الحقيقة، تخيّل أنك وحيد غالق على نفسك في كهف، تتنفس الشهيق والزفير فقط وتحدق في جدران الكهف سنة بعد أخرى.

كان دروانك في استوكهولم وانتهزت الفرصة كالعادة لألتقي به وأسأله عن تلك الأشياء المهمة:

- من أين نحن قادمون؟ إلى أين نحن متجهون؟

عندئذ بدأ الراهب يضحك بشعره الكثيف غير المُمشط وتقاطيع وجهه كلها تضحك، ثم قال:

- أنت! ثم تمايل قليلاً في وقفته وجمع نفسه ليعدل من وقفته وفكر وعبر المترجم بدأ ينظر إلى عيوني وقال:

- أنت؟ هل تُحب جيرانك؟

- ماذا؟

- هل تُحب جيرانك؟

- نعم، كلا، لا، لا أعرف!

- برأيي من الأفضل لك أن تُكرس وقتك لهذا، بدلاً من أن تُفكر بالولادة والموت وتلك الأشياء التي ما وراءها، أحبب أولاً ثم بعد ذلك ستُحل الأشياء الأخرى!

أحبب جيرانك بدون شرط أو قيد، هكذا قال الراهب غريب الأطوار وتقريباً نفس الكلمات يكتب سورين تماماً في كتابه «أعمال الحب»:

- ابحث عن معنى الحياة عبر النظر إلى ما الذي يحدث لك عند محاولتك أن تحب جيرانك، أن تحبهم ليس لأنهم يسكنون بالقرب منك ولا لأنك تحتاج إليهم ليزودوك بالسكر والطحين عندما ينتهي مخزونك من الطعام، أحببهم لأنهم موجودون، حاول أن تحبهم لتحقق التوازن الخاص بينك والأبدية، واللا أبدية والروحانية في ممارسة العملية.

- لماذا لا؟ يمكن لي أن أبدأ من الناس الأقرب جيراني لماذا لا أبدأ مع بريتا وهانس، بيتر ولينا، هاسا، أنجريد، أوكا وجميع هؤلاء المحيطين بي والذين يسكنون هنا حولي.

- انظر، الآن عدت مرة أخرى وأصبحت هناك في عالمك الصغير! صاح سورين وأخذ يكمل:

- أنت لم تفهم ماذا أقصد بكلمة جيران، بالطبع عليك أن تحب لينا وبريتا أو أياً كانت أسماؤهم، لكن ليس هذا ما أعنيه بل ما أعنيه هو أن تحب الجميع أحبب إلى أقصى حد من المساواة في القيمة وأعطِ الجميع

نفس القيمة بالمحبة، إن الكل لديهم نفس الحق في أن تحبهم وذلك فقط لأنهم بشر أحياء، فقط لأنهم موجودون في هذه الحياة، هذا ما أتكلم عنه!.

إن الفيلسوف البوذي مارتين بوبر عاش لفترة من الزمن تغمره نشوة دينية، كان حاضراً باستمرار وفي كل وقت كان في نشوته تلك وذات يوم جاء إلى بيته شاب صغير يطلب النصيحة منه، كان ذلك الشاب يريد أن يعرف منه هل يخرج إلى الحرب ويحارب أم لا؟ هل يتضامن مع البلد أم مع نفسه؟ ما هو الصواب الذي يمكن له أن يفعله؟

كان الشاب جالساً أمام الفيلسوف بوبر، على الطرف الآخر من الغرفة مشوش الفكر، حائراً يتكلم مع الفيلسوف لكن الفيلسوف لم يسمعه وكان شارداً في مكان آخر، مع الله، وبدا أنه غائب تماماً عن الواقع، مما خيّب أمل الشاب واضطر إلى تركه والذهاب عائداً إلى بيته، بعد عدة أيام تم تجنيد الشاب ودخل الجيش، ثم بعد فترة قصيرة جاؤوا بجثمان الشاب بعد أن مات في ميدان الحرب وعندما عرف الفيلسوف بخبر الشاب حزن حزناً شديداً، تحطم قلبه وأصبح منهاراً، وبدأ يتساءل، ما الفائدة من أنه يعيش حياة روحية سعيدة إذا كان لا يستطيع أن يحب إخوانه من بني البشر؟ حتى أنه قرر قطع اتصاله مع الإله والعودة ليكون إنساناً يعيش في اتصال مباشر مع الناس الآخرين ويكرّس حياته في إطار هذه العلاقة، إن الحياة الواقعية بمجملها هي عبارة عن لقاء، يكتب الفيلسوف بوبر في كتابه «أنا وأنت» أن الحياة تتميز بالعلاقات، كل الحياة يُخيم عليها طابع العلاقات، كل شيء فيها مليء بالعلاقات.

ذات يوم التقيت بامرأة قالت لي أنها اتخذت مهنة في حياتها وهي مهمة إعطاء الحب للآخرين، وهذا يعني أنها بكل الأوضاع وفي كل الحالات تحاول أن تتقبل جميع البشر الذين تلتقي بهم، لقد حاولت أن تحب الآخرين بغضّ النظر عن من هم أو ماذا يفعلون.

- كيف تفعلين هذا؟ سألتها وأنا جالس في شقتها في فاساستان في استوكهولم، وأكملت:

- ليس هناك شخص واحد يعيش في محيطك أو قريباً منك تغضبين منه أحياناً، وبعض الناس تجدين صعوبة في التعامل معهم، وآخرين تشعرين بتذمر حقاً أمامهم، كيف يمكنك التعامل مع هؤلاء؟ كيف تتصرفين معهم؟

أولاً، أوضحت لي تقول أنها تحاول أن تتخيل بأن هناك نقطة ما في داخل نفسها لا يمكن لهذه المساحة أن تُجرح مهما قال الآخر أو مهما فعل، إنها أنا ومن أنا، وما لدي من قيمة وتقدير لنفسي، وعندما ظنت ذات يوم أنها يمكن أن تشعر في جذور أعماقها أن هناك شيئاً من الانزعاج من بعض الآخرين بدأت في التدريب على ممارسة المزيد من الاحترام لذاتها، لقد تعلمت أن تنظر وتنصت إلى الآخرين وتتقبل الآخر الذي أمامها كما هو دون أن تترفع عليه أو تعطيه ظهرها أو تحكم عليه، في بداية الأمر كان من الصعب عليها أن تقبل ذلك وكانت تشعر كما لو أن هناك قوتين تتصارعان في داخلها، - تقول هي: «هناك قوة في داخلي تريد الدفاع عن نفسها وتتسابق مع الآخرين وتطلق الأحكام عليهم وأخرى تتأملهم وتنظر إليهم بحب وحميمية»، لقد تعلمت أن تراقب نظام الدفاع في جسمها، وببطء بدأت تنزع فتيل رد فعلها قليلاً قليلاً.

- أحسست! قالت المرأة:

- أحسست وكأني أنغمس في الأنا الخاصة بي وأدخل داخل نفسي أكثر، بالطبع أنزلت أسلحتي التي كنت أشهرها إلى أسفل، بالإضافة إلى أني حصلت على إحساس قوي بالحب!،

وقالت:

«لقد كان الحب موجوداً هناك طوال الوقت لكنني كنت أخفيه، وأنا

بإرادتي كنت لا أحب الآخرين وأنا وحدي من يمكن لها أن تكون ضد المحيطين بي»،

وقالت أنه ذات يوم، في موقف صعب مرت به عندما بذلت جهداً حقيقياً في أن لا تدخل في صراع مع الآخر، جاءتها لحظة الحب ملأت تماماً الأنا الخاصة بها، عندها لم يكن هناك شيء آخر غير الحب، هي فقط والآخر والحب.

إن الحب في تلك العلاقة هو حلقة الوصل بين الزمنية والأبدية، الحب هو إمكانية أن تعيش بشكل أبدي في الآخرين وفي نفسك، إن هؤلاء الذين ينغمسون في التعمق في الوجود، في كل شيء، في اللاشيء، هم الذين يستطيعون أن يكتشفوا عن ماذا نبحث، إنهم يدركون أننا نبحث عن أنفسنا ويمكن لنا أن نُحب دون وجود رغبة في الحصول على شيء مقابل ذلك الحب.

عندما كتبت هذا الفصل قررت أن أختبر نفسي وأعمل تجربة خلال يوم كامل ودون مطالب كبيرة، حاولت أن أكون حاضرة و أن أعيش الحب الذي يربط أجزاء الكون كله بعضها ببعض وأن أمتنع عن التعرض للأذى كما وأن أنظر إلى الآخرين على أنهم كائنات خالدة، أبدية، وأن أراهم كما هم، وأن أحاول أن أرى كيف نحن مرتبطين بعضنا ببعض عبر الحب.

غداً، فكرت مع نفسي، غداً سأفعل هذا الشيء، ثم بعد لحظات أضحك وأبحث مع نفسي: أنت تقررين أن تبحثي عن أساس الأبدية في نشاط رياضي وتودين أن تقومي بتمرين بدني كرياضة المشي أو كالعوم في المسبح، سأبحث غداً عن اللانهائية ثم بعد ذلك وفي اليوم التالي وعندما أستيقظت في الصباح لم أفكر في أي شيء أبداً وبدلاً عن ذلك شعرت بأنني أتنفس، الغطاء لا يزال فوق جسمي، ضوء الشمس الخفيف يبدأ بالتسرب إلى الغرفة من خلال النافذة، لا أزال أشعر بالنعاس، يدي اليسرى متخشبة

وذلك لأني كنت نائمة عليها، كل شيء في الحياة بدأ يتنفس، نهضت من الفراش وبدأت مباشرة في صنع القهوة وبينما كنت أقوم بتحضير السندويشات، فكرت في أن الطعام أيضاً هو شكل من أشكال علاقة الحب، هناك شخص ما في بلد ما زرع القمح واهتم به ورعاه إلى أن أصبح ناضجاً ثم جناه وقام بتوزيعه على الأسواق ليصل إلينا، وهناك من ربى الدجاج واهتم به وهناك من اعتنى بالخضروات الطماطم، الفلفل، الخيار وغيره زرعها وقطفها ووضعها في صناديق جميلة لتصل إلينا، إذاً إن فطوري هذا هو عبارة عن عمل شخص آخر، أنا أتناول طعاماً هو في الأساس عمل من أعمال حب الآخرين. صرتُ أراقب نفسي عن كثب وأحاول أن أتجنب ردة فعلي الأنانية، لقد نجحت في أن أتجنب انزعاجي حول طريقة زوجي في تناوله للطعام إنها طريقة تُثير غضبي فهو يتناول فطوره كل يوم بنفس الطريقة تماماً.

«لا تُصدري حكمك!» أقول لنفسي، وأدع المربية التي في داخلي تُشير لي برقة، «لا تُدافعي عن نفسك، أنت لست بحاجة لتُدافعي عنها»، كم أشعر بإحراج عندما أدرك بألم أن هناك جيشاً كاملاً يسكن داخلي وهو في حالة تأهب قصوى بشكل دائم ومستعد للهجوم في أية لحظة لأي تلميح أو لمجرد أي انتقاد من قبل أي شخص كان ومن أدنى إشارة سخط أو استهزاء أعبئ جنودي وأزوّدهم بالأسلحة استعداداً للهجوم.

أذهب إلى المدينة لحضور اجتماع عمل، ألاحظ الناس وأراقبهم، ليست العلاقة التي تربط الأشخاص معاً تعني حباً، بل كل الأشياء مبنية على علاقات حب - المجتمع = علاقات، مكان العمل = علاقات، كل شيء عبارة عن علاقات ترتبط معاً وليس فقط الانجذاب أو الحب هو الذي يربط الآخرين بعضهم ببعض، إن الحب كلمة كبيرة وفي بعض الأحيان تظهر، على ما يبدو، في الأفعال الصغيرة جداً، قد يمسك شخص الباب لك

لتدخل الأسواق، هذا يعني حباً، الحلاق الذي يقص شعر الزبون بعناية تامة، يعني حباً، ترتيب الخضروات ووضعها بشكل جميل في محلات الخضار يعني حباً، تعقد اجتماعاً بنّاء يعني حباً، سائق يقود الحافلة بود ولطف، يعني حباً، عندما أعود مساء إلى البيت وأجد زوجي قد عبّأ السيارة بالبنزين وذلك لأنه على علم بأني سأذهب صباح الغد، إلى موتالا في مدينة أخرى وسأقوم برحلة طويلة، هذا يعني حباً.

لقد أفلحت ذات مرة في أن أتعمق داخل مشاعري وذلك كالمرأة التي قابلتها سابقاً تماماً، لم يكن هناك شيئاً مُميزاً أو مُثيراً ولا هو فعل مليء بالتوتر ولكن كنت مجرد أن ألتقي بشخص معين أتضايق وأشعر بالانزعاج منه وبدلاً عن ذلك تمكنت من الإمساك بذلك الغضب إذ بدأت أراقب نفسي بتركيز ولاحظت كيف يمر ذلك الغضب عبري كالضباب من ناحية أخرى وعندما تعدّيت ذلك الضباب أصبحت مشاعري واضحة أكثر وبدأت أشعر بأن علاقتي به أصبحت خالية من الغضب، وفي المساء عندما ذهبتُ إلى منزل صديقتي صوفيا كي أجلب كتاباً ما، يمكن للمرء أن يشعر لجزء من الثانية ويتخيل كيف أن كل شيء متصل مع بعضه البعض، كانت الأشجار، البحر، بركة المياه التي على الطريق الترابي، وروحي - وكل شيء مرتبط برابط واحد، إنها مجرد لمحة واحدة فقط لحب كبير، إذاً هذا يكون الآن، إذاً هذا موجود الآن.

- بدأت أفهم ماذا تقصد يا سورين، أنا الآن أستوعب معنى التعرف على الفرق بين نوعية الأنا المحددة بالحب والروح وقدرتها على العيش بالتواصل مع الجماعة وكل شيء، لكنني لستُ مثلك فأنا لم أصل إلى الذي وصلت إليه أنا ما زلت إلى الآن باقياً في الأنا الضيقة الأفق وأنا لست متأكداً من أني أستطيع أن أترك كل شيء وأعمل الذي يستلزم عليّ عمله كي أفتح نفسي وأحب حقاً. كيف كان ذلك بالنسبة لك يا سورين؟

لقد كتب سورين كيركيجارد كتاباً عن الحب، شعر تجاهه الكثيرين القدامى والمعاصرين باندهاش كبير لا يصدق، هل كان سورين مهتماً إلى حد كبير بالآخر أكثر من نفسه هو؟ هل كان يُقدر محادثة شريك آخر ذكي له؟ هذا ما كان يعرفه الجميع عنه، وكان معروفاً أن سورين يسعد أيضاً بالأشخاص الحرفيين الفنيين ذوي العمل اليدوي الماهرين، وبالطبع لم يتوقف سورين عن حب ريجينا حبيبته أبداً، ولكن هل كان يبالي للباقين الآخرين ويعيرهم اهتمامه؟

«إنهم لا يعرفونني» يكتب سورين في كتاباته:

«إنهم لا يفهمونني!. أنا أعرف ماذا أفعل!»

لكن يا سورين ليس الجميع يشككون بك ولا يفهموك، فهناك من فهمك ولديه صور وانطباع آخر عنك، كما لاحظ آخرون في الحفلات أن سورين يترك الجميع ويختفي ليذهب إلى المطبخ ويتواجد مع الخدم ويقوم بدور القابلة المأذونة التي تقوم بولادة الأطفال، هناك يوّلد سورين أفكاراً جديدة، الشيء نفسه عندما يقوم بسباحته اليومية مع البشر عندما كان يتجول في نزهته اليومية في شوارع كوبنهايكن، ويتوقف ليتكلم مع أي شخص غير متوقع، - الحوذي الذي يقود عربة الخيل، البائعين، مجموعة الأطفال الواقفين هناك في الزاوية، كل هؤلاء كان سورين يراقبهم ويتوقع أن التغير الوحيد سيكون فيهم، مقارنة بهؤلاء الأغنياء الذين ينظر إليهم على أنهم أذكياء ولكن المجتمع قد أفسدهم بتقاليده وأعرافه وأعطى لهم الراحة مسبقاً وأصبحوا كالدمى لا يفكرون ولا يمكن تغييرهم أبداً، كان سورين يقف أمام هؤلاء الناس البسطاء ويطرح عليهم أسئلته الذكية، لكن هل كان ذلك حباً بلا شروط؟ هل هي علاقة عليها قليل من التوابل، الأبدية، الخلود؟ أم ربما لا، بدون شك كان هناك شكلاً من أشكال المصلحة الذاتية أيضاً، رغبة في إثبات أن أفكاره صحيحة ومضبوطة، إلى حد ما لم يصل

سورين ذلك الفيلسوف الكبير إلى ذلك التطور النفسي، الشخصي في أن يعيش تماماً بشكل كامل ذلك الحب غير المشروط، إن ذلك الطريق الذي ابتكره سورين كان له تسع خطوات لكنه لم يتخطى تلك الخطوات جميعها أبداً، إلا أنه حاول الدخول في الخطوة الأولى من المرحلة الروحانية وحاول أن يفتح نفسه إلى الأبدية لكنه بعد فترة تراجع وقرر أن يتوقف واكتفى في أن يعيش الحسية والجوّانية فقط، أن يستمتع عاطفياً وأن يكرس وقته للكتابة والفلسفة، وقد أخذ هذا من وقته الكثير، لقد كانت كتاباته وكتبه هي أعمال حب، هديته الكبرى إلى البشر والإنسانية، لندع الآخرين يكرسوا وقتهم وأنفسهم للحب الواقعي الملموس وأن يأخذ الآخرون وقتهم ليتعلموا هذا الذي كتبه سورين، ويعرفوا كيف يحبّون.

«أنا أستطيع أن أسبح في الحياة» يكتب سورين في كتابه «الخوف والهلع» لكن ذلك العائم، اللغز الغامض لا أستطيع السباحة فيه وذلك لأن جسدي ثقيل جداً.»

طوال فترة الربيع من عام 1848، بعد أن صدر كتاب سورين «أعمال الحب» يأتي الصوت وينادي عليه ليتصارع معه مرة أخرى ويدخله إلى المرحلة الثالثة، المرحلة -الروحية- يحاول سورين التقرب أكثر من تلك المرحلة غير المستكشفة، يلاحظ أنه يقترب أكثر من «الله».

لكن خلال الأشهر القادمة يصبح سورين أكثر تشكيكاً بنفسه، ويتساءل هل ذلك الصوت الذي يدعو إليه هو حقاً المعايشة الروحية؟ هل هذه هي الحقيقة القصوى التي يبحث عنها؟ أم أنه وجد مسبقاً معنى لحياته؟ إن ذلك القرار الذي اتخذه صيف عام 1835 عندما كان في سن 22 والذي كتبه في كتاباته هل لا يزال سارياً إلى الآن وأنه سوف يتحقق ليفهم احتياجات الناس إلى المعنى من حياتهم ويحاول أن يكتشفها في بحثه؟ وما هي تلك الاحتياجات؟ لكنه ليس بحاجة لأن يمشي ليكمل الطريق وحده.

في أبريل عام 1849 استسلم سورين وتخلى عن مطاردته وبحثه عن الحقيقة المطلقة وقرر أن يتوقف وأن يكون فقط مكتفياً بما وصل إليه الآن:

«لقد قررتُ أن لا أتأرجح هنا أوهناك وأن أبقى وفياً فقط للأنا الأصلية الخاصة بي، على أي حال أنا في الأساس شاعر.»

ما هو الشيء الذي استوعبه سورين؟ إن سورين لا يستطيع أن يعيش بالكامل مع أفكاره ومثله العليا الخاصة به، إنه فيلسوف لكنه غير صوفي، كان ينظر إلى الروحانية الجميلة عن بُعد وكان يدرك أنه لن يحصل عليها على الإطلاق، وبدلاً عن ذلك فضل أن يكون شاعرها، مفكرها الخاص، أنا الحبيب التعيس الخاص بنظرياتي، يكتب سورين في 25 أبريل بارتياح تام، فهو يلاحظ حقيقة ذاته ويكتشفها فيقول:

- أوه، يا إلهي، أنا الآن أفهم نفسي!

كان سورين يتبع حقاً المبادئ الخاصة به فقط:

«سر وراء ما تريده أنت، استند دائماً إلى ما تشعر به نفسك، وإذا ناشدتك الجوّانية بأن تبحث عن الجانب الروحي لتجد جواباً له وعن لغز الحياة، فابحث عنه، وإذا لم يكن لديك طريق ما كنتَ قد وضعته أنت لنفسك، وليس لديك قوة دافعة فاترك الأمر فأنت لست بحاجة لتسير وراء شخص ما لمجرد أنه استخدم طريقاً ما أو حدد مساراً له فتذهب أنت وراءه»، لكن هناك بالطبع أشخاص يملكون قوة إرادة دافعة أقوى بكثير من إرادة سورين، أشخاص على استعداد للتضحية بأي شيء من أجل أن يفهموا، ليس فقط ليفهموا أنفسهم وإنما لفهم معنى الحياة الأبدية.

وهكذا إلى هؤلاء ابتكر سورين الخطوة التاسعة والأخيرة في الطريق الروحي لدول الشمال - وهي أن تكون وتتوحّد مع كل شيء!.

الكون!

الكون كله/إنه كل شيء

الخطوة التاسعة!

أن تتوحّد مع كل شيء!

عاش رجل في كوخ صغير وراء أحد الكنائس في شرق آسيا، وفي العام 1226 كان الرجل مستلقياً على أرض طينية عارياً تماماً، اسم الرجل فرانسيسكوس وكان عمره 44 عاماً، كان فرانسيسكوس يجلس هناك يومياً يقتات بعضاً من الكعك البسيط ويستمع إلى أغنية تحكي عن الشمس وينتظر الأخت موت.

إن أشخاصاً قلائل وصلوا إلى الخطوة التاسعة والأخيرة في طريق سورين، ربما فرانسيسكوس الرجل الآسيوي هو أحد هؤلاء الذين توّحدوا مع البعد الروحي وتوحّدوا مع كل شيء ووصلوا إلى هذه المرحلة، إذ كان من الصعب على المرء أن يودع الأنا الأصلية الخاصة به والأصعب عليه أن يحب جيرانه دون قيد أو شرط، لذا فإن الأكثر صعوبة هو أن تكون في تلك المرحلة الحقيقية العليا لتتعلم وتقول وداعاً لكل شيء وتفعل ما فعله فرانسيسكوس الذي خلع ملابسه وأصبح عارياً تماماً أمام الطبيعة والخلق أجمعين وسار ليتابع مهمته.

على الرغم من أن الفترة التي تفصل بين فرانسيسكوس وسورين هي ما يقارب 600 عاماً إلا أن هناك العديد من أوجه التشابه بينهما، لقد كان الاثنان من عائلة غنية وكلاهما عاشا حياة أبناء الأثرياء، وكان الاثنان

يتوقان للسعي وراء أهمية الحياة، ولكن سورين كان قد تناول كتابه الأخضر معه وذهب إلى منطقة غلايلي ليتأمل ويفكر هناك، بدلاً عن ذلك جنّد فرانسيسكوس نفسه وارتدى ملابساً عسكرية وتجهّز تجهيزاً كاملاً وامتطى حصانه فخوراً ورحل خارج المدينة وهو عما قريب سيعود من ملاقاته للإله.

كيف حدث ذلك بالضبط، لا أحد يعرف، هنا يبدأ الناس يتكلمون عن ذلك الرجل الذي أُسر وأصابه مرضٌ خطير وعن الإله الذي تحدث إليه، وهكذا يتكلم البشر كل حسب ما يشاء عن حياة شاب خرج في رحلة ثم بعد أن عاد إلى المدينة تغير بصورة جذرية وبعد أن كان مُحباً لحياة الصخب والحفلات والسهرات تحول إلى رجل راهب وأصبح شخصاً غريب الأطوار، إن فرانسيسكوس لم ينتمي إلى أي من تلك الأقوال، لا أبداً، إنه بدأ بشيء لنفسه، خلع ملابسه الأنيقة الجميلة، وكفّن جسده بقطعة قماش خشنة وشدّ حبلاً وربطه حول بطنه، لقد تنازل عن كل شيء ووهب كل ما يملك إلى الفقراء وخرج حافي القدمين يمشي على محبة الله، لقد غنى، شحذ، تسوّل، استخدم كل ما حصل عليه من أجل ترميم الكنائس وإطعام وإشباع الجائعين.

إن فرانسيسكوس القادم من آسيا وتريزا القادمة من أفيلا وبرجيتا المقدسة وهاكوين ورابي ناشمان والنبي محمد وماهاتما غاندي والمسيح وسقراط، وهايلدجارد القادم من بنجن وكل هؤلاء يرى سورين أنهم كانوا قد تواجدوا بما فيه الكفاية في تلك الخطوة الأخيرة وحددوا ذلك مع مهمة حياتهم تماماً والأبدية الخالدة.

إن هؤلاء الأشخاص ليس لديهم الجوّانية والعاطفة متأججة فقط، يقول سورين هذا وهو يشعل السيكار ليدخن، إنهم كانوا هكذا، ليس لديهم خيار ليمتلئوا به من المعنى الوجودي لذا فقد فتحوا أنفسهم عبر تدفق ذلك

الحب الفياض العظيم انضموا إلى الأبدية واتحدوا معها وليس لديهم جواب آخر ليعيشوا معه، إنه عمل حياتهم.

على الرغم من أن سقراط كان يعرف ماذا يمكن أن تعني له عقوبة الإعدام إلا أنه لم يستطع أن يتوقف ولم يمتنع عن تناول السم، لقد تجرعه وذلك ليوضح أسلوبه ويضع الناس أمام أنفسهم بوضوح تام، ورغم أن الجميع يعرف أنه من المستحيل أن يتنازل الله ويتكلم مع امرأة نبيلة مثل بريدجيت التي واصلت تقديم رؤيتها حول ملاقاتها للإله، وحتى سورين كان يدرك أنه على وشك أن يحفر قبره بيده من جراء فلسفته وفكره الخاص، إنه لم يتوقف يوماً واندفع عام 1854 ودخل في صراع كبير مع المتديّنين وكل أولئك المتزمتين الذين يدّعون بأنهم الوحيدين الذين لديهم حق أوحد حول المعنى الحقيقي للحياة، وليس لأنه أعرب عن اعتقاده بوجود مطالب وجودية يطالب بها، لا، وإنما كان إحساس من الجوّانية هو الذي حمله إلى تلك الأفكار، إن الناس لا يعرفون أنهم يعيشون المرحلة المادية فقط، ما كان سورين ليعرف بذلك لولا ذلك الحب الفياض والعاطفة المتأججة والجوّانية التي دفعت به ليدرك أن هناك حقاً للمرء في أن يبحث بشكل حر عن معنى حياته وتكون لديه الفرصة ليعثر على ذلك المعنى لوحده وبشكل خاص.

الآن بدأت حملة سورين ضد الكنيسة الدنماركية وضد القساوسة الذين كان يعتبرهم خدماً للناس الروحانيين، لقد جادل سورين يقول أن المسيحية هي ليست ديانة بل هي نوع من أسلوب حياة وطالب الدنماركيين أن كل من يحاول العيش بذلك التفسير الديني عليه أن يحكم ذلك بنفسه وقد كتب ذلك في جريدة «اللحظة» التي كان يوزعها بيده شخصياً في شوارع كوبنهايكن:

«لا تستمعوا إلى أهلنا المتدينين! أولئك ممثلين الدين الكبار الذين

يدّعون بأن لديهم الحقيقة، بل جدْ الحقيقة أنت واحكم عليها بنفسك لأن هذا يحق لك ولا تعش في ذلك الماضي السحيق!» يكتب سورين أيضاً:

«كن في اللحظة الحاضرة!» لقد كثر أعداء سورين بعد هذه المقالة الصريحة والآن سيعيش سنة واحدة ثم يموت بعدها.

- إذاً، إلى الآن أنا أتبعك يا سورين وحتى الآن ما زال يمكنني تخمين ما تريد أن تصل إليه وأيضاً يمكن لي أن أجرب قليلاً من طريقك ولكن ماذا عن هؤلاء الذين يطلق عليهم قديسون، من الصعب أن أضع نفسي في صفّهم وأن أجد نفسي واحداً بينهم، هل أستسلم وأتخلى عن كل شيء وأتبعهم؟ لا، لن يحدث هذا على الإطلاق!.

- وذلك لأنك تفهم وترى نفسك لا تزال بأنها شيء! يقول سورين.

عندما «أنا» الإنسان الأصلية تسمح للأنا الجوّانية الخاصة به أن تمتد وتدخل إلى الداخل أكثر وتمتد إلى أبعد من الأعماق، إلى خارج كل الأشياء التي نسميها الأنا، يتعدى المرء كل شيء ويتعدى حتى ذلك الحب الذي يُمارس بدون قيد أو شرط، وهكذا سوف يكتشف بأن ليس هناك شيء يمكن أن يسميه أنا على الإطلاق «إن الأنا تصبح لا شيء». يكتب سورين في كتابه «أفعال الحب والخير».

إن الفرد أمام الآخرين وفي الحياة اليومية هو دائماً شيء وذلك لأن الأنا والشخصية موجودة، إنها تجلس هناك تتحدث وتحاول أن تعبر عن نفسها.

في الحياة اليومية، يقول سورين، أنت فرد، شخص مستقل تماماً، أنت وحيد، منفصل عن كل شيء آخر، في الوقت الحاضر، في هذه اللحظة أنت شيء، لكنك من وجهة نظر الأبدية أنت غير موجود، من المنظور الأبدي أنت هناك لا أحد، لا شيء وجزء من كل شيء، أنت مطلق من كل شيء آخر.

إنه شكل من أشكال التناقض، حتى تعمل وتنفعل وتؤثر في حياة الواقع، وكي تستطيع أن تبني الأنا الخاصة بك ينبغي أن تستوعب نفسك كإنسان أصلي حر، مستقل.

في الحقيقة إن التخيل هو هيكل بنائي يُشيد بشكل مؤقت، إنه وهم، وأداة للعيش من أجل البقاء الذي يناضل الإنسان للوصول إليه، يبدأ هو يبني نفسه ليحصل على حدود واضحة لها ويتحول إلى أنا متوجهاً إلى الداخل بشكل واحد غير مجزأ، هكذا يأتي التبصر فنفهم ونكتشف بأننا نحن أشخاص غير منفصلين، كائنات لم تنفصل عن بعضها أبداً، نحن دائماً ننتمي إلى الوجود وفي لحظة من اللحظات تصبح أنت، يكتب سورين، «جذورك مزروعة في الأبدية».

إن ذلك يجعلني أفكر في تلك اللوحة الكبيرة المعلقة على الحائط في بيتي، كما عملتها الرسامة اليابانية هيروكوكيمورا، لقد رسمتها عندما كنت في زيارة لها في شقتها الصغيرة والتي هي عبارة عن أتيليه أيضاً في مدينة جروندلا، في البداية فتحت الرسامة الألوان وخلطتها مع الماء وفرشتها ونشرتها على ورقة الرز السميكة وصعدت على الطاولة وجلست القرفصاء على اللوحة، ثم غمست فرشاة الرسم في الألوان ووضعتها على اللوحة ووقفت ثابتة للحظات ثم عملت حركة كاملة ورسمت إشارة واحدة تعني كل شيء وفي الوقت نفسه تعني لا شيء أي الاثنين معاً، كل شيء هو نفسه لا شيء، ليست هناك حدود أو شيء يفصل بينهما، ليس هناك أي اختلاف بين النهار والليل، بين الضياء والظلام، بين الحياة والموت، بين البشر والكون.

ما الذي كان يدركه فرانسيسكوس هناك في خضم المعركة في لحظة الجد؟

هل أدرك أن تلك الحدود التي بناها حول نفسه، باستخدامه المال

واللقب، المهنة والمركز الاجتماعي، هل استوعب أن هذا كله لا يعني شيئاً له على الإطلاق؟ وهل أدرك أنه في حقيقة الأمر لا شيء، وأن الهدف من معنى حياته هو لا شيء ولم يكن هناك شيء ولا جدوى من ذلك المعنى ولا جدوى من كل شيء؟ لقد كان فرانسيسكوس يتكلم ويلقي خطبته على كل شيء كان يتحدث حتى للطيور وذلك لأنه كان يعتقد بأن الطيور والعصافير وجميع الحيوانات هم جزء مُشارك أيضاً من هذا كله، وكذلك القمر، كان يقول أنه أخ للقمر، لقد كان يرى فرانسيسكوس نفسه بشكل قوي مع كل شيء موجود في الوجود، ألهذا كان يخلع ملابسه وينام عارياً في سرير الموت هناك قرب الكنيسة؟

لكن هؤلاء الذين وصلوا إلى ما وصلوا إليه وأصبحوا على ما هم عليه إذا كان في الأساس الإله موجوداً، هل كانوا يعيشون بنوع من الثمالة في الإله ومخدرين به في نشوة دائمة؟ أم أنهم يعيشون منغلقين، منطوين على أنفسهم دائماً؟ مما جعل القديسة بيرجيتا تدعي بأن الله وعدها أنه سيكون معها إلى أن تموت وأن الوحي اتصل بها 600 مرة على مدى 29 سنة.

لا، لقد كان سورين لا يؤمن برابطة الغموض السرية تلك، ولا بالتغيير المقترن بشكل شامل أو باتصال ما لاسلكي كامل يجري بين الوجود والإنسان، إنه يتعاطف أكثر مع النبي المسيحي باولوس، على الرغم من أنه ادّعى يقول:

«أنا أعيش، رغم أن نفسي لم تعد هي نفسي التي تعيش، إنه المسيح هو الذي يحيا في داخلي» مع ذلك كان سورين يؤمن بأن هناك حرية لا تزال باقية لديه، حرية أن يستمع إلى صوت الأبدية، أو كالفيلسوف اليهودي مارتين بوبر الذي اختار أن ينغلق على نفسه فقط ويغلق الباب فاختار النهاية مقابل اللانهاية.

لا يا إنسان! يقول سورين كيركيجارد في كتاباته الخاتمة غير العلمية،

ينبغي على الإنسان أن يضع قدماً في حياته وقدماً في الأبدية، أن يتصرف دائماً بشكل واقعي تماماً وبنفس الوقت أن يفكر في الأبدية، يكتب سورين، استيقظ صباحاً وتناول فطورك، اذهب إلى العمل وتصرف وعش وكأنه هذا هو الواقع كله، وبنفس الوقت لا تنسى وتذكر أن هناك منظوراً آخر، ذلك الذي تعمله كل يوم يمكن لك أن تراه بمنظور أبدي، أن تفكر في كلا الاثنين أي أنت شيء وفي الوقت نفسه أنت لا شيء.

وهكذا صرتُ أفكر كما يفكر الأب توماس أسقف الأقباط المصري الذي كان يزور السويد بين حين وآخر كان عادة ما يستخدم إبريق الماء الذي نسقي به الزرع ويضع لتراً من الماء في ذلك الإبريق لكي يشرح نظريته عن الإله، بأن الماء الذي داخل الإبريق الشفاف هو الله أو هو الدائم أبداً، أو أنه الكل، أو كل شيء، والكأس الذي داخله هو الإنسان.

لكي يرينا ويعرض لنا ماذا تعني نظريته، يملأ الإبريق بالماء ثم يأخذ كأساً وينزلها بحذر في الماء الذي داخل الإبريق ثم قليلاً، قليلاً، يدع نصفها مغمور في المياه دون أن تغرق.

«انظر!» - يقول الأب توماس، «- إن هذا الكأس هو الإنسان، إنه لا يفهم إلى الآن من يكون، ولا إلى من ينتمي، إنه يعوم عشوائياً على سطح الوجود بلا هدف محاولاً الحصول على أفضل ما يمكن لنفسه!».

«- ولكن انظر ماذا سيحدث الآن» يقول الأب ويدفع الكأس برفق إلى تحت لتمتلئ كلها بالماء، وكلما ازداد الماء داخل الكأس كلما نزل إلى أعمق داخل الإبريق، إلى أن يصل الكأس إلى تحت ويصبح في القاع.

«- انظر الآن إلى الكأس مع الماء، إنه واضح عبر الإبريق الشفاف، ما رأيك؟ ماذا تفكر؟»

«- إن الله والإنسان متوحدان معاً عبر مضمونهما، لكن لا الله ولا الإنسان مع ذلك كله، يخسر هويته أو شيء من هذا القبيل!».

- رومانسي! يتدخل سورين بتعليق حاذق، على الأرجح أني فهمت ماذا حدث للكأس لقد غرق مع بعضه البعض ونزل إلى تحت ووصل إلى شيء ما ولكن لا يزال إلى الآن ليس لديه أي فكرة أين هو؟ وقد لا يعرف حتى أنه جالس في وعاء، فيما يتصل بما هو عليه إبريق السوائل، قد يتساءل المرء، على ماذا هو جالس؟ هل للإبريق حدود ما تحده؟ وإذا كان الأمر كذلك أين هي حدوده؟

- ولكن يا سورين، على هذا الحال يمكن للمرء أن يمسك بذلك إلى ما لا نهاية دون أن يتوصل إلى أي جواب. لكن هل تعني أنه حتى أولئك الذين يشبهون فرانسيسكوس وأولئك الذين يعيشون في اتصال دائم مع الكون مع كل شيء ومع اللا شيء، هل هم أيضاً لا يزالون يتساؤلون وإلى الآن مستمرين بالتساؤل؟

- نعم، أعتقد هذا، إنهم يتساءلون هل هم محمولون من قبل شيء ما وقد يعتقدون أنهم متوحدون وحتى قد يكونوا مربوطين مع شيء ما، لكن بما أن ذلك لا يمكن وصفه ولا يمكن تقاسمه أو مشاركته مع أحد وليس لديه نظير أو شيء مماثل له في نظرية الحياة النسبية، لذلك تبقى المعرفة والعلم عن معنى حقيقة الكون عن كل شيء/ اللاشيء هي ذاتية بحتة، غير موضوعية، إنها تجربة يقين قوية لكنها إلى الآن لا تزال مجهولة وغير محققة علمياً.

يعتقد سقراط معلم سورين الخاص، أن على المرء دائماً وفي جميع الحالات وبغض النظر عن تجارب المرء سواء كانت دنيوية أم روحية، سواء كان المرء مادياً أو روحياً ومهما كانت معتقداته ومفاهيمه حول الحياة والآخرة، ينبغي عليه أن يضع كلمة «إذاً» أمام كل ادعاء يؤمن به، حتى لو كان المرء يعتقد أنه متأكد من الحقائق التي يقولها عليه أن يكون متأكداً منها فهو لا يمكنه الادعاء بأن حقيقة وجود الإله حقيقة ثابتة،

غير أن عليه أن يقول بتواضع حذر «إذاً الله موجود/ إذاً الله غير موجود!».

- إذا كان الأمر كذلك دعونا الآن نعتقد عكس كل تلك الافتراضات ولنقل بأننا نجحنا في أن نمر في مراحل سورين الثلاث وعبرنا وتعدينا خطواتها ثم وصلنا إلى الخطوة التاسعة وهكذا يصبح لدينا إحساساً بأننا توحدنا مع كل شيء ولكن ومع ذلك كله، هل هذا يعني بأنني لا أزال إلى الآن غير كائن مع حقيقتي الخاصة داخل نفسي؟ وهل كل الذي توصلت إليه وأنا ما أزال لا أعرف فيما إذا كان هناك معنى نهائياً للحياة؟

- لا!

- لكن يا سورين، في هذه الحال هل لديك أي فكرة أخرى أو شيء آخر مهم أبحث به عن الحقيقة، إن لم يوجد فلماذا أبحث عن معنى لحياتي إذاً؟

- أن تتبع عملية حياتك وتواكبها بشكل بطيء وذلك لتصبح أكثر وعياً ولتدرك من أنت، وتفهم أكثر كل ما تراه من حولك، إن ذلك هو طريق الإنسان، أن هذا يعطيك معنى لحياتك، هذا كل ما في الأمر، وفقط هذا!.

في وقتنا الحاضر لدينا البروفيسور السويدي المختص في علم الاجتماع لارس تورنستام الذي ابتكر نظرية عن تطور الإنسان تشبه نوعاً ما نظرية سورين، حتى أن تورنستام بدأ كل شيء لديه بسؤال، لقد حدثني تورنستام عندما التقيت به قبل عدة سنوات وقال لي إنه كان صغيراً تماماً كما كان سورين صغيراً ومثل سورين درس في الجامعة وكسورين تماماً لم يستطع أن يمسك نفسه إلا ليشك ويتساءل:

- هل العمر بالنسبة للإنسان مجرد مسألة تسوية فقط أم أنه مراحل تطور؟ هل الإنسان يولد، يكبر ويهرم ثم يموت أم على العكس من ذلك العمر يجعله في نمو وتقدم دائم؟

إن الإنسان عندما يكبر يكون حيداً، هكذا ما تدعيّه كل النظريات السائدة، ويتساءل هل العجائز هم الذين ينسحبون من أنفسهم من العالم لينعزلوا أم أن المجتمع هو الذي يدفع بهم للخروج والتنحي جانباً من الحياة؟ هل ينسحبوا لكثرة ازدياد فعاليات المجتمع أم أن الكبار هم بحاجة إلى من ينشطهم وإلا فإنهم سيصبحون جميعاً سلبيين ومكتئبين ومنطوين على أنفسهم؟ ولكن عندما سأل أحد كبار السن عن كيف يشعر بذلك لم يكن لهذه النظرية نوع من الصحة:

- لا، إنهم لا يشعرون بأنهم وحيدون!.

- لا، إنهم لم يشعروا بمعنى الحياة سابقاً كما يشعرون به الآن، لم يكن للحياة معنى سابقاً كما يشعرون بها الآن!.

- لا، لم يكن لديهم إحساس بالملل، لقد بدا العالم لهم بطرق جديدة استفزازية، لا تشبه طرقاً أخرى مروا بها أو عرفوها سابقاً.

لقد قدم لي واحدة من نظرياته التي قلبت المنظور.

إن الكبر والتقدم بالعمر هو فترة تغيير إيجابية وليست سلبية وإنما هي تكملة طبيعية لمراحل تطور الإنسان الطبيعية وتحوله من الأنا الأنانية إلى الأنا العليا، إذا كنا في سن العشرين متأكدين تماماً من الحياة وواقعيتها فإننا في منتصف العمر نفكر ونتأمل كثيراً، هذا ما شرحه الكثير من الأشخاص الكبار بالسن وقالوا لقد توحّد كلا الاثنين معاً، أنفسهم والحياة.

- نعم، لقد توحّدت مع نفسي ومع الكون!.

إن البحث الذي عمل عليه تورنستامس وذلك ليعزز آراءه وأفكاره حيث يقول:

إن الحياة تصبح مفهومة بشكل أكبر كلما كبر الإنسان وكلما تقدم في السن كلما أصبحت لديه مقدرة عجيبة لاستيعاب العالم بشكل أكبر وأعمق، إن العملية تبدأ مبكراً، يجيب أحد كبار السن عندما وجه إليهم هذا السؤال:

- بالفعل إن العملية تبدأ مبكراً، إنها تبدأ من سن المراهقة، عندما ينظر المراهق من حوله ويحاول الخروج من دائرة الأنا الخاصة به ليأخذ خطواته الأولى فيبدأ يتساءل:

- هل الله موجود؟ من هنا تبدأ العملية، هذا ما كان يقصد به الباحث تورنستامس، إن الأحداث الدرامية في حياة الفرد من كوارث تحدث له، أمراض، ولادة، موت، كل هذا يُسرع في العملية، طفل يمر بظرف صعب في حياته، مرض شديد، فقد أحد والديه، يمكن أن ينضج سريعاً ويصبح حكيماً مثل شخص كبير بالسن، لقد تبين أن رحلة النساء داخل النفس هي أكثر سلاسة مقارنة منها عند الرجال، إنهن يمشين بخطوات واضحة، من خطوة واضحة إلى خطوة أوضح، بينما الرجال قد يقفون ثابتين إلى حد عمر الخامسة والثلاثين عندئذٍ وفجأة يحدث شيء ما فيفتحوا عيونهم يبدؤون يطورون علاقتهم بالعالم، في سن الخامسة والستين عادة ما يكون الرجال والنساء على نفس المستوى من النضج الفكري، لكن بعد ذلك يحدث شيء ما، كما لا عجب فيما حصل لتورنستام وبدأ يفهم تلك النقطة من أن النساء والرجال المنعزلين، الذين يعيشون وحيدين يصبحون أكثر تساؤلاً كلما تقدّموا بالسن بينما هؤلاء الرجال المتزوجون بعد سن التقاعد يبدون وكأنهم يفقدون من جديد المنظور ويتجمدون مرة أخرى ويثبتون في مكانهم.

ولكن من أين تأتي الحكمة؟ الذكاء؟ إن كل ما نقوم به وله علاقة بإحساسنا بأنفسنا له علاقة بالأنا الخاصة بنا، يعتقد تورنستام، أن الإنسان ككائن صغير يُدرك أن نفسه هي مركز كل شيء ويرى أن كل شيء خارج نفسه هو هامشي وأنه أقل أهمية منه وأنه مجرد جزء صغير من ملكية الأنا التي يمتلكها هو ولكن وبالطبع كلما كبُرَ الإنسان كلما قلّت قيمة الأنا الخاصة لديه ولم تعد لها نفس الأهمية السابقة، أن أحصل على

الأشياء لنفسي أنا بالذات، يمكن أن أعمل هذا أو ذاك، أن أملك أكثر، يبدأ المرء يستوعب بأن نفسه هي كجزء من الإنسانية، كحلقة وصل في سلسلة طويلة من البشر الذين يعيشون على هذا الكوكب، بعد بضعة عقود أخرى، تمسح المزيد من الحدود وتصبح الأنا الخاصة بنا متلاشية، ولم نعد نفرقها من الأشخاص الآخرين ولا حتى من العالم، وأيضاً لم نعد نكون مرتبطين في السلسلة بل نصبح مختلطين معاً، نحن الإنسانية، نفس الشيء مع الكون، شخص كبير بالسن لم يعد ينظر إلى نفسه كشخص له اسم معين، بل يبدأ يرى نفسه باعتباره جزء لا يتجزأ من تدفق طاقة النهر الجاري الذي يسير في الكون كما أن إحساسه بالوقت يتغير أيضاً، الآن، آنذاك، بعد حين، حينئذٍ، بعد ذلك، كل الوقت يندمج معاً في واحد، ذلك ما لخصه تورنستام بكلمة واحدة وهي الزمن، أن الشخص الذي قرأ ورأى وامتثل وكان في النظرية لم يعد فرد وإنما أصبح يشعر أنه كوني يعيش في إحساس الخلود.

- ماذا لو كنت على صواب يا سورين؟ ماذا لو أن مسار خطواتك هذا صحيح؟ ماذا لو أننا لا نحتاج إلى أن نؤمن أو أن يكون لدينا نحن البشر العلم والمعرفة لنجد معنى لحياتنا؟ ماذا لو أننا نسير بشكل طبيعي في الطريق الجوّاني ونفهمه بصورة كاملة من تلقاء أنفسنا دون أن نحتاج إلى كلمات؟ ماذا لو كان الشيء الوحيد الذي يقف في طريقنا هو عدم قدرتنا على الامتثال والإنصات إلى روحنا، إلى الصوت الذي ينادي؟ ماذا لو كان الوضع ليس صعباً وأنه أسهل بكثير من هكذا يا سورين؟!

كلمة أخيرة

«... إن الشيء الأكثر خطورة هو أن ينتهي المرء بشكل سريع.»

لقد انتهى فصل الشتاء ونحن لا نزال نجلس كل يوم في مقبرة «أدولف فريدريكس» الآن حلّ الربيع ويمكننا أن ندع نافذة الكنيسة مفتوحة هناك في «بيت المدرسة» ونستطيع أن ننظر عبر النافذة لنرى الناس وهم جالسون على المصطبات الخضراء يتناولون طعام الغداء، ونرى آخرين يتمشون في المقبرة، وتَد هاريس وأنا نشرب الماء ونتقاسم بعض الفاكهة ونتحدث:

- هل تعتقد يا هاريس أن سورين كان على حق؟ سألته، هل للإنسان حقاً قوة دافعة تقوده ليبحث عن معنى حياته؟وهل ينبغي علينا أن نتقبل تلك الفكرة أم أننا قد لا نستوعب ما هو الذي نبحث عنه؟ هل معنى الحياة هو ببساطة شديدة أن نبحث عن معنى لها؟ ماذا تقول أنت يا هاريس؟

- بالنسبة لي، أعتقد أن من الضروري للمرء في جميع الأحوال أن يشبع ذلك الشعور بعدم الأمان الذي في داخله، الخاص به. قال هاريس وراح يكمل حديثه:

- على المرء أن يكون جوّانياً ولديه فضولاً وحباً لمعرفة ما يحدث من

حوله، وأن لا يكون منغلقاً بصورة قاطعة على نفسه، وبدلاً عن ذلك عليه أن يكون منفتحاً باستمرار لطرق الحياة وتغيراتها كي يحصل على رؤى جديدة له ليتعامل بها مع إضافته جزءاً صغيراً إلى جزءٍ آخر ثم بعد فترة يبدل تلك الأجزاء بأجزاء أخرى وهكذا ليحصل على صورة كاملة وجديدة، إن الصور تتغير دائماً وشيء ما في داخلنا يجعلنا نعيد تقييمنا للأشياء التي كنا نؤمن بها ، أنا أظهر نفسي لك، كم تعجب أنت وتصبح مندهشاً، أنا أتساءل وأكون منذهلاً بك، لا أحد يحكم الآخر، ولا أحد يحاول إقناع الآخر بمعتقداته وما يؤمن به أو لا يحاول إثبات شيء ما لينحاز إلى جانبه، إن اللقاء يخلق صوراً جديدة وهكذا سأكون أنا هناك في تلك الصور الجديدة!

- هل كلما كنا أكثر انفتاحاً كنا أقلَّ تعجباً؟ وهل كلما عشنا بجرأة عالية وزدنا من أسئلتنا وجادلنا كلما ازداد علمنا وزادت معرفتنا عن المعنى بشكل أسرع؟

- نعم، أنا أعتقد هكذا، يقول هاريس، لذلك السبب المعنى من الجوّانية لدى سورين مهم جداً، إذا كنا نشعر بتحسن عبر معرفتنا لأساليب العلم لنبدأ نتفهم واقعنا الخارجي يمكن لاكتشافنا الجوّانية أن يشعرنا براحة أكبر على شرط أن نبحث ونكتشف عالمنا الجوّاني بأنفسنا دون أن يحدد لنا الآخر أو نذهب وراء بحثه الذي وجده هو.

- هل ترى من السهولة لنا أن نفعل ذلك في وقتنا الحالي ما كان في الزمن الماضي، الفترة التي عاش بها سورين؟

- بالتأكيد الآن أسهل بكثير وذلك لأن الفرد حينذاك كان يعتمد بشكل ملحوظ على بيئته وعائلته وكانت سلطة المجتمع وموافقاتها هي التي تُسيّر الناس وتسيطر على كل شيء، لكننا اليوم نعيش كأفراد ولدينا إمكانيات أكبر لنستمع إلى الأنا الخاصة بنا ونسير في طريقنا ونتبع طريق الروح الخاص بنا .

يرى هاريس أن تمرين النفس على الجوّانية من المفترض أن يكون

مادة تُدرّس في المدارس، إنها أداة مهمة جداً لتطوير الإنسان كأهمية الرياضيات تماماً واللغة وغيرها من العلوم، إن تمرن المرء وفق قدراته يمكنّه أن يُدرك الإشارات الخاصة به وهكذا يمكنه أيضاً أن يحول ذلك إلى خيار فعال ومن ثم ومن خلال ذلك تكون أعماله أقرب إلى نفسه وبيئته ويبدأ بالتصرف باحترام عالٍ جديّة مع نفسه ومع الآخرين.

يعتقد سورين أن العالم بحاجة إلى أن يُجرّب، ويجرّب، وأن يعيد التجربة مرة أخرى، هذا هو ما يحتاج إليه البشر.

- لكن إذا أصبحنا داخليين أكثر ألا تعتقد أن ذلك سيخلق صراعات وخلافات كبيرة مع الآخرين؟ أنا أريد هذا الشيء، لكن ربما الآخر لا يريد هذا ويرغب في شيء آخر تماماً، كعلاقة سورين وريجينا تماماً، أقصد هكذا نوع من الخلافات؟

- نعم، نعم أفهم ماذا تعنين ولكن لا يمكن لنا أن نعمل بهكذا معنى، لكن هل من المفترض أن نكون مرغمين على عمل شيء ونكون ضد أنفسنا؟ هل نضغط على مشاعرنا ومشاعر الآخرين ونعيش في الكذب؟ ماذا كان باعتقادك رأي أبا سورين عندما لم يصبح سورين قساً كما أراد؟ أو ماذا كان باعتقادك رأي أهل فرانسيسكوس ووالديه، هل كانوا يحبون أن ينظروا إلى ولدهم وهو يجوب الشوارع كالمجنون؟ بالتأكيد كانوا قد شعروا بالجرح والألم لمعتقداتهم وذلك لأن الأطفال وُجدوا برأيهم لإرضاء والديهم.

يعتقد تَد هاريس أن تمرين الجوّانية سيطال الإنسان سواء في وقت مبكر أو متأخر، سابقاً قبل مئات السنين كان يعتقد البشر أن القراءة والكتابة للناس العاديين مسألة غير ضرورية، لكن اليوم يرى العالم أن القراءة والكتابة والتعليم أهم شيء للبشر، وكذلك في وقتنا الحالي لم يعد هناك شيء يُثير الجدل حول ما يؤمن به المرء من دين أو ماذا يعتقد ويملك من إيمان حول عقيدة أو دين معين.

- ولكن هل حقاً يمكن للمرء أن يمرن نفسه على الجوّانية؟

- بالطبع، والأفضل في طريقة سورين أنه يمكنك أن تبدأ أين ما كنت، سواء كنت في صالة الجلوس أو في غرفة صغيرة، ابدأ مع أي شيء كان، ابدأ من تلك الأشياء السهلة وغير المعقدة أو المُثيرة للجدل، ابدأ بالتمرن على الجوّانية من اختيارك للكوب الذي تشرب به القهوة، أكلات الطعام، لون الجوارب التي ستستخدمها، انتظر قليلاً فقط قبل أن تختار وقبل أن تقرر، تحسس جيداً، ميّز بين الأشياء، حاول أن تنصت إلى ماذا تريد روحك، في البداية يبدو الأمر سخيفاً، لكن بعد فترة قصيرة تصبح الجوّانية الخاصة بك أكثر حساسية وتبدأ تكتشف كل تلك الأشياء الجديدة عن نفسك، ثم يمكن للمرء أن يوسع فحصه ودراسته لمشاعره وآرائه، علاقاته، حياته المهنية، الاقتصادية، البيئية والأبعاد الروحية.

- هل تعمل أنت بهذه الطريقة؟

- أنا أحاول، إنه شيء مُثير للغاية فأحياناً أصبح مندهشاً بصورة كبيرة لا تصدق.

لقد انتهينا من تناول وجبة غدائنا والجو بدأ يبرد في المقبرة وغداً سيصبح أكثر برودة من جديد، هكذا هو الربيع مزاجي كالعادة تارة بارد وتارة دافئ، والآن بعد إن انتهينا من كل شيء بدأنا نلملم جميع الأوراق والملاحظات التي كتبتها وكذلك بدأنا نُعيد كُتب سورين كيركيجارد إلى رفوف مكتبة الكنيسة وكل شيء أعدناه إلى مكانه.

- مع السلامة تَد، سأراك!

- نعم بالتأكيد، سنلتقي!

وسورين ماذا حدث له؟

في سن الثانية والأربعون وفي 25 سبتمبر من العام 1855 كتب سورين آخر ملاحظاته، أنه تعبٌ ويشعر بأنه أصبح كبيراً في السن فقد كان صراعه

مع الكنيسة صارماً وقاس جداً وكتب يقول إن الطريق طويل أمام الإنسان والوقت أبعد ما يمكن ليحصل على الحق في أن يختار صورة العالم، صورته هو للعالم، ويجد المعنى الخاص به للعالم، إن جسد سورين لم يساعده، كتب سورين في أوقاته الأخيرة، «حان أوان الأبدية» في أيامه الأخيرة في سبتمبر سقط سورين في الشارع وفي 4 أوكتوبر دخل مستشفى فريدريك الملكية، رغم محاولة جميع أطباء المستشفى والسعي لشفائه بشتى الأساليب إلا أنه لم يتحسن، وبدل من ذلك ساءت حاله أكثر وأكثر، وفكر سورين بأنه من الأفضل له أن يموت، وذلك لأن جميع الدنماركيين كانوا يشعرون بالتعب منه ولا يمكن للمرء أن يكمل الطريق وهو ماشياً لوحده يصرخ عاماً بعد عامٍ إن لم يكن هناك من يرغب في الاستماع إليه، أنا رجل ميت، يقول سورين للدكتور هارالد كرابا، وأكد يقول إن موته سيكون مفيداً لهؤلاء الذين يعيشون، وعليه أن يختار الموت على الحياة لهذا كان سورين يرى نفسه وكأنه شخص شهيد وذلك لأنه كافح من أجل أفكاره وتابع مهمته بصبر وإصرار، وهو يشعر الآن أنه أكمل تقديم ما أراده وأنه مستعد للموت.

لا، كان يرفض أن تأتيه الممرضات للاعتناء به، وكان يرفض قراءات الكهنة وكلماتهم التي يرشدونه بها وإذا كان بحاجة إلى رعاية ليلية فكان يطلبها من إنسان مدني، عادي، كان من المستحيل أن يفهم رفضه ذاك فقد كان يتألم ويشعر بالبرد وقد امتنع عن الطعام والشراب، وسرعان ما بدأ يتنفس بصعوبة، وهكذا وفي يوم الأحد 11 نوفمبر الساعة التاسعة مساءاً لم يعد الهواء يكفي لرئتيه ثم بعد ذلك توفى سورين.

بعد بضعة أيام أقيم حفل تأبين له في الكنيسة وهكذا مثل ما عاش حياة غير تقليدية، كانت جنازته وتشييعه غير تقليدي أيضاً، لقد امتلأت الكنيسة بأناس غير متوقع حضورهم أغلبهم من طبقة المجتمع الراقي

وكانت النساء يرتدين الملابس الملونة من الأحمر والأزرق وكنّ يضعن على رؤوسهن قبعات عريضة ويتقاسمن مقاعد المصطبات مع الرجال، وكان المتحدث هـ. س. أندرس واقفاً قرب التابوت الصغير المُزين بالورود يقدم قراءته على شكل رسالة يقرؤها إلى صديق، وهناك تقف مجموعة من الرجال المشاكسين أشكالهم غير مهندمة ثم ينسحبون من الجنازة حال وصول مجموعة كبيرة من تلاميذ الجامعة يتقدمون في دائرة ليحتضنوا بها جنازة سورين، وكذلك هناك شخص واقف بعيداً خلف الأعمدة ينظر إلى الجنازة ويمسك بيده كلب مع كمامة مشبكة على فمه، لكن الوضع لا يتحسن عندما يندفع آلاف من البشر إلى القبر يدوسون القبر دون أن تتدخل الشرطة لتوقفهم وبالكاد يقوم عميد الأبرشية القس أ.س. تريدا بإلقاء ثلاث حفنات من التراب على التابوت حتى يتقدم شاب طويل القامة باهت الوجه يرتدي ملابس سوداء صارخاً بصوت عال محتجاً غاضباً على الكنيسة ويقرأ بكلمات سورين الشهيرة التي كان يكتبها في الجريدة اليومية جريدة «اللحظة».

بعد ثلاثة أشهر من موت سورين، بدأ البروفيسور راسموس نيلسون بإعطاء دروس في جامعة كوبنهايكن عن فلسفة سورين كيركيجارد، ثم سرعان ما اكتشفت كتبه من قبل الكتّاب والأساتذة، مثل فرانس كافكا، ألبرت كاموس وأوجست سترند بيرغ، وحتى علماء الدين المُتخصصين في علم الأديان، التقطوا من مذكراته الدينية وأخذوا منها، أمثال بول تليك ومارتين بوبر، وبعد مئة عام من موت سورين ابتكر الفلاسفة جان بول سارتر ومارتن هايدجر وهم أحد الفروع من شجرة العائلة الفلسفية التي يسمونها الوجودية، فلسفتهم القادمة جذورها من فلسفة سورين كيركيجارد.

الفهرس

أنصت إلى ذاتك

هذا الكتاب هو عن معنى الحياة، لا أكثر ولا أقل عن لماذا نتوق لمعرفة معنى حياتنا؟ وكيف يمكننا العثور على هذا المعنى ولماذا من الضروري والهام أن نتعلم نعيش جوّانيون؟ أن المرشد الكبير الفيلسوف الدنماركي سورين كيركيجارد كرس حياته كلها محاولاً فهم ماذا يعني أن تكون إنساناً ؟ وما هي الأفكار التي وضعها لأساس مذهب الوجودية؟ مع مرور الوقت استطاع كيركيجارد أن يجد طريق بثلاثة مراحل وتسع خطوات بدأها من المرحلة الحسية مروراً بالجوّانية ثم إلى الروحية، أن هذا الكتاب ليس درساً تعليمياً سريعاً لتعرف معنى حياتك، ولا هو طريق مختصر لتفهمها وليس هناك معلم ليعطيك جواباً جاهزاً لتتعرف على معنى حياتك:

-أنا استطيع أن أشير لك فقط إلى الإتجاه الصحيح في طريق البحث، يقول سورين، ويمكنني أن أُبين لك أيضاً ما هي إمكانيات المخاطر التي يمكن أن تواجهك ولكنني لا أستطيع أن أجد لك معنى خاص لحياتك، فأنت الوحيد فقط الذي يستطيع أن يفعل ذلك!

أنها صور مقنعة ومفهومة عن أفكار كيركيجارد!


9 789933 456580



